



كلية الدراسات العليا والبحث العلمي

برنامج التاريخ

**بيت لحم في العهدين الأيوبي والمملوكي
(567-922هـ/1171-1517م)**

إعداد

خلود محمود إبراهيم الملاح

إشراف

د. شوكت رمضان حجة

قُدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ بكلية الدراسات العليا
والبحث العلمي في جامعة الخليل

1440هـ / 2018م

عنوان الرسالة المقدمة لنيل درجة الماجستير

بيت لحم في العهدين الأيوبي والمملوكي (567-922هـ / 1171-1517م)

Bethlehem in the Ayobid and Mamluk Eras

(567-922 AH/1171-1517 AD)

اسم الطالبة: خلود محمود إبراهيم الملاح

المشرف: د. شوكت رمضان حجة

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ 2018/12/22م، من اعضاء لجنة المناقشة المدرجة أسماؤهم وتوافقهم:

التوقيع
التوقيع
التوقيع
مفضل

1. رئيس لجنة المناقشة : د. شوكت رمضان حجة

2. ممتحناً داخلياً: د. خلقي خنفر

3. ممتحناً خارجياً: د. محمد عثمان الخطيب

الخليل - فلسطين

2018م/1439هـ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الإهداء

إلى من كان خير عون لي في رحلتي هذه، إلى الكتف والسند الدائم، إلى من غرس بذرة حب العلم والمعرفة فينا،

إلى والدي الغالي

إلى التي لا تنطفى لأجلنا، إلى من تحارب الكون في سبيلنا، إلى التي لا تنساني بدعائها دائما إلى التي لا ينقطع حبي لها

إلى شمعة البيت والدتي الغالية

إلى صديقي الطفولة والشباب، إلى اخوي العزيزين يزن وإبراهيم

إلى من هم قطعة من القلب، أخواتي أماني وأسماء وديمة

إلى من وجدت الحياة معه، إلى من أمسك بيدي ورافقني في رحلتي هذه، إلى من شجعني، ودعمني، وساندني، إلى

الرائع زوجي "أبو مريم"

إلى من أكتل القلب بوجودها، إلى من جعلتني أمًا، إلى قطعة السكر ابنتي مريم

إلى عائلتي الثانية التي اخترتها بنفسها فكانت من أجمل هدايا القدر

وأولاً وأخيراً إلى الوطن الذي لا يمل من احتوائنا إلى فلسطين العزيزة

خلود الملاح

الشكر والتقدير

أقدر وأشكر الدكتور شوكت رمضان حجة على إشرافه على هذه الرسالة، فإنني أعترف بفضله وجهوده وأقدر الثقة والمساندة التي قدمها لي أثناء كتابتي الرسالة، فقد كان يشجعني ويحفزني على التقدم رغم كل الظروف التي مرتت بها أثناء كتابتي لهذه الرسالة.

كما أقدر وأشكر لجنة المناقشة لتكرمها لمناقشة هذه الرسالة.

كما وأشكر زملاء الدراسة على ما قدموه من نصح ومساعدة، وشكر خاص للصديقة الوفية الغالية آلاء مناصرة لوقوفها معي في أشد الظروف صعوبة.

كما وأشكر كل من ساهم في تدقيق وتنسيق هذه الرسالة وأخص بالذكر كلاً من عمي الأستاذ الدكتور ياسر الملّاح، والأستاذ محمد أبو لاوي، والأستاذ شادي جوابرة. فلهؤلاء جميعاً أجزل الشكر وعظيم التقدير والامتنان

الباحثة

خلود الملّاح

قائمة الاختصارات

ت	تاريخ الوفاة
د.ت	دون تاريخ نشر
د.د	دون دار نشر
د.م	دون مكان نشر
دفتر	دفاتر تحرير لواء القدس
سجل	سجلات محاكم القدس الشرعية
ط	قيراط - ٢٤/١
ق	قسم
كغم	كيلو غرام
كم	كيلو متر
م	ميلادي
هـ	هجري

مَسْرَد (فهرس) المحتويات

الصفحة	العنوان
أ	الإهداء
ب	الشكر والتقدير
ت	قائمة الاختصارات
ث	مَسْرَد (فهرس) المحتويات
خ	ملخص الرسالة باللغة العربية
ذ	المقدمة
الفصل الأول	
جغرافية بيت لحم	
٢	المعنى اللغوي والتسمية
٤	نشأة المدينة
٨	أهم المظاهر الجغرافية
١١	المياه
١٣	مدينة بيت لحم في كتب الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين والغربيين
الفصل الثاني	
بيت لحم في العهد الأيوبي	
٣٠	تمهيد
٣٥	التبعية السياسية والإدارية لبيت لحم
٣٧	الحياة الاجتماعية
٣٧	السكان

٤١	الزواج
٤٥	الأحوال الاقتصادية في بيت لحم في العهد الأيوبي
٤٥	الزراعة والثروة الحيوانية
٤٥	- الزراعة
٥٢	- الثروة الحيوانية
٥٣	الصناعة
٥٦	التجارة
٥٩	بيت لحم في فترة حكم السلطان صلاح الدين الأيوبي
٥٩	بيت لحم بين الاحتلال الفرنجي (الصليبي) والفتح الأيوبي
٦٤	المعاهدات التي تطرقت لبيت لحم في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي
٦٧	التسامح الأيوبي مع الفرنجة والمسيحيين
٧٠	بيت لحم في عهد الملك الكامل الأيوبي
٧٠	صلح يافا (٦٢٦هـ/١٢٢٨م)
٧١	نقش الملك الكامل على باب كنيسة المهد
٧٣	بيت لحم في عهد الصالح نجم الدين أيوب
الفصل الثالث	
بيت لحم في العهد المملوكي	
٧٧	تمهيد
٨١	التبعية السياسية والإدارية
٨٧	الحياة الاجتماعية
٨٧	- السكان
٨٧	المسلمون
٨٨	المسيحيون

٩١	اليهود
٩٤	-العادات الاجتماعية
٩٤	المعتقدات والعادات
٩٨	الملابس
٩٩	- ملابس الرجال
١٠٠	- ملابس النساء
١٠١	المظاهر العمرانية
١٠٦	الأعياد والاحتفالات
١٠٩	العلاقة بين المسيحيين والسلطة المملوكية في بيت لحم
١١٧	الأحوال الاقتصادية في بيت لحم في العهد المملوكي
١١٧	الإنتاج الزراعي والثروة الحيوانية
١١٧	- الإنتاج الزراعي
١٢٣	- الثروة الحيوانية
١٢٤	الصناعة
١٢٧	التجارة
١٣٤	أوقاف بيت لحم في الفترة المملوكية
١٤٠	مواقف السلاطين المماليك تجاه كنيسة المهد
١٤٥	الخاتمة
١٤٧	قائمة المصادر والمراجع
١٨٤	ملخص باللغة الإنجليزية

المخلص

تناولت هذه الدراسة بيت لحم في العهدين الأيوبي والمملوكي، وهدفت إلى بيان أوضاعها المختلفة السياسية والحضارية بالفترتين الأيوبية والمملوكية، وهما فترتان إسلاميتان متتاليتان، لذلك لم تكن الاختلافات كبيرة إلا أنها وجدت في بعض النواحي، وقد جاءت الدراسة في ثلاثة فصول:

تحدثت في الفصل الأول عن جغرافية بيت لحم، وأسباب تسميتها، ومعناها اللغوي، وذكرت نشأتها، وتطرقت للمظاهر الجغرافية فيها، والمناخ، ومصادر المياه، بالإضافة إلى بيت لحم في كتب الجغرافيين والرحالة المسلمين والأجانب.

ثم جاء الفصل الثاني والذي كان بعنوان بيت لحم في العهد الأيوبي، وابتدأت الفصل بتمهيد تعرضت فيه لتعريف الأيوبيين، وكيفية سيطرتهم على الحكم، ثم تحدثت عن التبعية السياسية والإدارية لفلسطين بشكل عام وبيت لحم بشكل خاص في الفترة الأيوبية، ومن ثم بحثت الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة في تلك الفترة وتحديداً موضوعي الزواج والسكان، وبعدها بيّنا الأحوال الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة، وأخيراً قدمت عرضاً لأحوال بيت لحم ضمن فترات حكم كل من السلطان صلاح الدين الأيوبي، والسلطان الكامل الأيوبي، والسلطان نجم الدين أيوب.

أما الفصل الثالث والأخير، فقد شمل على تمهيد تحدثت فيه عن الممالك واستيلائهم على الحكم في بلاد الشام ومصر، ومن ثم بحثت موضوع التبعية الإدارية والسياسية لبيت لحم في تلك الفترة، وعرجت بعدها على موضوعات كالسكان والعادات الاجتماعية وذلك ضمن مبحث الحياة الاجتماعية، وكان لا بد من

التطرق للأحوال الاقتصادية من منتجات زراعية، وصناعية، وتجارية، وأخيراً تعرضت إلى كنيسة المهد ومواقف السلاطين المماليك تجاهها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد (ﷺ) وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد،

فقد تناول هذه الدراسة بيت لحم في العهدين الأيوبي والمملوكي، تلك البؤرة الصغيرة في مساحتها الجغرافية، الواسعة في مساحتها التاريخية، فهي مدينة تتربع في أركانها المعالم الأثرية، والدينية، والسياحية؛ ما جعلها محط أنظار العالمين المسيحي والإسلامي على حد سواء، فمآذن جوامعها تتادي أجراس كنائسها لتعلم العالم معنى التآخي والانتماء، فعلى أرضها ولد عيسى (عليه السلام) ليحمل رسالة السلام والمحبة ويحفل تاريخها بالكثير من القضايا السياسية، والاجتماعية، والتاريخية، والاقتصادية والتي ما زالت مغمورة لذا فإنها ما تزال بحاجة لمن ينقب عنها، ويسلط الضوء أكثر على جوانبها الخفية.

حظيت المدن الفلسطينية -في غالبها- على دراسات توثق أحوالها بشكل عام وفي فترات زمنية مختلفة، ولعل مدينة بيت لحم من المدن التي لم تلقَ هذا الاهتمام، ولم يسقط الضوء عليها من قبل الباحثين وتحديداً في الفترات الإسلامية، فكان هذا سبباً كافياً دفعني لدراستها في فترتين إسلاميتين متتاليتين لأسلط الضوء أكثر على اسمها، ولأبين أهمية هذه المدينة المقدسة، وأنها مدينة شأنها شأن باقي المدن الفلسطينية لها تاريخ حافل، عاصر فترات زمنية مختلفة، ونبعت أهمية الدراسة في معرفة المزيد من جوانب الحكمين الأيوبي والمملوكي لبيت لحم والبحث في الإرث المعلوماتي حول الجوانب المتنوعة التي كانت سائدة فيها للخروج

بنتائج تليق بهذه الدراسة وكلّي أمل أن يتناول موضوعي هذا المزيد من الباحثين والقارئین وإثرائه بأكبر قدر ممكن من المعلومات والتفاصيل.

وقد جعلت هذه الدراسة في ثلاثة فصول وخاتمة، وجاء الفصل الأول بعنوان " جغرافية بيت لحم"، وفيه عرض لتسميتها ومعناها اللغوي، ونشأتها، ولأهم مظاهرها الجغرافية، ولأهم مصادر المياه فيها، وأخيراً كيف كانت بيت لحم في عيون الرحالة العرب والمسلمين والأجانب.

وكان الفصل الثاني بعنوان " بيت لحم في العهد الأيوبي"، وفيه تحدثنا عن تبعيتها السياسية والإدارية في تلك الفترة، ومن ثم للحياة الاجتماعية التي كانت سائدة فيها، وبعدها تطرقنا للأحوال الاقتصادية، ثم وضعنا كيف كانت بيت لحم في فترة حكم السلطان صلاح الدين الأيوبي، وتلا ذلك فترة حكم السلطان الكامل بن العادل لبيت لحم، وأخيراً فترة حكم السلطان نجم الدين أيوب لها.

وبين الفصل الثالث والذي كان بعنوان "بيت لحم في العهد المملوكي" التبعية السياسية والإدارية لبيت لحم في تلك الفترة، وتطرقنا للحياة الاجتماعية من سكان، وملابس، وعمران، وكيفية الاحتفال بالأعياد والمناسبات ومراسم الزواج، وبعدها تحدثنا عن الأحوال الاقتصادية والتي شملت الزراعة، والصناعة، والتجارة، ومن ثم أوضحنا علاقة النصارى المسيحيين بالسلطات المملوكية في بيت لحم، وعرجنا بعدها على موضوع أوقاف بيت لحم في تلك الفترة، وأخيراً وضعنا مواقف السلاطين المماليك تجاه كنيسة المهد.

انتهت الدراسة بخاتمة تضمنت خلاصة ما توصلت إليه الدراسة، وقائمة شملت المصادر والمراجع.

منهجية البحث:

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على منهج البحث التاريخي الوصفي التحليلي، للحصول على المعلومات من مصادرها المتنوعة، ومن ثم تمحيص ونقد لهذه المعلومات ودراستها بشكل علمي للوصول إلى نتائج جديدة تثري التاريخ؛ وذلك من أجل معرفة أوضاع بيت لحم في الفترة الأيوبية والمملوكية.

الدراسات السابقة:

اعتمدت هذه الدراسة على عدد من الدراسات السابقة التي كان لها دور في إثراء الرسالة وإغنائها وأهمها: كتاب "قصة مدينة بيت لحم" لوليد مصطفى، وتحدث عن تاريخ بيت لحم قديماً وحديثاً، وتحدث عنها بشكل عام، وكتاب توما بنورة " تاريخ بيت لحم بيت جالا بيت ساحور" وقد تطرق لتاريخ بيت لحم في العهود المختلفة سواء القديمة أو الإسلامية، وأخيراً كتاب " بيت لحم بيت جالا بيت ساحور النصارى وجوارها" لمحمد البخيت، وفيه تطرق -أيضاً- لتاريخها في مختلف العصور مع التركيز على الفترة العثمانية التي هي بالأصل خارج نطاق دراستنا، وتناولت هذه الدراسات تاريخ بيت لحم بشكل مختصر دون التركيز على العهدين الأيوبي والمملوكي.

تحليل لأهم مصادر ومراجع الدراسة:

قامت هذه الدراسة على العديد من المصادر الأساسية التاريخية والجغرافية، وقد جاءت غالبيتها معاصرة لفترة الدراسة، أو قريبة العهد منها، حيث شكلت الأساس التي قامت عليه الدراسة، وقمنا بعرض بعض المصادر الأساسية والمراجع التي اعتمدنا عليها في البحث:

كتاب أبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م) وهو من أهم المؤرخين الذين عاصروا الفترة الأيوبية، ومن خلال كتابه "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" استطعنا أن نتعرف إلى أوضاع بيت لحم السياسية في الفترة الأيوبية، واعتمدنا كذلك على كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" لابن شداد (ت ٦٣٢هـ/١٢٢٤م) وهو كتاب معاصر للفترة الأيوبية -أيضاً- وأفادنا هذا الكتاب بمعلومات وحقائق تتصل بالأوضاع السياسية والاقتصادية لبيت لحم، وكذلك أفادنا كتاب بدر الدين العيني (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م) "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان"، في بعض الأحداث التي تخص بيت لحم بالفترة الأيوبية .

أما بالنسبة للفترة المملوكية فرجعنا لكتاب "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك"، لابن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣هـ/١٤٦٨م) والذي تطرق لأحداث سياسية واقتصادية خاصة ببيت لحم.

ووجدنا بعض المعلومات عن بيت لحم بالنسبة للتبعية الإدارية والحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة في الكتابين الأول: "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" للقلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، والثاني: "السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٠م)، كما وأفادنا كتاب "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" لمجير الدين العليمي (ت ٩٢٨هـ/١٥٢١م) بالعديد من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية لبيت لحم.

أما أهم كتب المراجع فكان كتاب "القدس في العصرين الفاطمي والأيوبي" لوائل اعبيد حيث حفل كتابه بجوانب الحياة المختلفة للقدس، وتطرق لما حولها من مناطق مثل بيت لحم، وقد وجدنا من المعلومات التاريخية، والسياسية، والاقتصادية ما أفادنا، وكذلك من المراجع المهمة كتاب "فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي" لشاكر مصطفى، حيث تطرق بشكل موسع في الأمور الإدارية والاقتصادية، أما كتاب خليل عثمانة "فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي" فقد أفادني كثيراً في الفترتين الأيوبية والمملوكية في

كل المجالات، وأخيراً كتاب علي السيد علي " القدس في العصر المملوكي " فقد تطرق لبيت لحم وأحوالها
كونها من قرى القدس المجاورة.

الباحثة

خلود الملاح

الفصل الأول جغرافية بيت لحم

- المعنى اللغوي والتسمية
- نشأة المدينة
- أهم المظاهر الجغرافية
- المياه
- مدينة بيت لحم في كتب الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين والأجانب

المعنى اللغوي والتسمية:

بُنِيَ لَحْمٌ بِالْفَتْحِ وَسُكُونِ الْحَاءِ، وَقِيلَ: بِالْحَاءِ الْمَعْجَمَةِ، وَقِيلَ بِالْوَجْهِينِ أَي "بَيْتِ لَحْمٍ" وَ"بَيْتِ لَحْمٍ"^(١)، وَتَذَكَّرَ وَثَائِقُ تَلِّ الْعِمَارَةِ^(٢) فِي خَرِبَةِ قَمْرَانَ^(٣) مَدِينَةَ جَنُوبِ الْقُدْسِ تَسْمَى بَيْتَ إِيْلُو لَاهَامَا (Bit Ilu Lahama)، أَي بَيْتَ الْإِلَهِ "لَا حَامَا" أَوْ "لَا خَامَا"، وَهُوَ إِلَهُ الْقُوَّةِ وَالطَّعَامِ عِنْدَ الْكَنْعَانِيِّينَ^(٤)، وَالْمَرْجَحُ أَنَّ اسْمَ بَيْتِ لَحْمٍ اشْتَقَّ مِنْ اسْمِ هَذَا الْإِلَهِ، حَيْثُ كَانَتْ تَسْمَى "لَا حَامَا" وَأَصْبَحَتْ بَيْتَ لَحْمٍ فِيمَا بَعْدَ^(٥)، وَرَبْمَا السَّبَبُ الَّذِي جَعَلَ الْمَدِينَةَ بَيْتًا لِلْإِلَهِ لَاهَامَا؛ أَنَّهَا كَانَتْ تَقَعُ بِمَنْطِقَةِ خَصْبَةٍ تَرَعَى فِيهَا الْأَغْنَامَ، وَالْمَوَاشِيَ، وَتَنْتَشِرُ

(١) البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ٢٨٩/١؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٥٢١/١؛ القزويني، آثار البلاد، ١٥٩؛ البغدادي، صفي الدين، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٢٣٨/١؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ١٢٣.

(٢) ألواح تل العمارنة: كشف عنها سنة (١٣٠٤هـ / ١٨٨٧م) في موقع تل العمارنة بمصر وبالتحديد بأسبوط، وهي مجموعة من الوثائق الكتابية المسمارية على ألواح من طين، والتي تعد من أهم مصادر كتابة تاريخ بلاد الشام والعلاقة التي كانت بها مع مصر في القرن الرابع عشر ق.م، وهي عبارة عن (٣٥٠) رسالة تمت بين الفراعنة وأمراء آسيا. ينظر: البلعكي، منير، موسوعة المورد العربية، ٥٧.؛ شعيب، منى، المسجد الأقصى والهيكل الثالث، ٣.؛ عامر، محمد، عروبة القدس ودعاوي الصهيونية، ٤٤.

(٣) خربة قمران: تقع على بعد كيلومترين ونصف الكيلومتر عن البحر الميت، وقل وجدت فيها ألواح عام (١٩٤٧م) من قبل شاب اسمه محمد ذيب من عشيرة التعامرة التابعة لببيت لحم، كان يرعى قطيعاً من المعز في تلك المنطقة، ووجد كهفاً مليئاً بالجرار، بعضها فارغ وبعضها الآخر يحتوي على دروج (وهو قرطاس طويل يكتب فيه ويلف) من الرق، وبعضها مغلف بقماش من الكتان القديم، وقد صعد الشاب بهذه الدروج إلى بيت لحم وعرضها على أحد شيوخها، إلا أنها لم تكن بالعربية؛ فعرضها على أحد التجار وأبقاها معه حتى أخذها إلى القدس وعرضها على أحد أفراد ملته -السريان- ويبدو أنها كانت بالعبرية، وهناك رأي يقول: إن عرب التعامرة قد باعوا هذه الدروج لتاجر يهودي؛ لهذا استقرت في الجامعة العبرية، وتعود هذه الدروج إلى حوالي بدء التاريخ المسيحي. ينظر: رستم، أسد، مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران، ٢-٤.

(٤) الكنعانيون: هم شعب ينتمون إلى جدهم عمليق الذي نزل قرب مكة ونزح بعض نسله إلى جنوب فلسطين حيث بيت لحم وغيرها من مدن الجنوب. ينظر: الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ٢٠٦/١؛ ابن خلدون، عبدالرحمن، تاريخ ابن خلدون، ١٠/٢.

(٥) مصطفى، وليد، قصة مدينة بيت لحم، ١١.

فيها حقول القمح والشعير، والكروم، والزيتون^(١)، وقد كانت بيت لحم بخصوبة أراضيها، وسهولها، أهلاً لتكون مسكناً لإله الخصب^(٢).

ومن أسماء بيت لحم "أفراة" و "أفراة"^(٣)، بمعنى فتات الخبز، ويقال إن سبب تسميتها بهذا الاسم هو أن غالب بن حصرون لما ماتت امرأته تزوج امرأة أرملة اسمها أفراة، ولحبه لها دعا المدينة باسمها ورزق منها بابنين هما: لحم وآمون، ولكثرة حبه لابنه لحم بنى مدينة وأضافها إلى أفراة وسماها "بيت لحم أفراة".^(٤) أما باللغة الآرامية فأطلق عليها "لاحمو"^(٥) وهذا يدل -أيضاً- على خصوبة أرض المدينة.^(٦)

ومن أسمائها -أيضاً- مدينة داود نسبة إلى الملك داود (عليه السلام)، حيث يقال إنه ولد فيها وشرب من مياه آبار تقع في الشمال من بيت لحم، وسميت بآبار النبي داود تيمناً به، كما ورد في العهد القديم.^(٧)

(١) مصطفى، وليد، قصة مدينة بيت لحم، ١١.

(٢) أبو علم، عبد الله، أسماء ومسميات فلسطينية وعربية وأجنبية، ٥٢.

(٣) الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٨ / ٤٠٢؛ السرياني، ماديونيسيوس، الدر الفريد في تفسير العهد الجديد، ٦٩.

(٤) الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ج ٢، ٤٠٢.

(٥) تعني باللغة الآرامية "لحم" أو "لحم" ومعناها الخبز. الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ج ٢، ٤٠٢.

(٦) بنورة، توما، تاريخ بيت لحم بيت جالا بيت ساحور، ١٠.

(٧) صموئيل ٦/٢٠، ٢٠/٢٨؛ وفي العهد الجديد لوقا ٤/٢، يوحنا ٤٢/٧.

أما باللغة العربية فـ "البيت" هو مكان السكن والمبيت^(١) ، و"لحم" جاءت تعبيراً عن خصوبة الأرض وكثرة مراعيها، وماشيتها^(٢)، وبذلك تلتقي أسماء مدينة بيت لحم بكل اللغات عند معنى الخصب.

نشأة المدينة:

سكنت القبائل الكنعانية بيت لحم حوالي عام ألفين قبل الميلاد، ويشير إلى ذلك بقايا الحيوانات المكتشفة، والأدوات الحجرية المستخدمة، والفخارات التي عثر عليها شرقي كنيسة المهد، وقد أقيم في مكان كنيسة المهد معبد تقدم فيه القرابين، وأقام الكنعانيون معبداً آخر في الجليل يحمل الاسم نفسه، وتطور المعبد وأصبح مدينة بيت لحم^(٣) أخرى^(٤).

وفي أواخر القرن الحادي عشر (ق.م) تغلب الفلسطينيون على الملك اليهودي شاؤول(Saul)^(٥) وقتلوه، وأقاموا في بيت لحم فترة إلى أن تغلب عليهم الملك داود والذي ولد فيها كما ذكرنا.^(٦)

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (بيت).

(٢) مصطفى، وليد، قصة مدينة بيت لحم، ١١؛ أبو علم، عبد الله، أسماء ومسميات فلسطينية وعربية وأجنبية، ٥٢؛ عراف، شكري، المواقع الجغرافية في فلسطين، ٤١٦.

(٣) تجدر الإشارة ان هناك بيت لحم أخرى في فلسطين وهي بيت لحم الجليلية، وسميت كذلك تمييزاً لها عن بيت لحم الأصلية، و تقع إلى الشمال الشرقي من طبعون وحيفا. ينظر: عراف، شكري، المواقع الجغرافية في فلسطين ، ٤١٧

(٤) مصطفى وليد، قصة مدينة بيت لحم، ١١.

(٥) شاؤول: أول ملوك بني إسرائيل، وكانت فترة حكمه تمتد ما بين (١٠٢١-١٠٠٠ ق.م)، قاتل الفلسطينين فأنزلوا به هزيمة منكرة، فانتحر بعد أن قتل أولاده في المعركة، خلفه الملك داوود. ينظر: البعلبكي، منير، موسوعة المورد العربية، ٢٥٧؛

البيشاوي، يحيى، المسرح والقضايا المعاصرة، ٣٥٩.

(٦) الخوند، سعود، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ١٩٨

ثم سكنها الملك الروماني هيرودوس (Herod) ^(١) ، وبنى في شرقها قلعة يلجأ إليها زمن الحرب. ^(٢) وكان هذا حالها قبل اعتراف الامبراطورية الرومانية بالديانة المسيحية كديانة رسمية، إلا أن مولد السيد عيسى (عليه السلام)، واعتراف الامبراطورية الرومانية بالديانة المسيحية؛ أمداً بيت لحم بأهمية خاصة، وأكسبها شهرة واسعة.

بعد اعتراف الامبراطورية الرومانية بالديانة المسيحية، بنى الملك قسطنطين وأمه الملكة هيلانة عام (٣٢٥م) كنيسة المهد في بيت لحم ^(٣)، وقد أشادت المصادر الجغرافية، وكتب الأنساب إلى استيطان مبكر قبل الإسلام ^(٤) لعشائر لخم ^(٥)

^(١) هيرودس: هو ملك اليهودية في ظل الرومان، حكم فلسطين ثلاثاً وثلاثين سنة (٣٧-٤٠ ق.م)، كان هماماً، نشيطاً، مدبراً منظماً، مدهناً، فعظم أمره، واتسع سلطانه، وازدهر ملكه فلقب "بالكبير"، حاول أن يكسب ود اليهود فأعاد بناء الهيكل في بيت المقدس، وبنى مدينة قيصرية، وقبيل وفاته أمر بذبح جميع أطفال بيت لحم؛ محاولاً بذلك قتل الطفل عيسى (عليه السلام) ولكن في عهده ولد السيد المسيح (عليه السلام). ينظر: البعلبكي، منير، معجم أعلام المورد، ٤٨٨ .

^(٢) ثيودوري، إبراهيم، القدس في العيون، ٢٦؛ مصطفى وليد، قصة مدينة بيت لحم، ١٣-١٤.

^(٣) الخوند، مسعود، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ١٩٩.

^(٤) وتشير الروايات أن الإسلام عندما أوشك على الانتصار، وإنجاز لحظة التحول الكبرى في حياة العرب، طلب زعيم قبلي عرف بكثرة أسفاره وهو تميم الداري اللخمي من قبيلة لخم من النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يهبه قريته القديمة (بيت لحم- بيت لحم)، وأن تعود له ملكيتها التي ضاعت منه، فقال للنبي (ﷺ): "إن الله مظهرك على الأرض كلها فهب لي قريتي من (بيت لحم)، فقال النبي (ﷺ): هي لك وكتب له بها". ولما استخلف عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وظهر ببلاد الشام، جاءه تميم الداري بكتاب النبي (ﷺ)، فقال له عمر: أنا شاهدك، فأعطاه إياها". وهذا يدل على أن ملكية بيت لحم كانت تعود لقبيلة لخم اليمنية وحتى بعد ظهور الإسلام، حيث إن تميم الداري من هذه القبيلة، وهو ما أكدته المصادر العربية القديمة. ينظر: البكري، معجم ما استعجم من الأسماء والمواقع، ٢٨٩/١؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٢٨٩/١؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٤٤٣/٢.

^(٥) لخم: واسمه مالك بن عدي، بن الحارث، من قحطان، هاجر بنوه من اليمن في القرن الثالث للميلاد، استقر بعضهم في الحيرة وأنشأوا دولة المناذرة، واستقر القسم الآخر في بيت المقدس ونزلوا بالمكان الذي ولد به عيسى (عليه السلام) أي في بيت لحم. ينظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ٣٩٦؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٢٥٦/٢؛ المقريزي، البيان والإعراب=

وجذام^(١)، منذ مطلع القرن الرابع الميلادي في فلسطين، حيث تواجدت في شمال فلسطين وجنوبها، في مدن الرملة، وطبرية، وبيت لحم، وغزة^(٢)، كما سكنوا بيت لحم والخليل، وبيت المقدس^(٣)، وفي منطقة البحر الميت، ونابلس، والجولان^(٤)، وكان هذا الاستقرار متزامناً مع إعلان الدولة البيزنطية الديانة المسيحية ديانة معترف بها في الإمبراطورية، ومن هنا نلاحظ هذا الاهتمام الذي أولاه الإمبراطور قسطنطين ووالدته هيلانة بالأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين وتحديدًا بيت لحم.^(٥)

ثم ما لبثت أن تعرضت بيت لحم لغزو من قبل الفرس عام (٦١٤م)، وأحدثوا فيها دماراً كبيراً، إلا أن كنيسة المهد سلمت من ذلك؛ بفعل رسم فسيفسائي على واجهة الكنيسة، والذي يمثل سجود المجوس

= عما بأرض مصر من الأعراب، ٦١. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٥٩/٤. السويدي، محمد، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، ٤٠. علي، جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، ٨٣/١.

(١) لحم وجذام: تم الإجماع على أن لحم وجذام في قحطان، وأنهما كانا أخوين فاقتتلا، فجذم أحدهما إصبع صاحبه، ولطمه الآخر، فسمي "جذاماً" لأن إصبعه جذمت، وسمي الآخر لحماً، لأن أخاه لطمه، واللخمة هي اللطمة. ابن عبد البر، الإنباه على قبائل الرواة، ٩٨-٩٩.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٤٠٧/٢. الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٢٤٣-٢٤٥. الحموي، معجم البلدان، ٣٠٢/٢. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٤٠٧/٢. العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ١٠٧.

(٣) البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ٤٢١. الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ٥٤/٧. العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ١٠٧. القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٣٣٥/١. دسوقي، محمد، القبائل العربية في بلاد الشام، ١١٢.

(٤) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٢٤٤-٢٤٥. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ٧/١٨٠. عثمانة، خليل، فلسطين في خمسة قرون من الفتح الإسلامي حتى الغزو الفرنجي، ٤٦٠٤٧.

(٥) البخيت، محمد، بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور النصرى وجوارها، ٢٣١.

للسيد المسيح (عليه السلام)، وكان من بين هؤلاء المجوس رجل يلبس لباس أجداد الفرس؛ فاحتراماً للباس تركوا الكنيسة دون أن يمسوها بأي ضرر. (١)

خضعت بيت لحم للحكم الإسلامي عام (١١٧/هـ/٦٣٧م)، عندما جاء عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) القدس، وأعطى بطريك القدس صفرونيوس (sophronius) ميثاق الأمان، والذي ورد فيه: "وليكن الأمان عليهم، وعلى كنائسهم، وديانتهم، وأديرتهم وهي القمامة (القيامة)، وبيت لحم مولد سيدنا عيسى (عليه السلام) الكنيسة الكبرى" (٢). لكنها ما لبثت أن خضعت للحكم الفرنجي عام (٤٩٢/هـ/١٠٩٩م)، ودام الحكم الأول للفرنجة حتى عام (٥٨٣/هـ/١١٨٧م) عندما انتصر صلاح الدين الأيوبي على الفرنجة، فعادت بيت لحم لأصحابها، ثم عادت مرة أخرى للحكم الفرنجي (الصليبي) عام (٦٢٦/هـ/١٢٢٩م) عند تولي الملك الكامل بن العادل الحكم، وعادت بعدها للحكم الإسلامي عام (٦٤١/هـ/١٢٤٤م) على يد السلطان نجم الدين أيوب، وكانت سيادتها تتأرجح ما بين المسلمين والفرنجة (الصليبيين) حسب الاتفاقيات التي كانت تتم بين الطرفين، ثم انتقلت سيادتها مع اعتلاء المماليك الحكم، وأصبحت تحت السيادة المملوكية عام (٦٦١/هـ/١٢٦٣م). (٣)

(١) حتي، فيليب وآخرون، تاريخ العرب المطول، ٩٤؛ الخوند، مسعود، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ١٩٩.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ٤٦/٢؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٦٠٩/٣؛ ابن بطريق، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ١٤٧/٢؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ١٧٩/١؛ ابن الجوزي، فضائل القدس، ١٢٣-١٢٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٥٦/٧؛ العلمي، مجير الدين، الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ١/ ٢٥٣؛ الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٢٨/١؛ نصار، فتحي، وثائق فلسطين من العهدة العمرية إلى وعد بلفور، ٥-٦.

(٣) مصطفى، وليد، قصة مدينة بيت لحم، ١٧-١٨.

أهم المظاهر الجغرافية:

تقع بيت لحم في وسط فلسطين، في الجزء الجنوبي من سلسلة جبال القدس^(١)، وترتفع عن سطح البحر حوالي (٧٨٠ م)^(٢)، أما موقعها بالنسبة لدوائر العرض وخطوط الطول، فتقع عند التقاء دائرة عرض (٣١.٤٢) شمالاً، وخط طول (٣٥.١٢) شرقاً^(٣)، أما حدود بيت لحم فمن الشرق تحدها مدينة بيت ساحور^(٤)، ومن الغرب مدينة بيت جالا^(٥)، ومن الشمال أراضي قرية صور باهر^(٦)، ومن الجنوب قرية

(١) أبو الفداء، تقويم البلدان، ٢٦٣؛ ابن السباهي، أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، ٢٣٣؛ ابن الوردي، خريدة

العجائب وفريدة الغرائب، ٤٠-٤١؛ الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، شراب، مجد، معجم بلدان فلسطين، ٢٠٠.

(٢) الخوند، مسعود، الموسوعة التاريخية الجغرافية، ١٩٨؛ عراف، شكري، المواقع الجغرافية في فلسطين، ٤١٧.

(٣) مصطفى، وليد، قصة مدينة بيت لحم، ٢٠.

(٤) بيت ساحور: أصل تسميتها كنعاني، ومعناها المكان الحارس، مما يعكس أهمية المنطقة للزراعة، وهي من قرى ناحية القدس، ومن المرجح أنها تقع إلى جنوبها بالقرب من بيت ساحور النصارى وتتبعها مزرعة دير يزيد، أما حالياً فهي من ضواحي بيت لحم وتقع إلى الشرق منها. ينظر: العليمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٣١٤/٢؛ الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٨/٤٧٠؛ معهد الأبحاث التطبيقية- القدس، دليل مدينة بيت ساحور، ٥؛ السعد، جودت، مختصر بلدان أرض كنعان، ٣٥.

(٥) بيت جالا: مدينة عربية ترجع تسميتها إلى جبل جيلوه (وجيلوه معناها الفرح)، ويقال -أيضاً- إن تسميتها ترجع إلى جالا وهي كلمة سريانية تعني كومة الحجارة، تقع إلى الشمال الغربي من مدينة بيت لحم وتبعد عنها حوالي ٢ كم، وتحيط بهذه المدينة غابة من أشجار الزيتون، وأغلب سكانها من المسيحيين. ينظر: الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٨/٤٥٨؛ أبو حجر، آمنة، موسوعة المدن والقرى الفلسطينية، ١٥٤/١؛ السعد، جودت، مختصر بلدان أرض كنعان، ٢٩.

(٦) صور باهر: قرية فلسطينية عربية جنوب شرق القدس. ينظر: الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٨/١٦٩؛ السعد، جودت، مختصر البلدان في أرض كنعان، ١٥٠.

إرطاس^(١)، وهي محافظة تضم مدينتي بيت جالا وبيت ساحور، وعدة قرى تابعة لها.^(٢)

تعد بيت لحم وهضابها جزءاً من سلسلة الجبال الفلسطينية الجنوبية، التي تنتشر موازية لغور الأردن والبحر الميت، أما البنية التضاريسية لجبال جنوب فلسطين والتي تقع بيت لحم جزءاً منها، فهي ذات التواءات خفيفة، تشكل تحدياً بسيطاً يمتد من الشمال إلى الجنوب، ويكون انحدار هذا التحدي إلى الغرب خفيفاً، بحيث يتصل بالهضاب والساحل بلطف^(٣)، أما من الشرق وعلى جهة الأغوار، فالانحدار يكون شديداً، ومتدرجاً بفعل صدوع متتالية، مقطعة بواديان وخنادق عميقة جداً.^(٤)

وتضاريس بيت لحم هي تضاريس بلغت مرحلة النضج، وتخطتها أحياناً إلى الهرم، أخذت فيها الوديان شكل حرف (U) بالإنجليزية، وتلالها مدورة.^(٥)

وتبعاً للتضاريس والتي تؤثر بطبيعة الحال على المناخ، فإن بيت لحم تتبع للمنطقة المناخية الجبلية والتي يسود فيها مناخ البحر الأبيض المتوسط^(٦)، الجاف والحار صيفاً، بحيث تصل الحرارة إلى ما فوق

(١) إرطاس: هي كلمة لاتينية بمعنى البستان، وهي قرية صغيرة تبعد ميلين جنوب بيت لحم، تكثر فيها الينابيع التي تلتقي بمياه برك سليمان وتسيل معها في قناة واحدة إلى أن تصل بيت لحم فالقدس، وهذه الينابيع جعلت منها جنة خضراء تكثر فيها البساتين والأشجار المثمرة، كما تعد إرطاس موقع أثري. ينظر: الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٨/٤٨٠-٤٨١؛ السعد، جودت، مختصر بلدان أرض كنعان، ٢٢.

(٢) الموسوعة الفلسطينية، ٨٥/١.

(٣) الحروب، صقر، جغرافية فلسطين، ٦٣-٦٤.

(٤) مصطفى، وليد، قصة مدينة بيت لحم، ٢٠.

(٥) نفسه، ٢٠.

(٦) بحيري، صلاح الدين، جغرافية الأردن، ٣١.

(٣٠) مئوية في النهار، وفي الليل يكون الجو معتدلاً^(١)، أما في الشتاء فيكون الجو بارداً ورطباً، وينخفض معدل الحرارة إلى (٧) مئوية، وتقل الحرارة الدنيا عن الصفر، مما يساعد أحياناً في تساقط الثلوج على قمم الجبال العالية والمرتفعة^(٢)، وهذا المناخ جعل منها مركزاً للتجمعات السكانية؛ وبالتالي قامت المدن الكبرى على سلاسل جبال فلسطين الوسطى والجنوبية من مثل: نابلس، ورام الله، والقدس، وبيت لحم، والخليل وغيرها.^(٣)

أما بالنسبة لمعدلات سقوط الأمطار في منطقة بيت لحم فإنها متذبذبة، مثلها مثل باقي فلسطين فإذا أخذنا مقياس أقل من (٤٠٠ ملم) في السنة كمؤشر على ضعف موسم سقوط الأمطار، ومقياس ما بين (٤٥٠-٥٥٠ ملم) كموسم متوسط، وما فوق (٥٥٠ملم) كموسم أمطار جيد، بذلك تتساوى منطقة بيت لحم بمعدل أمطارها العام مع مناطق الساحل الفلسطيني، والسهول الداخلية، وجبال القدس، ونابلس.^(٤)

(١) الشامي، كامل، جغرافية فلسطين، ٣٦.

(٢) الموسوعة الفلسطينية، ٣٥٢/٢.

(٣) الحروب، صقر، جغرافية فلسطين، ٩٣.

(٤) الموسوعة الفلسطينية، ٩٣/٢-٩٤.

المياه:

تعتمد بيت لحم على مصدرين أساسيين للمياه، الأول: مياه الأمطار، وهي المصدر الرئيس للسكان في بيت لحم بخاصة، وفي فلسطين بعامة، كما أشارت لذلك عدة مصادر، حيث ذكرت أن: " فلسطين مأوها من الأمطار والسيول" (١)

أما المصدر الثاني: المياه الجوفية، حيث يقسم خط تقسيم المياه الوهمي ، الذي يمتد من جنين شمالاً إلى السموع (٢) جنوباً، إلى حوضين رئيسيين: غربي يغذي مياهه الجزء الفلسطيني الغربي باتجاه البحر المتوسط ، وشرقي باتجاه نهر الأردن والبحر الميت، أما منطقة بيت لحم فتخضع للتقسيم نفسه لأنها تقع ضمن المنطقة المذكورة. (٣)

ففي الحوض الغربي لدينا نبع بتير (٤)، الذي يقدر معدل تصريفه إلى (١,٩ لتر/ ثانية مما يعادل ٦٠ ألف م^٣ في السنة)، وفي الحوض الشرقي ينابيع إرطاس، التي يصل معدل تصريفها إلى (٧لتر/ ثانية أي ما

(١) خسرو، ناصر، سفر نامة، ٧٤.؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٢٠٦/٢.

(٢) السموع: قرية عربية كبيرة تبعد (٢٢ كم) جنوب الخليل. السعد، جودت، مختصر البلدان في أرض كنعان، ١٣٨.

(٣) عودة، أيمن، المقومات السياحية في محافظة بيت لحم، ٦-٨.

(٤) بتير: قرية تقع إلى الشمال الغربي من بيت لحم، ويعود أصل تسميتها إلى الفينيقية من بتر بمعنى قطع وفصل، أما تاريخها فيعود إلى العهدين الكنعاني والروماني، وأصل سكان القرية يعود إلى العراق واليمن. ينظر: السعد، جودت، مختصر البلدان في أرض كنعان، ٣٦؛ معهد الأبحاث التطبيقية - القدس، دليل قرية بتير، ٥.

يعادل ٢٢١م^٢ في السنة)، وقد ساعد تركيب الصخور الكلسية التي تعود إلى السينومانيان^(١) الأعلى؛ على تخزين المياه فيها. (٢)

أما الينابيع في إرطاس، فهي أربع عيون: عين عطاف، وعين الفروجة، وعين صالح، وعين البرك وهذه العيون تلتقي بمياه برك سليمان، وتسيل معها في قناة واحدة إلى أن تصل بيت لحم فالقدس. (٣) أما قرية بتير ففيها -أيضاً- أربعة ينابيع، وهي: عين البلد، عين جامع، عين البسين، عين عمدان. (٤) ويوجد بقرية الخضر^(٥) وادي البيار، وينابيع هذا الوادي خمسة، هي: رجم السبيط، ورأس العد، وعين فاغور، وخربة القط، وعين العصافير، وكذلك يوجد عين الخضر إلى الشرق من القرية، وتجدر الإشارة إلى أن ينابيع وادي البيار الخمسة، ومياه عين الخضر تنتهي كلها في برك سليمان. (٦)

(١) السينومانيان: وهي الطبقات الحاملة للمياه، وإذا حصلت على تغذية كافية بمقدور هذه الصخور أن تكون طبقات منتجة، وتتميز هذه الصخور بنفاذيتها الجيدة والمؤهلة لتشكيل قنوات جوفية ومسامات كثيفة، حيث تستطيع وبكل سهولة أن تلتف المياه الجوفية وتخزنها. ينظر: قزما، ماريو، دراسة جيولوجية وهيدروجيولوجية، ١١.

(٢) عودة، أيمن، المقومات السياحية في محافظة بيت لحم، ٦-٨؛ الحروب، صقر، جغرافية فلسطين، ١٣٢-١٣٣.

(٣) الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٨ / ٤٨٠.

(٤) مؤسسة أريج، دليل مدينة بيت لحم، ١٢.

(٥) قرية الخضر: قرية صغيرة تقع في بيت لحم على طريق القدس - الخليل، وسميت بذلك نسبة إلى دير أقيم فيها تخليداً للقديس (مار جرجس "الخضر")، أراضيها خصبة وتكثر فيها كروم العنب وأشجار الزيتون. ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٢/٣٧٧؛ الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٨/٤٨٢-٤٨٣؛ أبو حجر، آمنة، موسوعة المدن والقرى الفلسطينية، ١٨٥.

(٦) الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٨ / ٤٨٣.

مدينة بيت لحم في كتب الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين والأجانب:

حظيت فلسطين بأهمية كبيرة من قبل الرحالة، والجغرافيين المسلمين، والمسيحيين؛ لما فيها من أماكن مقدسة تخص الديانات السماوية الثلاث، فرفع ذلك من مكانتها الدينية؛ لوجود المنشآت العمرانية التي تجذب الأنظار، بالإضافة إلى الموقع الجغرافي المميز الذي جعلها محط أنظار هؤلاء الرحالة والجغرافيين، فقدموا شهادات حية من خلال رؤيتهم المباشرة. (١)

وشملت هذه الشهادات التي رواها الرحالة معظم المدن الفلسطينية بما فيها بيت لحم، حيث زاروها ووصفوها، وأغلبهم عددا قرية، وقليل منهم من عددا مدينة صغيرة تشبه القرية، ولعل ما جعل الرحالة يهتمون ببيت لحم هو مكانتها الدينية.

فقد ذكر الرحالة الهروي (ت ٦١١هـ/١٢١٤م) بيت لحم وقال: "إنها بلدة بها مولد عيسى (عليه السلام) ويقال: إن فيها قبوري داود وسليمان (عليهما السلام) (٢)، وبهذه الكنيسة (كنيسة المهد) آثار وعمارة عجيبة من الرخام والفص المذهب والعمد، وتاريخ عمارتها يزيد على ألف ومائتي سنة،، وبه موضع النخلة (٣) المذكورة في القرآن العزيز في قوله تعالى: "وَهَزِي إِلَيْكَ بِجُذُعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا" (١)، وبه محراب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لم تغيروا الفرنج إلى الآن". (٢)

(١) عبد الفتاح، كمال، السمات العربية للمواقع الفلسطينية اليهودية، ٢/ ٢٨٠.

(٢) وذكر في موضع آخر أن قبر سليمان وداود (عليهما السلام) شرقي بحيرة طبرية، والصحيح حسب قوله إن سليمان (عليه السلام) دفن إلى جانب أبيه داود (عليه السلام) في بيت لحم، وهما في المغارة التي بها مولد عيسى (عليه السلام). الإشارات إلى معرفة الزيارات، ٢٦.

(٣) ويقول ابن العربي إنه عندما دخل بيت لحم سنة (٤٨٥هـ/١٠٩٢م) رأيت في متعبد الرهبان غاراً عليه جذع يابس، ويذكر هؤلاء الرهبان أنه جذع مريم (عليها السلام)، فلما كانت سنة (٤٩٢هـ/١٠٩٨م) دخلت بيت لحم قبل استيلاء الروم عليه لسنة

وقال ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) أن بيت لحم: "بليد قرب البيت المقدس عامر حافل، فيه سوق وبازارات"^(٣)، ومكان مهد عيسى بن مريم (عليه السلام)^(٤).

أما المقدسي (ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م) فيبدو أنه قد اهتم بوصف كنيسة المهد أكثر من ذكر المدينة وأحيائها، حيث قال: "إنها قرية على نحو فرسخ"^(٥) من جهة بيت جبرين^(٦) بها ولد عيسى بن مريم (عليه السلام)، وثم كانت النخلة وبها كنيسة ليس في الكورة مثلها، ولما ورد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إلى بيت المقدس أتاه راهب من بيت لحم فقال له: معي منك أمان على بيت لحم، فقال له عمر: ما أعلم ذلك، فأظهره وعرفه عمر (رضي الله عنه)، فقال له: الأمان صحيح ولكن لا بد في كل موضع

أشهر فرأيت الغار في المتعبد خالياً من الجذع فسألت الرهبان عنه، فقالوا إنه نخر وسقط. للمزيد ينظر: الماوردي، الأحكام السلطانية، ٢٥٢-٢٥٣؛ المعافري، القبس في شرح موطأ مالك بن أنس، ٤٠/١.

(١) مريم، (٢٥).

(٢) الهروي، الإشارات إلى معرفة الزيارات، ٣٤.

(٣) البازار: كلمة فارسية بمعنى السوق. ينظر: زناتي، أنور، معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، ٥٣.

(٤) معجم البلدان، ٥٢١/١.

(٥) الفرسخ: وهو مقياس قديم من مقياس الطول يقدر بثلاثة أميال هاشمية، أو اثني عشر ألف ذراع، والفرسخ كلمة فارسية معربة. ينظر: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، ٢/٢١٦؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ١/٣٦؛ ابن منظور، لسان العرب، مادة (فرسخ).

(٦) بيت جبرين: تقع في شمال غرب الخليل، على بعد (٢٦ كم) بين غزة والخليل، ولها أهمية كبيرة منذ القدم، حيث بنى فيها الكنعانيون مدينة من أقدم مدن فلسطين، وصارت في العهد الروماني قاعدة أكبر مقاطعة في فلسطين، وقد هدمت وأعيد بناؤها أكثر من مرة، وحصنها المسلمون بعد فتحها، وظلت قاعدة في جنوب فلسطين. ينظر: المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ١٧٤؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٢/٥١٩؛ ابن عبد الظاهر، محيي الدين، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ٣٠٦؛ العياشي، الرحلة العياشية، ٢/٣٤٩؛ العابدي، محمود، الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن، ١٣٧؛ البهنسي، عفيف، العمارة والزخرفة في فلسطين منذ الفتح العربي الإسلامي، مج ٤/٤ ق ٢/٨٢٨-٨٢٩؛ رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ٢/٣٦٩.

للنصارى أن نجعل فيه مسجداً، فقال الراهب: إن بيت لحم حنية^(١) مبنية على قبلكم فاجعلها مسجداً للمسلمين ولا تهدم الكنيسة؛ فعفا له عن الكنيسة، وصى إلى تلك الحنية، واتخذها مسجداً، وجعل على النصارى إسراجها، وعمارتها، وتنظيفها..... ويقال إن فيها قبر داود وسليمان (عليهما السلام)"^(٢).

أما بالنسبة للإدريسي (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٥م) فقد ذكر بيت لحم قائلاً: "أما بيت لحم، هو الموضع الذي ولد فيه السيد المسيح، بينه وبين بيت المقدس ستة أميال. وبيت لحم هناك كنيسة حسنة البناء، متقنة الوضع، فسيحة، مزينة إلى أبعد غاية، حتى أنه ما أبصر في جميع الكنائس مثلها بناء..... وإذا خرجت من بيت لحم نظرت في المشرق منه كنيسة الملائكة الذي بشروا الرعاة بمولد السيد المسيح"^(٣).

وذكرها القزويني (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) بقوله: "هي قرية على فرسخين من بيت المقدس، كان بها مولد عيسى (عليه السلام)، وبها كنيسة فيها قطعة من النخل، زعموا أنها النخلة التي أكلت منها مريم (عليها السلام). وبها الماء الذي يقال له المعبودية، وهو ماء ينبدي من حجر، وإنه عظيم القدر عند النصارى."^(٤)

أما ابن شداد الحلبي (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) فقد أورد الحديث المروي عن أبي هريرة في مرور النبي محمد (ﷺ) ببيت لحم ونصه: "عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله (ﷺ)، لما أسري بي إلى بيت المقدس مر بي جبريل (عليه السلام) إلى قبر أبيك إبراهيم (عليه السلام)، وقال: انزل فصل هاهنا قبر أبيك

(١) حنية: من حنايا وحني جمع حنية، والحنية هي القوس أو ما كان منحنيًا كالقوس، والحنية تعني -أيضاً- البناء. ينظر: مصطفى، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، مادة (حنا).

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ٤٧.

(٣) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٣٦٢؛ الدومينيكي، جورجي، بلدانية فلسطين العربية، ٢٨-٢٩، الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٢ / ٤١٠.

(٤) آثار البلاد وأخبار العباد، ١٥٩.

إبراهيم. ثم مر بي ببيت لحم، فقال: انزل فصل هاهنا ولد أخوك عيسى (عليه السلام). ثم أتى بي إلى الصخرة فقال: من هاهنا عرج أمر ربك إلى السماء، فألهمني الله عز وجل أن قلت: نحن بموضع عرج منه أمر ربي فصليت بالنبيين، ثم عرج بي إلى السماء".^(١)

وفي موضع آخر قال ابن شداد: "بيت لحم بلدة بها مولد عيسى (عليه السلام)، ويقال إن قبوري داود وسليمان (عليهما السلام) بها".^(٢)

وذكر أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) بيت لحم قائلاً: "إنها قرية تبعد ستة أميال عن القدس وبها مولد عيسى (صلوات الله عليه) ، والنصارى يعظمون كنيسة بيت لحم المذكورة".^(٣)

ومر الرحالة العبدري (ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م) بالقرب من بيت لحم في طريقه إلى القدس، ولم يتسنَّ له زيارتها.^(٤)

وذكرها ابن الوردي (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) فقال: "وأما بيت لحم فهي كنيسة حسنة البناء متقنة الصنعة وهو الموضع الذي ولد فيه عيسى (عليه السلام) وبينه وبين بيت المقدس ستة أميال، وفي وسط الطريق قبر راحيل أم يوسف (عليه السلام)".^(٥)

(١) الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ١٩٠.

(٢) نفسه ، ٢٨٨.

(٣) تقويم البلدان، ٢٦٣.

(٤) الرحلة العبدرية، ٢٢٨.

(٥) خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ٤٠-٤١.

وذكرها شهاب الدين ابن تميم المقدسي (ت ٧٦٥هـ / ١٣٦٣م) في باب فضل مواضع من الشام وذلك ضمن حديث عن رسول الله (ﷺ)، فقال: "عن يزيد بن أبي مالك عن أنس، قال: قال رسول الله (ﷺ): "أتيت ليلة أسري بي بدابة إلى أن قال: انزل، فصل، يعني جبريل، فنزلت فصليت، فقال: أتدري أين صليت؟ ببيت لحم، حيث ولد عيسى (عليه السلام)".^(١)

أما الرحالة الشهير ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) فقال فيها: "بيت لحم موضع ميلاد عيسى (عليه السلام)، وبه أثر جذع النخلة، وعليه عمارة كثيرة، والنصارى يعظمونه أشد التعظيم، ويضيفون من نزل به".^(٢)

وقيل: "إن الأمير (شيخ)^(٣) بعد أن استعفى من نيابة غزة وسأل الإقامة بالقدس رتب له النصف من قريتي بيت لحم وبيت جالا يرتفق بهما".^(٤)

(١) مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، ١١٨.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ٥٥.

(٣) الأمير شيخ: هو شيخ بن عبد الله، الصفوي الخاصكي، أمير مجلس الظاهر برقوق، ومن أعيان أمرائه، ثم تغير عليه برقوق فرسم له بنيابة غزة فاستعفى وتوجه إلى القدس بطالاً، ثم قبض عليه وحبس بالمرقب حتى مات سنة (٨٠١هـ / ١٣٩٨م). ينظر: المقرئ، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، ١/٣٤٣؛ ابن حجر العسقلاني، ذيل الدرر الكامنة، ٢٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٤ / ٣١؛ الدليل الشافي على المنهل الصافي، ١/٣٤٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ١ / ٤٩٣.

(٤) المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٣/٨٨٩.

وذكرها غرس الدين ابن شاهين الظاهري (ت ٨٧٢هـ / ٤٦٧م) بقوله: "بيت لحم بلدة بها كنيسة كبيرة جداً، بها مولد عيسى (عليه السلام)، وبها أشياء عجيبة يطول شرحها، وبها جذع النخلة المذكورة في القرآن عظيم....."^(١)

وقال الحميري (ت ٩٠٠هـ / ٤٩٤م) فيها: "وعلى بعد فرسخ من كنيسة يقال لها الجسمانية^(٢) مما يلي قبلتها في مستوٍ من الأرض، وبها ولد المسيح (عليه السلام)، وبه النخلة التي تساقطت على مريم رطباً جنياً، والسري الذي جعل الله تحتها فشربت منه وتطهرت، والمهد الذي جعلت فيه المسيح (عليه السلام) حين ولدته، وهو حوض أبيض غسلته فيه، وهو قريب من العين".^(٣)

وتعرض الرحالة ابن السباهي (ت ٩٩٧هـ / ١٥٨٩م) في حديثه عن بيت لحم قائلاً: "إنها قرية على فرسخين من بيت المقدس كان بها مولد عيسى (عليه السلام)، وبها كنيسة فيها قطعة من النخل زعموا أنها النخلة التي أكلت منها مريم (عليها السلام)".^(٤)

(١) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ٢٤.

(٢) كنيسة الجسمانية: وهي كنيسة في جبل طور زيتا بخارج باب الأسباط، وهي من بناء هيلانة والدة قسطنطين، وهي مكان مشهور يزوره المسلمون والمسيحيون على حد سواء، ويقال إن قبر مريم (عليها السلام) بها، وبالقرب من قبر مريم (عليها السلام) قبة من بناء الروم يسميها الناس طرطور فرعون ويرجمونها بالحجارة، وهناك -أيضاً- قبة أخرى يقال لها كوفية زوجة فرعون، ويقال إن القبة الأولى هي قبر زكريا والثانية قبر يحيى (عليهما السلام)، على الرغم من اختلاف الرأي في موضع قبور كل من يحيى وزكريا (عليهما السلام) فالبعض يقول في سبسطية بنابلس، والبعض بجامع دمشق والله أعلم. ينظر: العلمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٦١/٢؛ مرمجي، الدومينيكي، بلدانية فلسطين العربية، ٨٤.

(٣) الروض المعطار في خبر الأقطار، ٥٥٧.

(٤) أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، ٢٣٣.

وقد ذكرها مجير الدين العليمي (ت ٩٢٧هـ / ١٥٢١م)، فوصفها قائلاً: "هي قرية قريبة من القدس
.....، وبها ولد سيدنا عيسى (عليه السلام)، وقد ورد في حديث المعراج الشريف أن جبريل (عليه السلام)
قال للنبي (ﷺ) حين أسري به: انزل فصلَ فنزل فصلَى، قال: أتدري أين صليت؟ صليت ببيت لحم، حيث
ولد عيسى (عليه السلام)". وفي موضع آخر من الكتاب ورد التالي: "وكان عبد الله بن عمرو بن العاص
يبيع بزيت يسرج في بيت لحم..... وهذه القرية في عصرنا غالب سكانها نصارى، وبها كنيسة محكمة
البناء..... وأرضها مفروشة بالرخام..... وهذه الكنيسة من بناء الملكة هيلانة والدة قسطنطين.....
وللنصارى بها اعتقاد، ويرد إليها من بلاد الإفرنج وغيرها، الأموال للرهبان المقيمين بالدير المجاور
للكنيسة".^(١)

وذكر العليمي -أيضاً- قبر راحيل^(٢) قائلاً: "وبين بيت المقدس وبيت لحم قبر راحيل والدة سيدنا
يوسف الصديق (عليه السلام)، وهو إلى جانب الطريق بين بيت لحم وبيت جالا في قبة موجهة لجهة
الصخرة، وهو مشهور بزار، وقد قيل: إن تسمية بيت لحم وكذلك بقية القرى مما حول بيت المقدس كبيت
جالا، وكل مكان أوله بيت، إنما سمي بذلك نسبة لنبي من أنبياء بني إسرائيل، فيقال بيت فلان نسبة لسكانه
والله أعلم".^(٣)

(١) العليمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ١٢٢-١٢٣.

(٢) قبر راحيل: وهو مقام إسلامي على الطريق إلى بيت لحم، ويعود البناء الحالي إلى القرن الثامن عشر، وينسب إلى راحيل والدة سيدنا يوسف (عليه السلام). ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٣٦٢. ؛ الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٤٤٦/٢.

(٣) الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ١٢٤/٢.

أما بالنسبة للرحالة الأجانب فقد زاروا بيت لحم لقدسيته وأهميتها الدينية، وقد أوردوا مشاهداتهم وجاءت كما يلي:

فأورد الأسقف الألماني أركلفوس (Arculfus) عام (٦١٤هـ/٢١٧م) حديثه عن بيت لحم قائلاً: " إن سكان بيت لحم كلهم مسيحيون ومحذور على المسلمين سكانها، إلا أن جباة الضرائب على باب الكنيسة كانوا عرباً مسلمين، وكانت الكنيسة بجمالها وعظمتها والقرية سالمة غير مأذية".^(١)

وقدم الكاهن جياكومو الفيروني (Giacomo Vernese) عام (٧٣٦هـ/١٣٣٥م) وصفاً لبيت لحم قائلاً: " بجانب كنيسة بيت لحم التي فوق جبل جميل تحيطه أشجار الزيتون والتين والكرمة، هناك قرية بيت لحم الكبيرة التي تبعد ستة أميال عن أورشليم وفيها الكثير من المسيحيين، مكان جميل انتقاه المسيح (عليه السلام) ليولد فيه".

وبعد عام زارها جوجليو (Guglielo) ليعطي وصفاً مشابها لما ذكره الفيروني حيث قال: " إن بيت لحم بلدة صغيرة الحجم لا يتناسب والسر العظيم الذي حدث فيها، وهي مستطيلة ضيقة العرض، لها حماية طبيعية من الوديان العميقة المحيطة بها، معظم سكانها مسيحيون أرثوذكس، ويعملهم للأرض التلحمية المحيطة بها تعطي الوافر من النبيذ الجيد".^(٢)

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، ٥٠٠١/٨ .

(٢) بنورة، توما، تاريخ بيت لحم بيت جالا بيت ساحور، ٤٩ .

وذكرها -أيضاً- الرحالة اليهودي اسحق بن تشيلو (Isaac Ben Joseph Ben Chelo) عام (٧٣٣-٧٣٤هـ / ١٣٣٣-١٣٣٤م) وصف فيها قرى تابعة لبيت لحم وهي عيطن^(١)، وتقوع فقال فيهما: "وهي بلدة أمر الملك رجعام^(٢) بتحسينها للوقوف في وجه الملك يربعام^(٣)، وسميت لاحقاً عين أتام (نبع أتام) والتي يتم تجميع مياهها، وتسحب إلى مدينة القدس عبر قنوات صلبة، وهي اليوم أطلال، سكانها من اليهود الفقراء يحرسون كنيساً قديماً، وهو كنس قديمة ما تزال قائمة وتنسب إلى شمعون بن يوشع^(٤)".^(٥)

أما تقوع -الواقعة ضمن بيت لحم- فقال عنها: "هي مدينة قديمة وقد تم تحصينها كعيطن، وفي هذه المدينة يوجد كهف قيل إنه ضريح أحد الأنبياء السبعة المدفونة رفاتهم الطاهرة في هذه الأرض المقدسة، وبناء على رواية البعض يوجد فيها ضريح النبي عاموس^(٦)، وذكر آخرون أن فيها قبر عزيا^(٧)".

(١) عيطن: ويطلق عليها اليوم خربة الخوخ، وتقع شرقي برك سليمان في بيت لحم، وهي موقع أثري وفيها عين عطن (عيطام) أو عين أيوب. ينظر: صايغ، عيطم، قاموس الكتاب المقدس، ٦٥٠.

(٢) رجعام: هو رجعام بن سليمان، بن داود، وفي عهده انقسمت دولة بني إسرائيل إلى دولتين هما يهودا وعاصمتها القدس ودولة إسرائيل وعاصمتها (السامرة) سبسطية. ينظر: سفر الملوك الأول ١٢:١-٣٢.

(٣) يربعام: أول ملك لمملكة السامرة التي انشقت عن يهودا بعد وفاة سيدنا سليمان (عليه السلام)، وقد استعان بالفرعون المصري ششلق في حربه ضد رجعام، حيث قدم الفرعون المصري وحاصر القدس واستولى على كثير من كنوزها. ينظر: سفر الملوك الأول، ١٢:١-٣٢.

(٤) شمعون بن يوشع: عالم توراتي عاش في القرن الثاني الميلادي، مؤلف كتاب الحكمة.

(٥) ابن تشيلو، إسحاق، رحلة ابن تشيلو إلى فلسطين (الطرق من القدس)، ١٥٤.

(٦) عاموس: هو نبي من بني إسرائيل وقد عاش في تقوع، وله سفر في العهد القديم عرف باسم نبوءة عاموس. سفر نبوءة عاموس ١:٩-١٠.

(٧) عزيا: عزيا بن أمصيا أحد ملوك دولة يهودا، عاصر النبي عاموس، وتوفي حوالي ٧٣٤ ق.م. صايغ، عيطم، قاموس الكتاب المقدس، ٦٢٥-٦٢٦.

كما تعرض للمزارات الدينية في بيت لحم، وأشار إلى أنه يوجد في الطريق الواقع بين بيت لحم والقدس قبر راحيل، وهي أم يوسف وبنيامين ولدي يعقوب (عليه السلام)، ووصف القبر بأن عليه قبة معقودة بالصخر^(١).

وأورد أحد الرحالة الأجانب وهو مجهول^(*) الاسم، روايته عن الأرض المقدسة عام (١٣٥٠هـ/١٣٥٠م)، وقد ذكر المناطق المقدسة في فلسطين كالقدس، والخليل، وطبرية، وأريحا، وبيت لحم، وذكرها بقوله: "ثم إنك تأتي إلى مدينة بيت لحم، التي معنى اسمها (بيت الخبز) ، التي ولد فيها الخبز الحقيقي الذي نزل من السماء، ويوجد في هذه المدينة المقدسة والمبجلة، كنيسة فائقة الجمال، بنيت على شرف مريم العذراء المباركة، وفيها بيعة، ولد فيها يسوع المسيح.....".^(٢)

وذكر -أيضاً- قبر راحيل: "ثم إنك تأتي إلى قبر راحيل، زوجة يعقوب، التي ماتت بعد ولادتها لبنيامين، وهو يبعد حوالي ثمانية أميال عن بيت لحم"، إضافة إلى ذكره البئر الذي وضع إخوان يوسف أخاهم يوسف فيه وأنه في الطريق إلى بيت لحم".^(٣)

وقام لودولف السوخومي (Woodolf Sukhumi) برحلة -أيضاً- في عام (١٣٥٠هـ/١٣٥٠م)، وقدم من خلالها وصفاً عاماً للأرض المقدسة، وكانت بيت لحم ضمن هذا الوصف ، وقال فيها: "وبيت لحم جميلة جداً، وهي قرية ممتعة، وهي ليست طويلة، قائمة فوق شعب جبلي، ومسكونة من قبل المسيحيين فقط

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ١٠

(*) سأطرق لاحقاً لعدد من الرحالة الأجانب المجهولين لكن في فترة زمنية لاحقة.

(٢) زكار، سهيل، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ٣٧ / ٣٢-٣٣.

(٣) نفسه، ٣٧ / ٣٢-٣٣.

تقريباً، وهي مسيجة: بمراعٍ، ومزروعات وأعشاب..... وهناك اعتاد ملوك القدس والصليبيون على حشد جيوشهم مع بعضها، ولدى سكانها كميات وافرة من الخمرة والأشياء الأخرى الجيدة، ويقوم في بيت لحم كنيسة عظيمة وجميلة جداً..... ومزينة بأعمال الفسيفساء، وأحجار، والرخام، والذهب، وكما أعتقد هي متفوقة بزینتها على كل كنيسة موجودة تحت الشمس....." (١).

وذكرت بيت لحم على لسان جون بولونير (John Poloner)، في وصفه للأرض المقدسة عام (١٨٢٤/٤٢١م)، وجاء وصفه كما يأتي: "وطول الطريق من القدس إلى بيت لحم هو فرسخان..... وعلى طول هذا الطريق حدثت أحداث إعجازية كثيرة من ذلك: أن إبراهيم وزوجته عبرا معا هذا الطريق عندما قدما من بلدان الكلدان^(٢)، ومشى لوط وزوجته على هذا الطريق عندما قدما من بلدان ما وراء الجبال وغالباً ما عبر عليه البطريرك يعقوب وزوجته راحيل، وذهبت مريم العذراء المباركة عندما كانت حاملاً، إلى هناك، وعادت عبر هذا الطريق، وعليه استراحت عندما كانت متعبة..... وفي رحلة مريم المباركة إلى مصر وعودتها منها سارت هذا الطريق مع يوسف". (٣)

(١) لودولف، وصف الأرض المقدسة للرحالة وودولف السوخومي، ٣٤٧؛ زكار، سهيل، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ٣٧/٣٤٧.

(٢) بلاد الكلدان: هي البلاد التي يجتازها نهر دجلة والفرات في العراق، وهي من أخصب بقاع الأرض، هاجرت لها شعوب من مختلف الأجناس، كالنورانيين، والكوشيين، والساميين، فتألف الشعب الكلداني من هذا المزيج. ينظر: سنيوبوس، شارل، تاريخ حضارات العالم، ٢١-٢٢.

(٣) The library of the Palestine Pilgrims' Text Society, 6/61-62. AMS press 1971 .

وذكر الراهب فيلكس فابري (Félix Fabri) في رحلاته إلى الأرض المقدسة، والتي تمت بين (٨٨٤-٨٨٧هـ / ١٤٨٠-١٤٨٣م)، وصفاً عاماً لمدينة بيت لحم قال فيها: " هي مدينة قديمة، كان لها في العصور الخالية اسم ما..... قبل أن تعرف باسم إفراتا..... لكن وقعت مجاعة وتلت تلك المجاعة مواسم خير وخصب لذلك أطلق عليها اسم بيت لحم، ومعنى هذا الاسم (بيت الخبز)، ويقال إن الاسم الذي سبق هذين الاسمين هو (Beththonforon) أي (بيت النبلاء) لذلك فهي مدينة جبلية، ولم تكن قط مدينة كبيرة..... وكان هنا فيما مضى خنادق، أسوار، أبراج، ذلك أن هذا من الممكن رؤيته بوضوح حتى في هذه الأيام".^(١)

وفي وصفه لحال المدينة من خلال جولاته، يقول: " القرية هذه الأيام مكتظة بالسكان، ولا يهتم سكانها بالأسوار أو بالخنادق، والقسم الأكبر من سكانها من المسيحيين الشرقيين، المتحالفين مع المسلمين لا بل حتى مع البداءة، وهم يعتمدون في معيشتهم على المنطقة من حولهم، لأن التربة من حول بيت لحم خصبة جداً، مليئة بالقمح، والكروم، والزيتون، والمراعي".^(٢)

وقال أيضاً-: " بها ولد المسيح، وبها كنيسة مقدسة، وشعب مؤمن، ومدينة أهلة بالسكان، لكن طموحة... وتوجد بها حياة ريفية مضمونة، وهنا هدوء، إلا غناء المزامير أينما توجهت بوجهك..... بعض أغاني داود، فهذه هي أناشيد هذه المنطقة".^(٣)

(١) زكار، سهيل، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ٣٨/ ٧٠٩-٧١٠.

(٢) نفسه، ٣٧، /٣٢-٣٣، .٧١٣ /٣٨.

(٣) نفسه، ٣٨، /٧١٣.

أما بالنسبة للرحالة المجهولين الذين زاروا الأماكن المقدسة في فلسطين في (القرن الثامن الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، فنذكر ما جاء على ألسنتهم باختصار.

أولاً: رحلة الحاجّين المجهولين في (القرن الثامن الهجري/ القرن الثاني عشر الميلادي)، وذكرنا بيت لحم وقبر راحيل، حيث قالوا: إنه يقع بالطريق المؤدي إلى بيت لحم، وأن بيت لحم ولد فيها السيد المسيح، ودفن القديس جيروم^(١) -أيضاً- فيها، وأن بها مجموعة من آثار الطاهرين المقدسة.^(٢)

ثانياً: رحلة الحاج المجهول الثالث في (القرن الثامن الهجري/ القرن الثاني عشر)، وقال في بيت لحم ما يأتي: "ولد السيد المسيح في ضواحيها، وتبعد عن القدس مسيرة يوم واحد أو أربعة أميال، وشيدت كنيسة في مكان ولادة المسيح خُصت للقديسة العذراء، وقد أصبحت الكنيسة داخل المدينة، وفيها حصل أن شفي كثير من الناس الذين تسيطر عليهم الشياطين، أو يعانون من أمراض الغثيان وغيرها، وتظهر فيها يوماً بعد يوم من المعجزات، وأنه -حسب ما قاله هذا الرحال- في كل عام، وفي منتصف الليل، وفي الساعة التي ولد فيها السيد المسيح، كل الأشجار المغروسة حول مدينة بيت لحم تتحني أغصانها نحو الأرض وتجاه موضع ولادته، وشروق الشمس ترنيمه تعيد الأشجار إلى وضعها".^(٣)

(١) القديس جيروم: ولد سنة (٣٤٠م) من أبوين على المذهب الكاثوليكي، وتلقى تعليمه في روما، درس الآداب اللاتينية واليونانية وتدرّب على شؤون القضاء والفلسفة، اعتنق الديانة المسيحية عندما بلغ العشرين من عمره، تعلم العبرية واليونانية بعد إقامته مع الرهبان والنسك في الشام، قام بترجمة الكتاب المقدس إلى اللاتينية حيث أصبحت النسخة المعتمدة في الكنيسة في فترة العصور الوسطى والعصر الحديث، عاد للشام للمرة الثانية عاد للشام وأقام في بيت لحم من أجل التعبد، وقد تعرض لمرض خطير، وتوفي سنة ٤٢٠م، ويتم الاحتفال بعيد القديس جيروم في الثلاثين من أيلول من كل سنة. ينظر: بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ٢٢؛ حافظ، أحمد، الإمبراطورية الرومانية من النشأة إلى الانهيار، ١٢٧-١٢٨.

(٢) مجموعة من الرحالة المجهولين، وصف الأرض المقدسة، ٣١-٣٢.

(٣) زكار، سهيل، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ٣٧/ ٣٩.

ثالثاً: رحلة الحاج المجهول السادس في (القرن الثامن الهجري/ القرن الثاني عشر الميلادي)، وذكر بيت لحم على أنها تقع جنوب مدينة القدس، على مسافة أربعة أميال، وذكر أنه أطلق عليها اسم أفرات بمعنى (النزاع أو مشاجرة)، وأن بيت لحم تعني (بيت الخبز)، وأن بها مولد السيد المسيح، وأن في بيت لحم وجوارها كان هيرودس (Herod) قد أمر بقتل الأبرياء، الذين دفن الجزء الأعظم منهم جنوبي بيت لحم أي في تقوع.^(١)

(١) مجموعة من الرحالة المجهولين، وصف الأرض المقدسة، ١٠٧-١٠٨.

ومن خلال دراستنا للرحالة نستنتج ما يلي :

- لم يختلف الرحالة المسلمون كثيراً في وصف بيت لحم، فجميعهم دون استثناء ذكر أنها مدينة مقدسة، ففيها مولد سيدنا عيسى (عليه السلام) ، وذلك الذي أكسبها أهمية كبيرة، ورغم أن مولد سيدنا داود (عليه السلام) فيها -أيضاً-، إلا أن من ذكر ذلك لا يتعدّ الهروي، وابن شداد.
- احتلت كنيسة المهد اهتمام الرحالة؛ كونها أهم معلم ديني مسيحي، وبعض الرحالة استطرد في شرح معالم الكنيسة، بل وعدوها أجمل كنيسة على وجه الأرض كالمقدسي، والإدريسي، ومجير الدين العليمي، وبعضهم غفل عن ذكرها كياقوت الحموي الذي ركز على الأسواق والبازارات، وكذلك لم يتطرق كل من ابن شداد، وشهاب الدين ابن تميم المقدسي، وابن الظاهري، والحميري لذكر الكنيسة.
- تم ذكر النخلة التي أكلت منها السيدة مريم (عليها السلام)، عند كل من الهروي، وابن بطوطة، وابن شاهين الظاهري، والحميري، وابن السباهي، وربما ركزوا عليها؛ لورود ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: " وَهَؤُلَاءِ إِلَيْكَ بِجُدُوعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا " (١).
- أما بالنسبة لقبر راحيل فلم يذكر هذا المزار الديني سوا ابن الوردني، ومجير الدين العليمي، أما محراب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فاقصر على ذكره الرحالة الهروي.
- اختلف الرحالة الأجانب بعضهم عن بعض في وصف بيت لحم، على خلاف الرحالة المسلمين الذين أتت مشاهداتهم لبيت لحم ووصفهم لها جاء على نحو متشابهة.

(١) مريم، (٢٥).

- ذكر كل من أركلفوس (Arculfus)، والفيروني (Vernese)، وجوجليلو (Guglielo)، ولودولف السوخومي (Woodolf Sukhumi)، أن بيت لحم سكنها المسيحيون فقط، وهو ما لم يذكر عند الرحالة المسلمين، باستثناء مجير الدين العليمي الذي ذكر أن غالب سكانها نصارى.
- عدّها الرحالة الأجانب قرية؛ ولكنها بالرغم من ذلك مكتظة بالسكان، أما فيليكس فابري (Félix Fabri)، فقد احتار بأمر بيت لحم فتارة يطلق عليها قرية، وتارة أخرى يطلق عليها مدينة، ولم يوضح الأسباب التي اهتدى إليها في اعتبارها قرية أو مدينة.
- تطرق الرحالة لقدسسية المكان، وأهميته الدينية، وتحدثوا كذلك عن المزارات الدينية الموجودة فيها، إلا أن جوجليلو (Guglielo) تحدث عن بيت لحم بأنها لا تتناسب مع أهمية الحدث الذي حصل بها في إشارة إلى مولد النبي عيسى (عليه السلام)، ويبدو أنه أراد انتقاد عدم الاهتمام ببيت لحم كغيرها من المدن التي اكتسبت شهرة دينية كبيت المقدس وغيرها.

الفصل الثاني

بيت لحم في العهد الأيوبي

تمهيد

التبعية السياسية والإدارية لبيت لحم

الحياة الاجتماعية

- السكان

- الزواج

الأحوال الاقتصادية في بيت لحم في العهد الأيوبي

الزراعة والثروة الحيوانية

- الزراعة

- الثروة الحيوانية

الصناعة

التجارة

بيت لحم في فترة حكم السلطان صلاح الدين الأيوبي

- بيت لحم بين الاحتلال الفرنجي (الصليبي) والفتح الأيوبي

- المعاهدات التي تطرقت لبيت لحم في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي

- التسامح الإسلامي الأيوبي مع الفرنجة والمسيحيين

بيت لحم في عهد الملك الكامل الأيوبي

- صلح يافا (٦٢٦هـ/١٢٢٨م)

- نقش الملك الكامل على باب كنيسة المهد

بيت لحم في عهد الصالح نجم الدين أيوب

تمهيد:

امتد تاريخ الدولة الأيوبية في الفترة ما بين (٥٦٧-٦٤٨هـ / ١١٧١-١٢٥٠م)، ويرجع أصل هؤلاء الأيوبيين إلى أيوب بن شادي من بلدة دوين^(١)، من الأكراد، ثم انتقلوا إلى تكريت^(٢) في بداية القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي).^(٣) وقد شكلت دولتهم مرحلة كبيرة، ومهمة في التاريخ الإسلامي؛ حيث لعبت دوراً كبيراً في مواجهة الخطر الفرنجي (الصليبي)، الذي كان يسعى بكل طاقاته للتوسع والسيطرة على المشرق.^(٤)

(١) دوين: بلدة من نواحي أران في آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس في أرمينية، منها ملوك الشام بنو أيوب. ينظر: ابن حوقل، صورة الأرض، ٣٣٧؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٤٩١/٢؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ٣٩٨؛ البغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٥٤٤/٢.

(٢) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل وهي إلى بغداد أقرب، فيها قلعة حصينة. للمزيد ينظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ٩٤؛ البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ٣١٧/١؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٦٥٩/٢؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٣٨/٢؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ٢٨٨؛ البغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٢٦٨/١؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ١٣٣.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ١٣٩/١-١٤٠.

(٤) الصلابي، علي، صلاح الدين الأيوبي، ٢١٨؛ الأنصاري، ناصر، المجمل في تاريخ مصر النظم السياسية والإدارية، ١٤٢.

مؤسس هذه الدولة الناصر صلاح الدين الأيوبي، حيث أسقط الدولة الفاطمية^(١) في مصر عام (٥٦٧هـ/١١٧١م)، وأعاد الخطبة للخلافة العباسية^(٢)، وقد عمل صلاح الدين الأيوبي بعد وفاة نور الدين زنكي^(٣) سنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م) على توحيد مصر، والشام، والحجاز، واليمن، وأعلى العراق، وأجزاء من آسيا الصغرى، وأجزاء من ليبيا، والنوبة^(٤)؛ وذلك لتكوين جبهة إسلامية، لمواجهة الإمارات والمعازل الفرنجية (الصليبية) في بلاد الشام، والاستمرار في جهود نور الدين زنكي في توحيد الجبهة الإسلامية^(٥).

(١) الخلافة الفاطمية: هي سلالة تدعي أن نسبها يتصل بعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وزوجته فاطمة الزهراء (رضي الله عنها) ابنة النبي (ﷺ)، أنشأوا دولة سنة (٢٩٧هـ/٩٠٩م) قامت أول أمرها في تونس ثم أخضعت الشمال الإفريقي كله ثم مصر في عهد المعز لدين الله الذي مد حدود الدولة إلى شواطئ الأطلسي، وأرسل قائده جوهر فاحنل مصر = (٣٥٨هـ/٩٦٩م) وأنشأ باسمه مدينة القاهرة وبسط نفوذه على سوريا وفلسطين ولبنان (٢٩٧/٥٦٧هـ / ٩٠٩-١١٧١م). ينظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ٦٦-٦٨.

(٢) الخلافة العباسية: قامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية بعد معركة "الزباب"، استمر حكمها خمسة قرون، وتوالى على حكمها سبعة وثلاثون خليفة بدءاً من أبي العباس السفاح وانتهاءً بالمستعصم بالله، وقسمت الدولة العباسية إلى عشرين: العصر العباسي الأول (١٣٢- ٢٣٢هـ / ٧٥٥-٨٤٧م)، وهو عصر القوة والازدهار، والعصر العباسي الثاني (٢٣٢- ٣٣٤هـ / ٨٤٧-٩٤٦م)، وهو عصر التدهور والانحلال والذي انتهى بسقوط الدولة العباسية على أيدي التتار (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م). بالنسبة للدولة العباسية فقد حققت العديد من الإنجازات، وازدهرت العلوم، وانتشرت الأسواق، وحُصنت الثغور، وتغزرت شعائر الدين. ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٤٢١/٧؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ٤١٧-٤١٨.

(٣) نور الدين زنكي: هو نور الدين محمود زنكي ولد بمدينة حلب عام (٥١١هـ/١١١٨م) وهو ثاني أولاد عماد الدين زنكي، ينسب إلى السلاجقة الأتراك، وامتدت فترة حكمه من (٥٤١- ٥٦٩هـ / ١١٧٤م). للمزيد ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٩٧/١٢؛ ابن قاضي شهبه، الكواكب الدرية في السيرة النورية، ١٥.

(٤) النوبة: بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر، وهم نصارى، وأهل شدة في العيش. الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٣٠٩/٥؛ للمزيد ينظر: ابن ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ٨١؛ اليعقوبي، البلدان، ٣٣٥؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ٥٦؛ القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ٢٤؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ١٥٣؛ البغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٣/١٣٩٤؛ ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ٥٨.

(٥) المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٨٥/١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٦٢/٦.

وبالفعل فقد حقق صلاح الدين الأيوبي في فترة حكمه انتصارات عديدة على الفرنجة (الصليبيين)، واستعاد بيت المقدس بعد وقعة حطين عام (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)، وحرر مدناً شامية أخرى، وهي: طبرية وعكا، والناصرية، وقيسارية^(١)، وصفورية^(٢)، ويافا، وصيدا، وبيروت، وعسقلان^(٣)، والرملة، والداروم^(٤)، وغزة وبيت لحم^(٥)، وعند وفاته تغير كل شيء، وتفككت دولته التي أسسها، وانقسمت إلى أن انتهت عام (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م).^(٦)

(١) قيسارية: مدينة فلسطينية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وهي مدينة تاريخية جليلة. ينظر: ابن خردادبة، المسالك والممالك، ٧٩؛ اليعقوبي، البلدان، ٣٢٩؛ البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ١٧٤؛ البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ١١٠٦/٢؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٤٢١/٤؛ البغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ١١٣٩/٣.

(٢) صفورية: مدينة فلسطينية من أكبر مدن الجليل، تبعد عن الناصرة (٧كم). ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٤١٤/٣؛ الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ١٠٢/٧.

(٣) عسقلان: بلدة تقع في الجزء الجنوبي من فلسطين، على ساحل البحر، وكانت في الفترة الإسلامية ثغراً من الثغور الشامية. ينظر: اليعقوبي، البلدان، ٣٢٩؛ المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ١٧٤؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٣٥٦/١؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ١٢٢/٤؛ البغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٩٤٠/٢؛ ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ٣٩؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ٤٢٠.

(٤) الداروم: وهي قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر بينها وبين البحر مقدار فرسخ، هي التسمية القديمة لدير البلح، والداروم كلمة سامية بمعنى الجنوب، وكانت تطلق في وقت ما على السهل الساحلي الواقع جنوب اللد، وفي العهد المسيحي شمل الاسم هذا البلد حتى البحر الميت، واشتهرت بذلك الوقت بخمورها وقلعتها، لم يعد أحد يسمع بالداروم في كتب التاريخ بعد (٥٨٩هـ / ١١٩٣م)، وأصبح الاسم المتعارف عليه دير البلح لكثرة بلحها. ينظر: المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ١٤٧؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٥٢٤/٢؛ الدومينيكي، مرمجي، بلدانية فلسطين العربية، ١٢١؛ عطا الله، محمود، نيابة غزة في العهد المملوكي، ٧١.

(٥) الحميدي، يوسف، ياقوت الحموي مؤرخاً: من خلال كتابه معجم البلدان، ١٩.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ٧/١٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٣٤٠/٦.

أما بالنسبة للسيطرة السياسية على فلسطين قبل قدوم الأيوبيين، فكانت تتبع لخلافتين: إحداهما بالعراق وهي الخلافة العباسية، والتي ضعفت، ولم يبق منها سوى الاسم (البويهيين) ^(١) بسيطرة السلاجقة ^(٢) الترك عليها، أما الخلافة الفاطمية، فكانت في مصر والشام، وقد استعرت الخلافت والحروب ^(٣) بين هاتين الخلافتين، فانترع السلاجقة العديد من مدن بلاد الشام، وبعض أجزاء فلسطين من الفاطميين عام (٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، ثم ما لبثت الدولة الفاطمية أن أوقعت بالسلاجقة هزيمة انتزعت من خلالها القدس عام (٤٨٩هـ/١٠٩٦م) ^(٤)، وفي خضم هذه الخلافت المتنازعة، ظهرت قوة جديدة على الساحة هي القوة الفرنجية (الصليبية)، حيث أسست هذه القوة أربع إمارات لها في بلاد الشام، هي: إمارة الرها ^(٥) (٤٩١هـ/١٠٩٨م)، وإمارة أنطاكية ^(٦)

(١) حلواني، أحمد، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، ٣٥

(٢) السلاجقة: ويطلق مصطلح السلاجقة على مؤسسي الدولة السلجوقية، وظهرت في العصر العباسي الثاني، و ينحدرون من قبيلة قنق الغزية، وينتمون إلى جد هو سلجوق بن دقاق (وورد في تاريخ ابن الأثير "تقاق") وقد اتخذت القبيلة من سلجوق لقباً لها، استوطنوا واستقروا في منطقة ما وراء النهر (تركستان حالياً) في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين بعد أن أسلمت وحسن إسلامها، ثم انتقلت بعد سنوات قليلة إلى خراسان وكونت جيشاً قوياً وأعلن زعيمها طغرل بك قيام دولة السلاجقة عام (٤٤٧هـ/١٠٥٥م) واستمرت حتى عام (٦٥٦هـ/١٢٥٨م). ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥/٨؛ حسنين، عبد النعيم، سلاجقة إيران والعراق، ١٦-١٧؛ البيشاوي، سعيد، نابلس: الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية خلال الحروب الصليبية، ٦٢؛ الصلابي، علي، دولة السلاجقة، ١٩؛ طقوش، سهيل، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، ٧٦-٧٧؛ المغلوث، سامي، أطلس تاريخ الدولة العباسية، ٢٥٧.

(٣) مجهول، الإعلام والتبيين، ٣٢

(٤) الذهبي، دول الإسلام، ٤/٢؛ الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ١/١٤؛ غوانمة، يوسف، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، ١١٦

(٥) إمارة الرها: هي من مدن ما بين النهرين، واستطاع الصليبيون احتلالها في الحملة الصليبية الأولى، بل هي أول إمارة أسسها الصليبيون في الشرق الإسلامي، وعين بلدين الأول أول أمير لها وتم تحريرها عام (٦٤٢هـ/١٢٤٤م). للمزيد ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٤٣/٩، العصيمي، إيمان، المسلمون والغزو الصليبي في العصور الوسطى، ٦-٧؛ عاشور، سعيد، الحركة الصليبية، ١٤٨/١-١٥٠.

أنطاكية^(١) (٤٩١هـ/١٠٩٨م)، وإمارة طرابلس^(٢) (٥٠٣هـ/١١٠٩م)، مملكة بيت المقدس اللاتينية (٤٩٣هـ/١٠٩٩م)^(٣) التي تم احتلالها بعد حصارها، فدخلوه وارتكبوا مذبحه وحشية فيها^(٤)، وأبيحت المدينة للسلب والنهب، وقتل عدة أيام، وجرى الدم في الشوارع، وهكذا سقطت القدس بأيدي الفرنجة (الصليبيين)، بعد أن ظلت في يد المسلمين منذ فتحها الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).^(٥)

وقد قوى الفرنجة (الصليبيون) أركان مملكة بيت المقدس؛ مستغلين حالة الضعف التي كان يعاني منها المسلمون، وتنافسهم على السلطة، فكان لا بد من أن يتولى أحد ما مهمة التصدي للفرجة

(١) إمارة أنطاكية: تقع على نهر العاصي في لواء الإسكندرون التركي، فتحها المسلمون عام (١١٦هـ/٦٣٧م)، وهي من أهم المراكز التجارية لأنها تقع عند ملتقى الطرق الممتدة من الفرات إلى البحر المتوسط، ومن البقاع إلى آسيا الصغرى، استولى الصليبيون عليها عام (٤٩٢هـ/١٠٩٩م) وأصبح بوهيمند (Buhmand) أميراً لها ثم تانكرد (Tancred)، تم تحريرها على يد السلطان الظاهر بيبرس عام (٦٦٦هـ/١٢٦٧م). للمزيد ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ١/ ٢٦٧-٢٦٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٣-١٥؛ العصيمي، إيمان، المسلمون والغزو الصليبي في العصور الوسطى، ٧-٨؛ عاشور، سعيد، الحركة الصليبية، ١/١٦٥-١٦٨.

Runciman, A History of The Crusades, 213.

(٢) إمارة طرابلس: طرابلس قديماً عبارة عن ميناء على البحر الأبيض المتوسط، تقع شمالي لبنان، فتحها المسلمون سنة (١١٧هـ/٦٣٨م) وبقيت ميناء مسلماً حتى اغتصبها الصليبيون سنة (٥٠٣هـ/١١٠٩م) وبقيت في أيديهم حوالي مائة وثمانين عاماً، استعادها المسلمون عام (٦٨٨هـ/١٢٨٩م). ينظر: العصيمي، إيمان، المسلمون والغزو الصليبي في العصور الوسطى، ١٠.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٠/٤٧٥-٤٧٦؛ مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ١١٩-١٢٠.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٠/٢٨٣؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٢/٢١٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٥/١٥٢؛ المنجد، صلاح الدين، اللاجئون المقدسة إلى دمشق بعد الغزو الفرنجي ونتائج هجراتهم، ٧١٠؛ مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ٢٤٧.

(٥) الأصفهاني، عماد الدين، الفتح القسي في الفتح القدسي، ١٩؛ الصوري، وليم، الحروب الصليبية، ٢/١٢٧-١٢٨.

(الصليبيين)، ولعل الزنكيين، والأيوبيين هم من تولوا مهمة الدفاع عن البلاد الإسلامية، والتصدي للخطر الفرنجي (الصليبي).^(١)

أولاً: التبعية الإدارية والسياسية لبيت لحم:

قسمت بلاد الشام في العصر الأيوبي إلى ست وحدات إدارية رئيسية، وهي: دمشق وأعمالها، وحلب وأعمالها، وبعبك وأعمالها، وحماة وأعمالها، وحمص وأعمالها والكرك وأعمالها^(٢)، ومن أعمال دمشق: بيت المقدس، والرملة، واللد، وسبسطية، وعين جالوت^(٣) وبيروت، وصيدا، وعسقلان، وقيسارية، ويافا، وبيت لحم، وبيت جالا وحبيراص^(٤)، والسويداء^(٥).^(٦)

(١) المنجد، صلاح الدين، اللاجئين المقدسة إلى دمشق بعد الغزو الفرنجي ونتائج هجراتهم ، ٧١٠هـ؛ أبو دعة، أمين، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، ١٤.

(٢) شيخ الربوة، شمس الدين الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ١٩٢؛ ابن شاهين، غرس الدين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ٤٣.

(٣) عين جالوت: هي بلدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين، كان الروم قد استولوا عليها مدة ثم استنقذها منهم صلاح الدين الملك الناصر يوسف بن أيوب عام (٥٧٩هـ/١١٨٤م). ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٤/ ١٧٧.

(٤) حبيراص: تقع هذه القرية في منطقة الكفارات من لواء بني كنانة أحد ألوية محافظة إربد. ينظر: حتاملة، مجد، حبيراص زيتونها المبارك يحمي مسجدها الأموي، جريدة الرأي، ١.

(٥) السويداء: قرية بحوران من نواحي دمشق. ينظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ٧٦؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٢/ ٦٤٥؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٣/ ٢٨٦؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ٢٣٣؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ٣٣٠.

(٦) شيخ الربوة، شمس الدين الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ٢٠٠-٢٠٢.

ويبدو أن بيت لحم كانت من ضواحي القدس، وتتبع لغزة، حيث ذكرت بعض المصادر ذلك، فأشارت إلى أن من أعمال غزة: عسقلان، ويافا، وقيسارية وأرسوف^(١)، والداروم، والعريش^(٢)، وبيت جبرين، والخليل، وبيت المقدس^(٣) وضواحيها، والتي كانت بيت لحم من ضمنها؛ إضافة لمدينة حبرون^(٤) .^(٥)

أما التقسيم الإداري لفلسطين بشكل عام بالفترة الأيوبية، فتكوّن من الإقليم الساحلي، الواقع بين صور ويافا، وكان يخضع للحكم الفرنجي (الصلبي)، أما الأقاليم التابعة للحكم الأيوبي فهي: الإقليم الواقع في الجنوب الفلسطيني، والإقليم الذي يمتد من شمال القدس حتى طبريا والجليل، وباقي أجزاء فلسطين تبعت للأمير الكرك. ^(٦)

(١) أرسوف: مدينة على الساحل الفلسطيني بين قيسارية ويافا. ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ١٥١/١.

(٢) العريش: هي مدينة مصرية، تقع على ساحل بحر الروم (البحر المتوسط). ينظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ٨٠؛ اليعقوبي، البلدان، ٣٣٠؛ البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ٩٣٨/٢؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ١١٢/٤؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ١٠٩؛ البغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٩٣٥/٢؛ الحميري، الروض المعطار في خير الأقطار، ٤١٠.

(٣) شيخ الربوة، شمس الدين الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ٢١٣؛ ابن شاهين، غرس الدين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ٢٣-٢٤.

(٤) حبرون: ويقال لها حبري، إلا أن الاسم الذي غلب عليها هو الخليل، وتقع في الجنوب من فلسطين، فيها قبر إبراهيم الخليل (عليه السلام). ينظر: المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ١٧٢؛ البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ٢٦٦/١؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٢١٢/٢؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ٢٨٤/١.

(٥) شيخ الربوة، شمس الدين الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ٢١٠-٢١٢؛ ابن شاهين، غرس الدين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ٤٤.

(٦) مصطفى، شاعر، فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي، ٤٣٥-٤٣٧.

ثانياً: الحياة الاجتماعية:

أ) السكان:

قبل احتلال الفرنجة (الصليبيين) لمدينة القدس، أُجبر النصارى المحليون، ورجال الدين الروم المقيمون فيها على مغادرة البلاد إلى الأرياف القريبة؛ خوفاً من تعاونهم مع الفرنجة، خاصة وأن نصارى بيت لحم كانوا قد أرسلوا وفداً منهم إلى الرملة، طلبوا من الفرنج الإسراع في تسلم البلدة^(١)، إلا أن الفرنجة (الصليبيين) أذاقوا نصارى بيت لحم، ونصارى المناطق الفلسطينية الأخرى أصنافاً من الظلم، والإجحاف واغتصاب الحقوق، والتي كانت على عكس توقعاتهم. فقد حل سكان جدد من اللاتين، والنصارى المحليين، وغير أولئك من الأقليات النصرانية الشرقية محل النصارى المحليين في مدينة القدس، وبيت لحم التي كانت جزءاً منها، وحل الفرنجة (الصليبيون) كذلك محل المسلمين، واليهود الذين لم يعد لهم مكان في المدينة المقدسة، حيث تخلصوا منهم إما بالقتل، أو الطرد، أو الحرق، وقد استمر الحال على ما هو عليه لما يقارب الثمانين عاماً^(٢)، وبالتالي فقد أفرغت القدس من السكان الأصليين^(٣).

انقسم المسيحيون في بيت لحم إلى: الكاثوليك، واليونان الأورثوذكس، واليعاقبة^(٤) الطائفة الأولى هم جزء من التيار الكنسي الرسمي الذي تتأهه الكنيسة البيزنطية الرسمية بزعامة بطريرك القسطنطينية، وبالتالي

(١) أبو شامة، المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ١١٣/٢؛ ابن واصل مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٢٢٩/٢.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٢١٧/٢.

(٣) العسلي، كامل، القدس في التاريخ، ١٧٧ - ١٧٨.

(٤) اليعاقبة: وهم أتباع ديسقوس بطرك الإسكندرية، وهو الثامن من بطاركتها وسمي أهل مذهبه يعقوبية؛ لأن اسمه كان يعقوب يعقوب البراذعي، ويقول أصحاب هذا المذهب بالطبيعة الواحدة لعيسى (عليه السلام) ومما يدل على ذلك: "إن لسيدنا يسوع

ملكية الكنائس والأديرة الكبيرة والمهمة في فلسطين بشكل عام تعود لها، مثل كنيسة المهد في بيت لحم، وكنيسة القيامة في القدس، وكنيسة البشارة في الناصرة على جبل طابور^(١)، وكان الامبراطور البيزنطي يعدّ نفسه حامياً حمى هذه الطائفة في فترة الحكم الإسلامي. (٢)

ويُذكر أن القسم الأكبر من سكان بيت لحم كان من المسيحيين الشرقيين^(٣) وكان كل سكان قرية بيزك^(٤) من النصارى، وعُرف عنهم اهتمامهم بزراعة أشجار

المسيح أقنوماً واحداً إلهياً اتحد بالطبيعة الإنسانية اتحاداً تاماً، بلا اختلاط، ولا امتزاج ولا استحالة، فالعذراء والحالة هذه بحق والدة الإله، فمريم لم تلد إنساناً عادياً بل ابن الله المتجسد لذلك هي حقاً أم الله" وهذا المذهب هو الذي سمي فيما بعد باليعاقبة نسبة إلى يعقوب البرادعي وليس هو مؤسسه، ولا أول من قال به، لكنه فيما يبدو من أبرز الدعاة إليه، وانتشر هذا المذهب في مصر والنوبة والحبشة. ينظر: القلقشندي، **صبح الأعشى في معرفة الانشا**، ١٣/٢٨١؛ أبو عبد الله، محمد، **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين**، ١٣؛ شنودة، زكي، **موسوعة تاريخ الأقباط**، ١٦٠-١٦١؛ أبو زهرة، محمد، **محاضرات في النصرانية**، ١٤٦.

(١) جبل طابور: ويعرف بجبل الطور، أو تابور (طابور)، وهي لفظة يونانية تعني المكان المرتفع، وهو جبل عالٍ، واسع من الأسفل، مستدير الرأس، يقع بين طبريا واللجون، وفيه عين تتبع بماء غزير، ويطلق عليه المسيحيون اسم "جبل التجلي" حيث يزعمون أن المسيح (عليه السلام) تجلى فيه لتلاميذه بعد أن رُفِع حتى أراهم نفسه وعرفوه. ينظر: الحموي، ياقوت، **معجم البلدان**، ٥٢١/٢؛ العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ٣٣٧؛ الدومينيكي، مرمجي، **بلدانية فلسطين العربية**، ٢٢٢.

(٢) عثمانة، خليل، **فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي**، ٢١٩-٢٢٠.

(٣) فابري، فيلكس، **جولات الراهب فيلكس فابري ورحلاته**، ٧١٢/٢.

(٤) بيزك: بالرجوع إلى المصادر الجغرافية المختلفة لم نجد قرية في حدود بيت لحم تحمل اسم قرية بيزك، ومن المرجح أن تكون هي قرية "بيت بيزان" الواقعة جنوب شرق بيت لحم، وقد اشتهرت بهذا الاسم في العهد الروماني، وبعدها عرفت بعدة أسماء منها: "خربة بصة"، و"خربة بيت بصة"، و"بير بيتا"، و"بيت بازار" يحد هذه القرية من الغرب إرطاس، ومن الشمال الغربي مدينة بيت لحم، ومن الجنوب الشرقي قرية بيت تعمر. الدباغ، مصطفى، **بلادنا فلسطين**، ٤٥٣/٢؛ البيشاوي، سعيد، **الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية**، ١٧٥.

العنب^(١)، وذكر ودولف (Woodolf) أن بيت لحم مسكونة فقط من قبل المسيحيين.^(٢)

ووجدت العديد من الوثائق في الفترة القريبة جداً من الفترة الأيوبية، تؤكد أن العنصر المسيحي وُجد في فلسطين، ومن هذه الوثائق وثيقة عام (٥٥٦هـ / ١١٦١م)، ومضمونها أن الطائفة السريانية^(٣)، كانت تقطن بعدة مدن وقرى فلسطينية، وأهمها قرية بيت جالا^(٤)، وقرية بيت الكرمة^(٥)، حيث يمثل السريان نصف سكانها^(٦).

وبعد أن حرر صلاح الدين بيت المقدس، سمح للنصارى الشرقيين بالإقامة في القدس، بعد أن التزموا بأن يؤدوا الجزية^(٧)، وقال في ذلك أبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م): "وأقام في مدينة القدس، وأعمالها منهم ألوف"^(٨) وبالتالي ظل المسيحيون الشرقيون يقطنون جنباً إلى جنب مع المسلمين، في

(١) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ١٥٦؛ فابري، فيلكس، جولات الراهب فيلكس فابري وورحلاته، ٣ / ٩٨٧.

(٢) لودولف، وصف الأرض المقدسة للرحالة وودولف السوخومي، ٣٤٧.

(٣) الطائفة السريانية: طائفة مسيحية تنتشر في شمال كل من العراق، وسوريا، وتركيا، وإيران، وتوجد أعداد قليلة منهم في دول أخرى، ولا يتبعون مذاهب اللاتين أو الأرثوذكس، ويتبعون لشعوب أخرى، يشبهون الأرثوذكس في جميع أمورهم الدينية والدنيوية، بل ويشبهون المسلمين باللباس، يعملون عادة بالزراعة، ولا يتقنون القتال باستثناء مجموعة منهم ممن يستعملون الأقواس والسهام. ينظر: المسعودي، التنبيه والإشراف، ١٥٠؛ الفيتري، يعقوب، تاريخ بيت المقدس، ١٠٨-١١١؛ البيشاوي، سعيد، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس، ٣٦٨-٣٦٩.

(٤) Regesta. R, Annales de Terre Sainte, Vol. 1, 253

(٥) قرية بيت الكرمة: وهي تقع على جبل الفريديس الذي يبعد تقريباً أربعة أميال إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم، وعرف جبل الفريديس بجبل الفرنج. ينظر: بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ١٥٨؛ الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٤٤٨/٨.

(٦) الراهب، دانيال، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ٨٢.

(٧) الأصفهاني، أبو الفتح، الفتح القسي في الفتح القدسي، ٨٩؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٥٨/١.

(٨) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢٥٩/٣.

في معظم أرجاء الأراضي المقدسة، وكان موقفهم حيادياً تجاه الصراع الإسلامي الفرنجي (الصليبي)^(١)، ثم تسلم المسيحيون الشرقيون رئاسة الكنائس في المدن المحررة كافة.^(٢)

وبذلك فإن الخريطة السكانية لم تتغير كثيراً في فلسطين بعد استعادتها من أيدي الفرنجة (الصليبيين)، إلا فيما يخص العنصر الفرنجي (الصليبي).^(٣)

وقد استقر في فلسطين منذ بداية العصر الأيوبي الأكراد، وذلك بعد أن لبوا نداء الجهاد الذي دعا إليه صلاح الدين الأيوبي لتحرير فلسطين، والديار المقدسة، وقد أسكن صلاح الدين الأيوبي الجنود الأكراد في المدن الفلسطينية، وقام بإعطائهم إقطاعات خاصة بهم. ومع مرور الوقت شكل الأكراد في المدن التي استقروا فيها أحياء خاصة بهم في كل من القدس، والخليل، وعكا، ونابلس، وغزة، أما بيت لحم فقد كان التوطن الكردي فيها أقل من غيرها حيث وجدت فيها عائلة الكردي.^(٤)

(١) أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢٠٣/٣.
(٢) أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ١٩١/٤؛ ويندوفر، روجر، ورود التاريخ، التاريخ، ٣٣٠.

Bordonove (G), *les croisades et le Royaume de Jerusalem*, 236

(٣) أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢٠٣/٣.
(٤) العليمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٧٧/٢؛ كرد، علي، خطط الشام، ٢١/١.

ب) الزواج:

من المظاهر الاجتماعية التي تستحق الاهتمام عند المسيحيين عامة، وسكان بيت لحم خاصة، تقاليد الزواج، ومراسم الفرح التي تتم فيه، ولم تختلف مظاهر الزواج في المجتمعات الإسلامية في العصور الوسطى كثيراً عن بعضها البعض، ولعل الشيء الدخيل في هذه المراسم كان بفعل الفرنجة (الصليبيين)، وما استحضروه من بلاد الغرب من عادات وتقاليد، ونثروها في البلاد الإسلامية، وتحديداً في المناطق التي تقطنها الطوائف المسيحية، والذين كانوا أكثر عرضة لهذا التأثير. (١)

ومن المظاهر المسيحية في الزواج، كانت العروس تضع على رأسها عصابة من ذهب، قد حفت بشبكة مذهبة منسوجة، ويمشي رجال طائفاتها أمامها بأفخر ما لديهم من ملابس^(٢)، ويذكر الرحالة ابن جبير (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م)، أن المسلمين ومختلف النصارى كانوا يشاهدون حفلات الزواج، ولا ينكرون ذلك، بل وعلى العكس كانوا ينظرون إلى النساء المشاركات بالمراسم، وقد استتكر الرحالة ابن جبير عملية اختلاط النساء بالرجال، واستعاذ من ذلك. (٣)

وقد ذكر القائد والمؤرخ أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م)، موضوع الاختلاط بين الرجال والنساء وقد وصفهم بعديمي النخوة والغيرة، وذكر مثلاً على ذلك: بأن الرجل إن كان سائراً مع زوجته في

(١) اعبيد، وائل، القدس في العصرين الفاطمي والأيوبي، ١٨١.

(٢) نفسه، ١٨١.

(٣) رحلة ابن جبير، ٢٦٢.

الشارع، ولقيه رجل آخر يريد التحدث مع زوجته، سمح له بذلك دون أن يبدي أي اعتراض بل وينتظرهما حتى ينهيا حديثهما! (١)

ويظهر لنا من خلال ذلك أن أكثر المؤرخين والرحالة، جلب انتباههم في ذلك العصر الاختلاط؛ لأنه أمر طارئ على الثقافة الإسلامية، وأنه من العادات والتقاليد التي يختص بها النصارى، وقد كانت سائدة أينما وُجد المسيحيون في القدس، وبيت لحم، والناصرية، حيث وصفوا ذلك النوع من الاختلاط بأنه يتنافى مع ما عرفه الإسلام من عادات وتقاليد، وينم عن عدم غيرة الرجال على زوجاتهم، وبناتهم، عكس ما تنص عليه تعاليم الإسلام . (٢)

وكان يتجمع أهل البلدة النصارى ومعارفهم من البلديات الأخرى للاحتفال بمراسم الزواج، ويصطفون كلهم على طرفي منزل العروس في ذلك اليوم، تتقدمهم فرقة موسيقية تعزف بآلاتٍ كانت متوافرة في ذلك الوقت، ثم تخرج العروس من بيت والدها بكامل زينتها، وأبهتها، وتتهادى بين رجلين من أقاربها عن يمينها وشمالها ممسكا بذراعيها، وتمشي العروس بخطوات بطيئة، وقصيرة حتى تصل هي والموكب الذي يسير معها إلى دار الزوج، وهناك تقام الولائم طوال اليوم. (٣)

(١) الاعتبار، ١٣٥.

(٢) اعييد، وائل، القدس في العهدين الفاطمي والأيوبي، ١٨٢

(٣) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ٢٧٨.

أما بالنسبة للاحتفال بمراسم الزواج لدى المسلمين، فقد كان يتم في مكان مخصص للفرح، ويبدو أن هذه العادة قد ورثوها عن الفاطميين^(١)، حيث كانت هذه الأماكن (الدور) ملكاً للأفراد، لكن إدارتها تابعة للدولة، وكان يراعى فيها الالتزام بحرمة أصحاب الحفل.^(٢)

كانت العروس المسلمة تستعد لفرحها فتنقش النقاشة^(٣) الحناء لها، على يديها، وقدميها، وتضع الكحل، أما ثوب زفافها فكان من الأقمشة الفاخرة نوعاً ما، وكانت تضع تاجاً مرصعاً بالجواهر على رأسها وكل هذا يتم على يد المجلى.^(٤)

وفي يوم العرس، تجلس العروس على دكة مرتفعة ليراها الحضور، ويلتف حولها أفراد عائلتها والمدعوين، وتجدر الإشارة إلى أن هذا الحفل كان قاصراً على النساء، وكان -أيضاً- هناك مكان مخصص للزوج والمدعوين من الرجال.^(٥) وهو عكس ما ذكرناه عن أعراس النصارى والذي كان مختلطاً.

وأخيراً وليس آخراً فقد اجتمعت جميع مراسم الزواج سواء للمسلمين، أو النصارى، بإقامة الولائم الكبيرة، وإطعام جميع من يشاركونهم في الحفل.

(١) المقرئزي، اعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ١٠٠/٣-١٠١.

(٢) الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ٦٠١.

(٣) النقاشة: حرفة من حرف النساء وهي التي تنقش على أيدي وأرجل النساء، ويتم النقش من خلال إذابة كمية من الشمع العسلي على النار مع اللبان الأسود، ويرسم زخارف وعروفاً على اليد بواسطة قشة توضع بهذا المزيج، وعندما يجمد هذا المزيج على اليد توضع في تلك العروض معجون الحناء، وتلف الأيدي والأرجل بلفائف من الأقمشة، ثم يزال الشمع واللبان والحناء فتظهر العروق بلون أحمر ثم يدهنونها بمسحوق من الزرنخ والحناء البيضاء والفلفل والبهار لربع ساعة ثم تغسل فيصبح اللون أسود قائم. ينظر: قاموس الصناعات الشامية، ٤٨٧-٤٨٨.

(٤) المقرئزي، اعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ١٠١/٣.

(٥) نفسه، ١٠١/٣.

ومن خلال المصادر التاريخية المعروفة، لم نستطع الحصول على معلومات إضافية قيمة حول

العادات الاجتماعية الأخرى في الفترة الأيوبية.

ثالثاً: الأحوال الاقتصادية في بيت لحم في العهد الأيوبي:

(١) الزراعة والثروة الحيوانية:

- الزراعة:

تعرضت الأراضي الزراعية في فلسطين فترة الاحتلال الفرنجي (الصليبي) للنهب حيناً، والتخريب حيناً آخر، وكانت أراضي بيت المقدس وما حولها كبيت لحم، وحيفا، وعكا، والرملة عرضة لذلك، وبذلك أصبحت محاصيل الأراضي الزراعية المسلوقة تمون وتزود الحملات الصليبية على بلاد الشام، ولعل سبب ذلك الأوضاع السيئة، والضعف الذي وصلت إليه البلاد الإسلامية، بالإضافة لضعف حكامها^(١)، ولم يتوان الفرنجة عن تنفيذ هجمات متكررة على الأرياف الفلسطينية، مما أثر سلباً على الحياة الزراعية، حيث ترك أصحاب الأراضي أراضيهم؛ نتيجة للظروف السياسية والعسكرية السيئة التي جلبها الإفرنج بقدمهم إلى الشام.^(٢) إلا أن حرب الاسترداد التي حمل لواءها آل زنكي^(٣)، واسترجاعهم لبعض المناطق الشامية التي

(١) جيل، ريموندا، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ١٨١؛ زكار، سهيل، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ٢٥٧/٣-٢٥٩.

(٢) الشارترى، فوشيه، تاريخ الحملة إلى القدس، ٥٣-٥٨؛ جيل، ريموندا، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ٢٤٨؛ زكار، سهيل، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ٢٦٠/٣-٢٦١.

(٣) آل زنكي: سلالة تركية في شمال سوريا والعراق حكمت بالفترة ما بين (٥٢١-٦٣٠هـ/١١٢٧-١٢٣٣م) مؤسسها أقسنقر أحد جنود المماليك السلاجقة، وتولى من بعده عماد الدين زنكي (٥٢٠-٥٤١هـ/١١٢٧-١١٤٦م) الإمارة على العراق، واستطاع بحملاته الناجحة ضد الإمارات الصليبية أن يحكم سيطرته على كامل العراق وأجزاء من الشام، وخلفه ابنه نور الدين زنكي (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٤م) وهو الذي قاد الدولة لأوجها، واستولى على دمشق وضمها للعراق، لكن ابنه الملك الصالح إسماعيل (٥٦٩-٥٧٧هـ/١١٧٤-١١٨١م) لم يكن على مستوى الأحداث فوفاته انتهت الدولة الزنكية ليحمل لواء القيادة السلطان صلاح الدين الأيوبي معلناً ظهور نجم الأيوبيين. طقوش، سهيل، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، ٩-١١.

كانت في يد الفرنجة (الصليبيين)، وإصلاحهم الأراضي، وإحسانهم إلى الأهالي من الفلاحين، وفرضهم الحماية من اعتداءات الأجناد على أراضيهم^(١)، كل هذا لم يمنع من تكرار الغارات الفرنجية (الصليبية)، بل وغدت هذه الغارات متكررة، وظلت غالبية الأراضي الزراعية بأيديهم، ينعمون بخيراتها، حتى قيام الدولة الأيوبية، ومجيء صلاح الدين الأيوبي.^(٢)

استصلح صلاح الدين الأيوبي الأراضي الزراعية، ووسعها من خلال: بناء السدود، وعمل الخزانات، وشق القنوات؛ لمواصلة النشاط الزراعي، وقام بإلغاء الضرائب المفروضة على الفلاحين والمزارعين، فغدت الزراعة العمل الرئيسي والمعيشي لسكان بلاد الشام خلال الفترة الأيوبية، ولا سيما ما قامت به السلطات الأيوبية من تشجيع الفلاح على الزراعة؛ وذلك بتضمينهم أراضي زراعية، والعمل على استصلاحها مقابل مبلغ محدود^(٣)، وساعد -أيضاً- في دفع الزراعة وتقدمها وازدهارها؛ استمرار وجود طبقة ريفية ذات نسبة كبيرة من المسلمين والمسيحيين حول القدس، والناصرية، وبيت لحم، وهو ما كان عليه الحال في الفترة الفرنجية (الصليبية).^(٤)

وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على الاهتمام الكبير الذي أولاه الأيوبيون للزراعة، حيث اهتموا بحماية المزارع، وعملوا على تقدم الزراعة، وتحسين وسائلها، مما حدا بكثير من سكان فلسطين أن يعودوا من جديد إلى الزراعة خلال فترة الحكم الأيوبي، وكان أغلب سكان القرى يعملون في فلاحية الأرض، وكان

(١) زكار، سهيل، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، ٢٧٧/٣-٢٧٨.

(٢) نفسه، ٢٨٩/٣-٢٩٢.

(٣) المقرئ، تقي الدين، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٢٣٣/٢؛ الأوتاني، أحمد، دمشق في العصر الأيوبي، ٣٤٠.

(٤) شاكر، مصطفى، فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي، ٤٧٩-٤٨٠.

العامل الفلسطيني مثلاً للمزارع النشيط، والصانع الماهر، بل والتاجر الدؤوب.^(١) ولقد تجسد اهتمام الفلاح الفلسطيني في تلك الفترة في الزراعة من خلال زراعة الأشجار، مثل: أشجار النخيل، والبرتقال، بالإضافة إلى الذرة، والحنطة، والقطن^(٢)، وقد بذلوا أقصى جهودهم لتزدهر الزراعة وتتقدم، حتى ضرب المثل بجودة المنتجات الزراعية الفلسطينية، وخصوبة أراضيها.^(٣)

يتأثر الإنتاج الزراعي -إيجاباً أو سلباً- بعدة عوامل طبيعية كالمناخ، وطبيعة التضاريس، والتربة والأمطار وغيرها، ويعد مناخ بيت لحم متوسطياً معتدلاً^(٤)، أي متوسط الحرارة والبرودة^(٥) وتتفاوت الحرارة فيها خلال السنة، فمناخها حار جاف صيفاً، بارد رطب شتاء.^(٦)

أما بالنسبة لمصادر المياه في بيت لحم، فإنها كانت تشكل تحدياً كبيراً للسكان، والاستقرار بها، وتعد مياه الأمطار المورد الأساسي لها^(٧)، حيث خلت من الجداول والأنهار^(٨)، وقد ذكر ابن حوقل عن قلة المياه المياه الجارية واعتماد سكان فلسطين على الأمطار فقال: " وليس بفلسطين بلدة فيها ماء جار سواها (وقصد

(١) النقاش، زكي، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، ٩٤.

(٢) كرد، علي، خطط الشام، ٤/٣٢٥.

(٣) كرد، علي، خطط الشام، ٤/١٣٨؛ بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ٣٦٤.

(٤) نجم، رائف وآخرون، كنوز القدس، ٢٥؛ خليل، مقبولة، مدينة القدس في العهد الأيوبي، ٢٨؛ محاسنة، محمد، حقيقة القدس، ٢٢.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ١٩٥؛ القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ١٦١.

(٦) نجم، رائف وآخرون، كنوز القدس، ٢٥؛ خليل، مقبولة، مدينة القدس في العهد الأيوبي، ٢٨؛ محاسنة، محمد، حقيقة القدس، ٢٢.

(٧) خسرو، ناصر، سفر نامة، ٥٦؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٥/١٦٨؛ القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ١٦٠؛ ١٦٠؛ الحميري، الروض المعطار، ٦٢٦. للمزيد ينظر: زيادة، نقولا، الجغرافية والرحلات عند العرب، ٦٩؛ سترانج، لي، فلسطين في العهد الإسلامي، ٩٩.

(٨) Ibid. 25-26.

بذلك يافا)، وباقي ذلك شرب أهله من المطر وزرعهم عليه"^(١)، وذكر ذلك -أيضاً- الرحالة الروسي دانيال الراهب (Abbot Daniel) بقوله: "والمنطقة خالية من الماء بشكل مطلق، حيث لا يجد المرء نهراً، أو آباراً أو ينابيع بالقدس أو ما حولها، ولذلك ليس أمام سكان المدينة شيء يستخدمونه سوى ماء المطر"^(٢) وبالتالي كانوا يعتمدون على مياه الأمطار في ري المحاصيل الزراعية^(٣). بيد أن بيت لحم كانت من المناطق الأقل حظاً في منسوب مياه الأمطار؛ نظراً لطبيعتها الجغرافية التي جعلت منها مركزاً لوسط الجنوب الفلسطيني، والذي لم يشتهر بمنسوب أمطار عالٍ منذ الحُقب القديمة مقارنة بغيرها من مدن فلسطين الجبلية، لذا كانت مواسم الزراعة فيها متذبذبة بين سنة وأخرى.^(٤)

رغم قلة الينابيع، والاعتماد على مياه الأمطار، لم يؤثر على خصوبة أراضي فلسطين بشكل عام وبيت لحم بشكل خاص^(٥)، بل على العكس من ذلك، فإن أغلب أراضيها من أفضل، وأخصب، وأغنى الأراضي^(٦)، وأكثرها زرعاً^(٧)، بل وتوجد أراضيها بالأعشاب العطرية، والطبية، والمحصولات الزراعية.^(٨)

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ١٦٩؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٣٦٤/١؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٠٦/٤-١٠٧.

(٢) وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ٥٦.

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٣٥٦/١؛ كرد، علي، خطط الشام، ١٣٢-١٣٣.

(٤) الموسوعة الفلسطينية، ٩٠-٩٢.

(٥) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٣٦٣/١؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ٢٠٠؛ بورشارد، وصف الأراضي المقدسة، ١٦٧.

(٦) بورشارد، وصف الأراضي المقدسة، ١٦٧.

(٧) ابن حوقل، صورة الأرض، ١٦٩؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٣٦٤/١؛ القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، ١٠٦/٤-١٠٧.

(٨) بورشارد، وصف الأراضي المقدسة، ١٦٧.

ولم يعق الفلاح الفلسطيني بُعد الأراضي الزراعية عن مصادر المياه، بل أوجد أساليب معينة للتعامل معها، ومثال على ذلك: أسلوب نظام الحقلين، حيث يزرع بموجبه قسم من الأرض، ويتم إراحة القسم الآخر ثم يجري التبديل بين القسمين في العام التالي^(١)؛ للمحافظة على جودة التربة، وتحسين الإنتاج^(٢).

أما أهم الأشجار المزروعة ببيت لحم، فتمثلت بأشجار الزيتون، والتين، والجميز^(٣)، إلى جانب اللوزيات وغيرها من الأشجار التي تغطي جبال بيت لحم^(٤)، أما أشجار العنب فنكثر في المناطق الغربية لبيت لحم، حيث يولون العنب أهمية خاصة؛ وذلك لأنهم يصنعون منه النبيذ، بحكم أن أغلبية سكانها من النصارى، وكانوا يعدون نبيذهم الممتاز^(٥).

أما الحاصلات الزراعية التي كانت تزرع في بيت لحم، فلم تختلف عن غيرها من مناطق فلسطين، حيث زرع فيها القمح، خاصة وأنه من المعروف أن القمح الذي كان يزرع جنوب فلسطين في القدس، وبيت لحم، والخليل يعدّ من أجود أنواع القمح، ولكثرته عمل الفلاح الفلسطيني على تخزينه من موسم إلى آخر؛ ليقثاتوا عليه، وليقدموه علفاً لحيواناتهم^(٦)، وكذلك زرعت أراضي بيت لحم بالذرة، والعدس والبقول والسمسم^(٧)، والسمسم^(٧)، ولعل الشعير في مقدمة هذه المحاصيل التي كانت تزرع في المناطق المحيطة بالقدس، والخليل

(١) النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب، ٢٥٦/٨.

(٢) خرابشة، سليمان، نيابة طرابلس في العهد المملوكي، ١٦٠.

(٣) الجميز: هو نوع من الأشجار، مستديم الخضرة، متناسق الشكل، وتعطي هذه الشجرة ثماراً تشبه ثمار التين، إلا أن أوراقها أوراقها تشبه أوراق شجرة التوت. ينظر: إبراهيم، عاطف ومحمد حجاج، الفاكهة المستديمة الخضرة زراعتها ورعايتها وإنتاجها،

١٩٩٦، ٢-١.

(٤) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ٧٠.

(٥) نفسه، ٧٠.

(٦) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ٢٧٠، الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٥٨/٥-٥٩.

(٧) الراهب، دانيال، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ١٠٨.

وتقوع، وبيت لحم^(١)، ويرجع السبب في انتشار زراعة هذه المحاصيل؛ وجود الكثير من الحقول الخصبة والأودية في بيت لحم ، بالإضافة إلى اهتمام الكنيسة في المقام الأول بتشجيع زراعة هذه الأصناف حيث تتقاضى العشر من المحاصيل. ^(٢)

أما بالنسبة للخضروات فمنها ما هو شتوي، ومنها ما هو صيفي، وكانت تزرع في السهول حول بيت لحم لاستهلاك السكان اليومي^(٣)، فزرع الثوم، والبصل، واللفت، والفجل، والخس، والكرنب وغيرها. ^(٤)

خضع الفلاح الفلسطيني، وغيره من الفلاحين في المناطق المختلفة، لعدة قوانين ، وقد وجدت هذه القوانين منذ العهد الأموي، واستمرت حتى العهد المملوكي، فالفلاح بالأصل لم يكن مالكا للأرض والمقطعون كذلك لم يكونوا ملاكا للأرض، فقد كانوا يديرونها لحساب رجال الإقطاع، والأوقاف، والملاك فقامت هذه القوانين على أساس المقاسمة، أو المثلثة، أو المربعة، أو الخامسة، أو السادسة، أو المسابعة أو المثامنة^(٥)، واعتمدت المقاسمة في الأراضي المروية، أما المربعة فسادت في الأراضي البعلية، واعتمدت واعتمدت قاعدة الخامسة والمسادسة إلى المثامنة، في الأراضي الواقعة على الأطراف، وكانت عرضة لأخطار العدو. ^(٦)

(1) Theodeich, **Description of the Holycond** ,24.

(٢) النقاش، زكي، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، ١٧٠.

(٣) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار ، ٢١.

(٤) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ٢٥٨.

(٥) تجدر الإشارة إلى أن المقاسمة تقوم على أن يأخذ الفلاح نصف الإنتاج والمقطع النصف الآخر، أما المثلثة فيأخذ الإقطاعي الثلث، والمربعة الربع، والخامسة الخمس، والمسادسة السدس، والمسابعة السبع، والمثامنة الثمن. ينظر: زعرور، إبراهيم، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، ٢٣٣.

(٦) النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب ، ٨ / ٢٥٧-٢٦٠؛ السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ١٢٧.

ووجد -أيضاً- قانون يعرف "بالأراضي المضمنة"، منذ الحكم الفرنجي (الصليبي)، واستمر حتى العصر المملوكي، وعلى أرباب تلك الأراضي دفع شيء معلوم من المال يؤخذ منهم عند إدراك المحصول.^(١)

ولعل هذه القواعد والأنظمة توحى بأن وضع الفلاح كان جيداً، إلا أن المشكلة تكمن في التطبيق فكان مجمل ما يحصل عليه الفلاح لا يتجاوز نسبة العشرة بالمائة، بل وأحياناً لا يحصل على شيء، وعليه فكان يقع على الفلاح نوع من الظلم.^(٢) بل وكان الفلاح أحياناً يضطر للهرب، والفرار من القرية، واللجوء إلى المدينة، أو إلى أي منطقة أخرى، وكانت تزداد فترات النزوح؛ عند احتباس الأمطار، وتدهور المواسم واضطراب الأمن، واجتياحات الجيوش الغازية للبلاد^(٣)، وهو ما حدا بالسلطات على إرغام النازحين إلى العودة إلى قراهم^(٤).

(١) عبد السلام، عادل، جغرافية سوريا الإقليمية، ٦٤٦/١-٦٤٧.

(٢) النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب، ٢٥٧/٨-٢٦٠؛ السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ١٢٧.

(٣) زعرور، إبراهيم، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، ٢٣٤.

(٤) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ٣٤.

- الثروة الحيوانية:

تكثر المراعي في فلسطين بعامة، وفي جنوبها بخاصة، والتي تقع بيت لحم ضمنها، حيث هناك مساحات شاسعة من الأراضي الغنية بالأعشاب الصالحة للرعي^(١)، وقد اهتم الفلاح الفلسطيني بالإبل والبقر، والبالغ، والحمير، والغنم، إضافة إلى الطيور، والدجاج، والإوز، والحمام^(٢)، حيث كانت تشكل مصدراً غذائياً لهم، وذكرت بعض المصادر أن اقتناء الخيول كان قليلاً لدى الفلاح؛ حيث لم يكن يركبها سوى الأمراء، والفرسان^(٣)، وربما دل ذلك على فقر الطبقة العاملة، وعدم قدرتها على اقتناء الخيول؛ لارتفاع أسعارها، أو ربما دل على أن اقتناءها كان حكراً على الأمراء، والفرسان؛ لعلو مرتبتهم.

وتجدر الإشارة إلى أن الأراضي غير المزروعة، عدت مشاعاً للرعيان، أي يحق لكل راع أن يغذي ماشيته فيها^(٤)، واستغلت الخرب^(٥) التابعة للقرى كأراضٍ للمراعي، وبالتالي أسهمت في تزويد السكان باللحوم، وزيادة الثروة الحيوانية.^(٦)

(١) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٤١٦/٢

(٢) القلقشندي، صبح الأعشا في صناعة الإنشا، ٨٨/٤

(٣) شاكر، مصطفى، فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي، ٤٧٨

(٤) بولياك، أن، الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ٦١

(٥) الخرب: مفردا خربة، وهو مكان لا عمران فيه، غير عامر، خالٍ وخاو. ابن منظور، لسان العرب، مادة (خَرَب).

(٦) البيشاوي، سعيد، الأراضي الزراعية ومنتجاتها في الخليل في العصر الفرنجي، ١١٥

٢) الصناعة:

مارس أهل فلسطين بشكل عام، وأهالي بيت لحم بشكل خاص، عدة صناعات وحرف يدوية في الفترة الأيوبية، وانتشرت الصناعات في أغلب المدن الكبرى كالقدس، ونابلس، والخليل، وارتبطت الصناعة بالزراعة لاعتماد بعض الصناعات على المحاصيل الزراعية، وارتبطت كذلك بالتجارة وطرقها من حيث توافرها أو عدمه.

وقد اشتهرت الصناعات المرتبطة بشجرة الزيتون في أغلب القرى، والمدن الفلسطينية، كصناعة استخراج زيت الزيتون، وهي من أهم الأنشطة الاقتصادية التي شهدتها تلك الفترة، وكانت هذه الصناعة متطورة قبيل الغزو الفرنجي (الصليبي)، وانتشرت صناعة استخراج الزيت في معظم القرى التي تكثر فيها أشجار الزيتون^(١)، وبالتالي فقد وجدت هذه الصناعة في بيت لحم؛ لأنها تشتهر بزراعة أشجار الزيتون. وتعتمد هذه الصناعة على قطف ثمار الزيتون من قبل الفلاحين، وذلك بضرب الأشجار بالعصي، ثم يرسل المحصول إلى المعاصر، التي تدار بوساطة الحيوان، والحجر، ويشرف على عملية العصر المعصراني^(٢)، ثم يأتي الفلاحون ويستلمون الزيت خالصاً، وتكلفة عصره تكون بذوره، فيقوم صاحب المعصرة ببيعه لأصحاب المخابز؛ ليوقدوا به، ويصفى هذا البذر بعد الهرس ويسمى "بالجفت"^(٣)، ولقد كان لوفرة أشجار الزيتون في فلسطين، وكثرة المعاصر التي كانت قائمة في القرى، أثر كبير في تطور هذه الصناعة. كما

(١) اعبيد، وائل، القدس في العهدين الفاطمي والأيوبي، ٢٠٩.

(٢) المعصراني: وهو من يمتلك المعصرة التي يعصر بها الزيتون ويشرف على عملها، ومعاصر الزيتون هذه كان يرجع استعمالها إلى عصور سابقة على العصور الوسطى، وكان يستفيد صاحب المعصرة -أيضاً- من بيع بذور الزيتون المهروس لأصحاب المخابز ليوقدونه في مخابزهم. ينظر: اعبيد، وائل، القدس في العهدين الفاطمي والأيوبي، ٢١٠.

(٣) الجفت: عبارة عن المخلفات المتبقية بعد عصر ثمار الزيتون، حيث تتكون من بذور الزيتون المطحونة، وبقايا اللب وقشرة الثمار والألياف. ينظر: شديفات، صالح، وآخرون، جفت الزيتون، ٣.

وارتبطت بأشجار الزيتون صناعة أخرى ألا وهي صناعة المشغولات ذات الطابع الديني، والتي كانت تُصنع من خشب الزيتون، وهناك مشغولات صنعت -أيضاً- من الصدف، والشمع، والخزف^(١)، والذهب، والفضة وكلها كانت تحمل الطابع الديني، وبيعت هذه المشغولات في المناطق القريبة من الأماكن المقدسة كالكنائس، والأديرة، والتي هي بالأصل مقصد الحجاج^(٢).

كما ارتبطت ببيت لحم صناعة النبيذ؛ لكثرة أشجار العنب فيها، بالإضافة؛ إلى أن غالبية سكانها من النصارى، وقد حصلت الكنائس ككنيسة المهد، وبعض الأديرة، على أراضٍ مليئة بأشجار العنب^(٣) واشتهرت المناطق الغربية من بيت لحم بصناعة النبيذ الممتاز، والذي تفردت به عن أي مكان آخر، حيث امتاز بجودته العالية، ومثال على ذلك: قرية بيزك، التي أشار إليها الرحالة بورشارد (Burchard) بأن فيها أجود أنواع العنب، وأن سكانها جميعهم مسيحيون شرقيون، واشتهروا بصناعة النبيذ الممتاز، بالإضافة؛ إلى تضمنهم لأشجار العنب المزروعة في القرى المجاورة لأراضيهم^(٤). واشتهرت هذه الصناعة بالفترة الفرنجية لكنها -أيضاً- استمرت في الفترة الأيوبية، فكان لأشجار العنب لدى أهالي بيت لحم أهمية وعناية خاصة

(١) اعبيد، وائل، القدس في العهدين الفاطمي والأيوبي، ٢١٢-٢١٣.

(٢) نفسه، ٢١٢-٢١٣.

(٣) التراث الشعبي الفلسطيني في محافظة بيت لحم، ١٦٥.

(٤) بورشارد، وصف الأراضي المقدسة، ١٦٥.

(١)، فقد اهتم بهذه الصناعة المؤسسات الكنسية؛ وذلك لإقامة الشعائر الدينية، بالإضافة لاستهلاك السكان اليومي، ويقال إن الملك العادل أبا صلاح الدين الأيوبي قد أبطل في عهده ضمان الخمر والقيان (٢). (٣)

أما بالنسبة لحرفة الصباغة فقد احتكرها اليهود، كما قال بنيامين التطيلي (Benjamin of Tudela)، حيث وُجد في بيت لحم اثنا عشر يهودياً جميعهم صباغون، ويقال:

"إنَّ اليهودي ولو كان وحيداً في بلد، فإنه يشتغل في هذه الصنعة". (٤)

كل هذه الصناعات لعبت دوراً مهماً في إحلال الفائدة السياحية لبيت لحم؛ حيث زادت من توافد الحجاج إليها من شتى بقاع الأرض؛ وذلك لمكانتها الدينية، ولوجود الأماكن المقدسة للمسيحيين.

(١) بورشارد، وصف الأراضي المقدسة ، ١٥٦.

Ostrogorsky G. **The Byzantine state**, 347.

(٢) القيان: والقَيُّنُ هو العبد وجمعها قَيان. ابن منظور، لسان العرب، (مادة قَيان).

(٣) ابن منقذ، أسامة، الاعتبار، ٧٤؛ المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١/١٨٤؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ١٢٠.

(٤) التطيلي، بنيامين، رحلة بنيامين التطيلي، ٩٩-١٠٤.

٣ التجارة:

ارتبطت التجارة في بيت لحم ارتباطاً وثيقاً بالقدس؛ لأنها المركز الرئيس لما حولها من قرى واقتصرت التجارة على المواد الغذائية، ومواد البناء، والحاجيات الضرورية التي لا غنى عنها، وكانت القدس تستورد هذه المواد من الخارج وتصدرها لما حولها من المدن والقرى التابعة لها كبيت لحم^(١)، وتجدر الإشارة إلى أن بيت لحم رغم ارتباطها بالقدس كانت في عام (٦٢٢هـ/٢٢٥م) مزدهرة ولها سوق وبازار. ^(٢)

أما بالنسبة للطرق التجارية في فلسطين، فكانت هناك طرق ذات أهمية؛ كونها تشكل طرقاً رئيسية دائمة لا غنى عنها، وأخرى أقل أهمية؛ لأنها طرق فرعية، وأخيراً كان هناك طرق استثنائية، يمكن استخدامها في أحوال نادرة وفق ما تقتضيه المصلحة. ^(٣)

وكانت بيت لحم من الطرق الرئيسية الداخلية التي تربط بين المدن، ومن هذه الطرق، الطريق الموصل بين نابلس والخليل، ويمر هذا الطريق بكل من: نابلس، وسنجل^(٤)، والقدس، وبيت لحم، والخليل. ^(٥)

(١) اعبيد، وائل، القدس في العهدين الفاطمي والأيوبي، ٢١٣-٢١٤.

(٢) بنورة، توما، تاريخ بيت لحم بيت جالا بيت ساحور، ٤٨.

(٣) العناتي، جاسر، فتح صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس بين السياسة والحرب، ٥٤.

(٤) سنجل: بلدة عند جب يوسف وهي الآن بين نابلس ورام الله. ينظر: الهروي، أبو بكر، الإشارات إلى معرفة الزيارات، ٢٤؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٢٦٤/٣.

(٥) الهروي، أبو بكر، الإشارات إلى معرفة الزيارات، ٢٤-٢٩.

وهناك طريق آخر يربط مدينة القدس وبيت لحم بالساحل فكان يمتد من عسقلان - بيت جبرين - ثغر عسقلان - غزة - مدينة قيسارية - بينا^(١) - مدينة الرملة - عمواس^(٢) - القدس^(٣).

وقد وجدت في مدينة القدس وقراها عدة أسواق، وكانت هذه الأسواق غنية بالبضائع، والحبوب والفواكه المجلوبة من مختلف المناطق الشامية، كما أنها لا تخلو من سلع معينة جلبت واستوردت من الشرق الأقصى^(٤).

أما بالنسبة للفواكه والخضراوات فكان ما لديها يكفيها، حيث يأتيها من المزارع، والقرى المجاورة وربما كان ذلك ينطبق على بيت لحم على اعتبار أنها تتبع إقليم بيت المقدس أولاً، وتشتهر بعدد من الزراعات والمحاصيل، ثانياً - كما ذكرنا سابقاً -.

وكانت بيت لحم والقدس تصدران المسابح، والصلبان المصنوعة من الخشب، والملابس المطرزة إلى الخارج^(٥)، وتجدر الإشارة إلى أن القدس كونها ذات مكانة دينية كبيرة، فنشطت التجارة بها، حيث المخازن تتبع الأقمشة، والألبسة، والمواد الغذائية، ومواد البناء، وجميع ما يلزم من حاجيات، وكماليات، وبعض

(١) يُبَيَّن: بليد قرب الرملة فيها قبر صحابي بعضهم يقول هو قبر أبي هريرة، وبعضهم يقول قبر عبد الله بن أبي سرح. ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٤٢٨/٥.

(٢) عمواس: قرية عربية تقع جنوب شرق الرملة. ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ١٥٤/٤.

(٣) الهروي، أبو بكر، الإشارات إلى معرفة الزيارات، ٣٢-٣٤.

(٤) الإمام، رشاد، مدينة القدس في العصر الوسيط، ١٤٨.

(٥) اعبيد، وائل، القدس في العهدين الفاطمي والأيوبي، ٢١٥.

الآلات، وتشتري من القدس كل الأفضية المحيطة بها كبيت لحم، وأريحا، ورام الله، والخليل، لذا فإن معظم

تجارة لواء القدس يُشغل قسماً كبيراً من سكانها. (١)

(١) ياغي، إسماعيل، تاريخ مدينة القدس، ٨.

بيت لحم في فترة حكم السلطان صلاح الدين الأيوبي:

- بيت لحم بين الاحتلال الفرنجي (الصليبي) والفتح الأيوبي:

استطاع الصليبيون السيطرة على سواحل بلاد الشام، واتجهوا نحو الرملة، ومنها إلى القدس في (١٤ رجب ٤٩٢هـ / ٦ حزيران ١٠٩٩م) ^(١)، وفي طريقهم نحوها التقوا ببعض المسيحيين الوافدين من بيت لحم الذين استحثوا الفرنجة (الصليبيين) على الإسراع إلى بيت المقدس؛ لخوفهم من الفاطميين الذين كانوا يتوعدون المسيحيين، ويتأهبون للثأر منهم ^(٢)، فأرسلت فرقة من الفرسان بقيادة تانكرد (Tancred) ^(٣) لبيت لحم، فاستقبلهم المسيحيون على اختلاف مذاهبهم استقبالاً حافلاً، ظانين أن ساعة الخلاص قد حلت، كونهم يتشاركون بنفس الديانة. ^(٤)

انطلق تانكرد (Tancred) من بيت لحم لملاقاة بقية الجيش الفرنجي (الصليبي) الذي وصل إلى أسوار القدس في (١٥ رجب ٤٩٢هـ / ١٧ حزيران ١٠٩٩م) ^(٥)، استمر حصارهم لها نيفاً وأربعين يوماً ^(٦)، حيث

^(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٠ / ٢٨٣. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ٩٠.

^(٢) Ibid, 292

^(٣) تانكرد (Tancred) : هو أحد الأمراء النورمان القادمين من إيطاليا، ينتمي لعائلة عريقة، وكان جندياً على درجة كبيرة من الكفاءة والشجاعة. للمزيد ينظر: البيشاوي، سعيد، نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عصر الحروب الصليبية، ٦٦؛ الصوافي، طالب، القلاع في شمال فلسطين في فترة الصراع الفرنجي الإسلامي، ٢١؛ نعيقات، أسامة، اقطاعية بيسان ودورها في الصراع الإسلامي الفرنجي، ٢٧.

^(٤) عاشور، سعيد، الحركة الصليبية، ٢ / ٩٦٧.

^(٥) الصوري، وليم، الحروب الصليبية، ١ / ٣١٨.

^(٦) مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ١١٤.

استطاعوا اقتحامها في (٢٣ شعبان ٤٩٢هـ / ١٥ تموز ١٠٩٩م)^(١) وقد أحدث الفرنجة (الصليبيون) بداخلها مذبحة وحشية رهيبة " حتى أن جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين " ^(٢) ، أما وليم الصوري (William of Tyre) فذكر أنه قتل في داخل ساحة المسجد وحدها عشرة آلاف، بالإضافة إلى أن القتلى الذين تناثرت جثثهم في الأزقة، والطرقات لم يكونوا أقل عدداً ممن نكرناهم " ^(٣) .وبعد هذه المذبحة تم فتح الباب على مصراعيه في المدينة المقدسة أمام المستوطنين الصليبيين للاستقرار، والتملك وبسط سيطرتهم عليها. ^(٤)

وقد أدى الاستيلاء الفرنجي(الصليبي) على بيت المقدس؛ إلى تجزئة فلسطين من بحرهما إلى نهريها لقطاعات مسيحية متفرقة خاضعة لمملكة بيت المقدس اللاتينية، والتي جعلت القدس عاصمة لها^(٥) ، وتوج بولدوين الأول(Baldwin I)^(٦) عام (٤٩٣هـ / ١١٠٠م) ملكاً على هذه المملكة ^(٧) وتم ذلك في كنيسة العذراء في مدينة بيت لحم، حيث وضع البطريك دايمبرت البيزي (Daimbert of Pisa)^(٨) التاج على

(١) الأصفهاني، عماد الدين، الفتح القسي في الفتح القديسي، ١٩.

(٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ١٩٧.

(٣) الحروب الصليبية، ١٢٧/٢.

(٤) بيشاوي، سعيد، الاستيطان الفرنجي في بيت المقدس والمناطق المحيطة ، ٢٩.

(٥) أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، ٢ / ٦٣٧؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٢ / ٢٧٥.

Shaefer, Karl, **Jerusalem in the Ayyubid and Mamluk Eras**, 122-127.

(٦) بلدوين الأول (Baldwin I) : كان رجلاً عملاقاً باستخدام السلاح، وكان حاكماً ناجحاً لإمارة الرها، وتولى -أيضاً- حكم

مملكة بيت المقدس، توفي في الثاني من نيسان (١١١٨م). Fulcher of Chartres, **A History**, 136-137.

(٧) حامد، موسى، الهوس البريطاني بفلسطين والقدس، ٨١.

(٨) دايمبرت البيزي (Daimbert of Pisa) : كان رئيس أساقفة بيزا، ثم اختير بطريكاً على بيت المقدس عام (٤٩٢هـ /

١٠٩٩م) وقد كان يسعى لهذا المنصب من أجل جمع المال أكثر من اهتمامه بشؤون الكنيسة. للمزيد ينظر، البيشاوي، سعيد،

الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية ، ١١٠.

Albert d'Aix , **Historia Hierosolymitana**, 511-512

رأس بلدوين الأول (Baldwin I) ليكون بذلك أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية^(١)، أما بالنسبة لبيت لحم فقد غدت مقاطعة دينية، من الإقطاعات الكنسية الواقعة ضمن مملكة بيت المقدس عام (٥٠٤هـ/١١٠م)^(٢)، وأعيد ترميمها من قبل الفرنجة (الصليبيين)، ورفعت كنيسة المهد إلى منزلة كاتدرائية بعد أن كانت حتى ذلك الوقت مجرد دير صغير^(٣)، وأضافوا لها ديراً على الطراز القوطي^(٤)،^(٥). ثم تقلب تقلب عدة ملوك على عرش مملكة بيت المقدس الفرنجية (الصليبية) إلى أن ظهر السلطان صلاح الدين الأيوبي وحررها من أيديهم.^(٦)

وقد بدأت المحاولات الأولى للمسلمين لمحاربة الفرنجة (الصليبيين) في عهد عماد الدين زنكي^(٧)، وسار من بعده ابنه نور الدين محمود زنكي على نهجه، فبدأ محاولاته لتحرير بيت المقدس، وقد شكلت غاراته خطراً على الفرنجة (الصليبيين)، إلا أن الأجل وافاه عام (٥٤١هـ/١١٤٦م) قبل أن يحررها.^(٨)

(١) Setton , **A History Of The Crusades** , 1/382.

(٢) الصوري، وليم، الحروب الصليبية، ٥٣٧/١.

(٣) نفسه، ٥٣٦/١.

(٤) الطراز القوطي: هو طراز ظهر في فترة العصور الوسطى في أوروبا الغربية، انبثق من الطراز الروماني الذي هو وليد الطراز اللاتيني والطراز البيزنطي، تميز هذا الطراز بالارتفاع والضوء، اللذين أمكن التوصل إليهما من خلال خليط من الإنشاءات الهيكلية والزيادة المستمرة في النوافذ، ولم تعد الجدران ضرورية لدعم السقف حيث أمكن استبدالها بالنوافذ الضخمة ذات الزجاج الملون، وكثر هذا الطراز بالكاتدرائيات. ينظر: لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ٥٩٣.

(٥) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ٢٢٣؛ مجموعة من العلماء والباحثين، الموسوعة العربية الميسرة، ٦٧٩/٥.

Conder .C, **The Latin kingdom of Jerusalem 1099– 1291**, 253.

(٦) أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، ٨٩/٢-٩٠.

(٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩٨/١١؛ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ٢٠٦؛ ابن قاضي شهبه، بدر الدين، الكواكب

الكواكب الدرية في السيرة النورية، ٩٧.

(٨) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٣٣١ / ٨.

فانتقلت المهمة إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي، الذي كان يرى أن من واجبه إعادة بناء الوحدة الإسلامية؛ نتيجة لتفككها بعد وفاة نور الدين زنكي، فتوجه إلى بلاد الشام لتوحيدها، تاركاً مصر بيد أخيه العادل^(١)، وتمكن من إقامة الوحدة بين مصر، وبلاد الشام، والجزيرة الفراتية، وسعى بعدها لضرب المعادل الصليبية، إلا أنه لم يرد أن ينتهك الهدنة المعقودة^(٢) بينه وبين الفرنجة (الصليبيين)، فكان لزاماً عليه أن يبقى منتظراً لحين تهيئة الظروف المناسبة، لكنه لم ينتظر طويلاً، حيث قام أمير الكرك أرناط ويعرف رينالد دي شاتيون (Renaud de Châtion)^(٣) عام (١١٨٧/٥٨٣م) بنقض الهدنة المبرمة بين الطرفين، وأغار على قافلة تجارية قادمة من مصر، وسلب أموالها، وأسر رجال^(٤).

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١١/٤١٦؛ ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ٥٠؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ٨/٣٢٤؛ ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ٣/١٠-١٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢/٣٠٨؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١/٦١.

Michoud. J, *Histoire des croisades*, 2/ 80.

(٢) كانت الهدنة معقودة بين صلاح الدين الأيوبي والملك بلدوين الرابع (Baldwin IV) منذ (١١٨٠/٥٧٥م) ومن شروطها حرية التجارة للمسلمين والمسيحيين وحرية اجتياز أي من الطرفين بلاد الطرف الآخر. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١١/٣٤٨؛ أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، ٢/٧٥.

(٣) رينالد شاتلون (أرناط): ينتمي لعائلة شاتون الفرنسية التي كان لها دور بارز في الحملات الصليبية، وهو صاحب الكرك، الكرك، اشتهر بغدره وخيانتته، وقام بغزو الأماكن المقدسة في الحجاز، غير أن حملته باءت بالفشل وتم القضاء على قواته بأكملها. للمزيد ينظر: المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١/٨٧؛ رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ٢/٧٠٦-٧٠٨.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١١/٣٤٨؛ ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ٧٤-٧٥؛ ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ٣/٩٦؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ٨/٣٩٤؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ٣/٧١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢/٣٣٧؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٥/٣٠٥؛ العلمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ١/٣١٣.

بدأ صلاح الدين الأيوبي يستعد للقيام بعمل عسكري، وأعلن الجهاد، وأكمل استعداداته وخرج من دمشق في (محرم ٥٨٣هـ / آذار ١١٨٧م)، فهاجم الكرك، والشوبك، وصفورية^(١)، وطبريا، ثم سار بقواته لحطين^(٢)، وهنا حدثت "معركة حطين" بين المسلمين والقوات الفرنجية (الصليبية)، بتاريخ (٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣هـ / ٤ تموز ١١٨٧م)، وهُزم الفرنجة (الصليبيون) شر هزيمة.^(٣)

تحرك صلاح الدين الأيوبي بجيشه من الخليل وبيت لحم إلى القدس، حتى وصل في (١٥ رجب/ ٢٠ أيلول)، ولقد أراد صلاح الدين الأيوبي أن يتسلم القدس دون أن يمسه بسوء أو أذى، واختار دخولها صلحاً؛ حتى لا ينتهك حرمة مقدساتها، بالإضافة؛ إلى خوفه من أن يهدم أبنيتها من قوة جيشه، إلا أن الفرنجة (الصليبيين) رفضوا، فما كان منه إلا أن لجأ إلى طرق المقاومة والحرب^(٤)، فأقام عليها حصاراً في العشرين من نفس الشهر سنة (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)، ولم يمضِ أسبوع واحد حتى استسلمت القدس، وعقد الصلح^(٥)، واتفق على أن تسلم مدينة القدس إلى السلطان، وأن يدفع كل من بالمدينة من الرجال عشرة دنائير، وعلى كل امرأة فيها خمسة دنائير، وعلى كل طفل من الجنسين دينارين^(٦). من دفعها خرج من

(١) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ٣/٩٢؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٥/٣٠٥؛ العليمي، مجير الدين، الأُنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ١/٣١٩.

(٢) حطين: قرية بين أرسوف وقيسارية. ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٢/٢٧٣.

(٣) الأصفهاني، عماد الدين، الفتح القسي بالفتح القدسي، ٨٠؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١١/٣٥٣؛ ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ٧٨-٧٩.

Ostrogorsky, A History of the Crusades 361; Stevenson. W, the crusaders in the East, 264.

(٤) علوان، عبد الله، صلاح الدين الأيوبي، ٥٠-٥١؛ أبو الحجاج، يوسف، القائد صلاح الدين الأيوبي ، ٧٥.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢/٣٤٤؛ علوان، عبد الله، صلاح الدين الأيوبي، ٥٠-٥١؛ أبو الحجاج، يوسف، القائد صلاح الدين الأيوبي ٧٥.

(٦) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ٨٢؛ ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ٨/٣٩٧؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٢/١٨٧؛ دريد نوري، سياسة صلاح الدين، ٣٠٨.

المدينة إلى حيث يريد، ومن لم يدفع في غضون أربعين يوماً صار رقيقاً^(١)، وكان الشرط أن يخرجوا بجميع ممتلكاتهم، فأخذوا معهم كنوز الكنائس^(٢). وقد سَير صلاح الدين الأيوبي الفرنجة (الصليبيين) برفقة حرس إسلامي حتى أوصلهم إلى مدينة صور^(٣)، وكان دخول السلطان للقدس في يوم الجمعة (٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ / ٢ تشرين الأول ١١٨٧م)^(٤).

بيت لحم في معاهدة صلح الرملة:

تمت معاهدة صلح الرملة بين كل من السلطان صلاح الدين الأيوبي والملك ريتشارد قلب الأسد (Richard the Lionheart) ، وكانت بيت لحم جزءاً من هذه المعاهدة، وبلغت مدتها ثلاث سنوات، وثلاثة أشهر، وثلاثة أيام، اعتباراً من (٢٢ شعبان ٥٨٨هـ / ٣ أيلول ١١٩٢م)^(٥). وقد عُقدت هذه المعاهدة وفق أسباب وظروف معينة^(٦)، حيث عانى صلاح الدين الأيوبي من أزمات داخلية، بالإضافة؛ إلى أن الحملة

(١) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ١٢٧؛ البنداري، سنا البرق الشامي، ٣١١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩٤٩/١١؛ ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ٦٦-٦٧؛ أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، ٩٢-٩٥؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٢ / ٢١٤؛ ابن الوردي، تنمة المختصر في أخبار البشر، ١٤٧/٢.

(٢) أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٩٢/٢؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٢٢٦.

Michoud. J, *Histoire des croisades*, 80.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٢/٢١٦؛ دريد نوري، سياسة صلاح الدين، ٣٠٩.

(٤) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ١٢٨؛ ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ٦٦.

(٥) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٢/٤٠٣؛ أبو عون، عبد الرحمن، اقطاعية حيفا ودورها في الصراع الإسلامي الفرنجي، ١٢٧.

(٦) رفض صلاح الدين الأيوبي عقد هدنة مع الفرنجة (الصليبيين) إلا أن مستشاروه أجمعوا على ضرورة القبول بهذه الهدنة، بحجة خراب البلاد، وتعب الأجناد والرعية، وقلة الأقوات، ولأن الفرنجة (الصليبيين) إذا لم تحدث هدنة أصروا على البقاء والقتال، أما إن حدثت فسيعود للبلاد سكانها وعمارها، وتستريح الأجناد زقوى وتستعد للحرب، وكان رأيهم أن الفرنجة لا يفون =

الصليبية الثالثة كانت على الأبواب، أما الجيش الفرنجي (الصليبي) فكانت خلافاته كبيرة ومعقدة^(١). وبذلك حتمت ظروف كلا الطرفين بقبول هذه المعاهدة.

وقد نصت هذه المعاهدة على ما يأتي:

أولاً: تكون المعاهدة عامة في البر والبحر، ومدتها ثلاث سنوات، وثلاثة أشهر، وثلاثة أسابيع^(٢)، أولها بتاريخ (٢١ شعبان ٥٨٨هـ / ٢٢ أيلول ١١٩٢م).^(٣)

ثانياً: أن يتخلى الفرنجة عن عسقلان، وغزة، والداروم (دير البلح)، بالمقابل يبقى الساحل لهم من صور إلى يافا، بما فيها قيسارية، وحيفا، وأرسوف.^(٤)

ثالثاً: إعطاء النصارى الحرية التامة في زيارة الأماكن المقدسة في القدس، والناصرية، وبيت لحم، دون أن يؤديوا ضرائب للمسلمين، ووجب التنبيه أن المسلمين بالأصل يكفلون لهم ذلك، أي أن الخلاف لم يكن حول

=بجهودهم، ولذلك نصحو صلاح الدين بقبول الهدنة حتى يتفرق الفرنج وينحلوا. ينظر: الأصفهاني، عماد الدين، **الفتح القسي في الفتح القديسي**، ٦٠٤-٦٠٥.

(١) أبو الحجاج، يوسف، **صلاح الدين الأيوبي**، ١٠٩.

(٢) ذكر الأصفهاني أن السلطان صلاح الدين الأيوبي وريتشارد قلب الأسد اتفقا على أن تكون الهدنة لمدة ثلاث سنوات وثمانية أشهر. ينظر: **الفتح القسي في الفتح القديسي**، ٦٠٥-٦٠٨.

Stevenson, **The Crusades in the East**, 286.

(٣) الأصفهاني، **الفتح القسي في الفتح القديسي**، ٦٠٥-٦٠٨؛ ابن واصل، **مفرح الكروب في أخبار بني أيوب**، ٤٠٣/٢.

Setton .K.M, **A history of the crusades** ,2/108.

(٤) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٢١٨/١٠؛ ابن شداد، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، ٢٣٠؛ أبو شامة المقدسي، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، ٢/٢٠٣؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٣٧٣/١٢؛ العيني، **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، ٢/٢٤٥؛ الحنبلي، **شفاء القلوب في مناقب بني أيوب**، ١٧٧؛ ٢٣٥؛ غانمة، يوسف، **معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج**، ٤١؛ مجهول، **الحروب الصليبية**، ٢/٢٦٥.

السماح للنصارى بالوصول إلى الأماكن المقدسة، إنما الخلاف حول السيادة على هذه الأماكن والتي كانت من صلاحية المسلمين. (١)

رابعاً: تكون اللد، والرملة مناصفة بين المسلمين و الفرنجة (الصليبيين). (٢)

خامساً: يدخل الإسماعيلية^(٣) في الصلح من الجانب الإسلامي، وأنطاكية وطرابلس من الجانب الفرنجي. (٤)

سادساً: تبقى القدس، وبيت لحم، والناصره بأيدي المسلمين، ويسمح لحجاج الفرنجة بزيارتها، مع بقاء كنيسة

القيامة في حوزة المسلمين، ويكون هناك ممر آمن للحجاج المسيحيين من أرسوف إلى يافا، ثم الرملة واللد

ومنها إلى بيت المقدس. وبالتالي، وطبقاً لهذه الاتفاقية فقد سُمح للفرنجة (الصليبيين) المقيمين بفلسطين

بحرية التنقل إلى الناصرة، وبيت المقدس، وبيت لحم بأمان ودون تعرض لهم. (٥)

(١) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ٦٠٥-٦٠٨؛ أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢/٢٠٣؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٢/٤٠٣؛ المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١/١١٠؛ الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ١٧٧.

Ernnoul, *Le Chronique d'Ernoul et de Bernard Le Tresirier*, 292 ; Stevenson, *The Crusades in the East*, 286 ; Mayer, *The Crusades*, 146.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ٢/٤٠٢-٤٠٤.

(٣) الإسماعيلية: هي طائفة باطنية، انفصلت عن الشيعة الإمامية إثر خلاف حول الإمام، حيث تقول الإسماعيلية بإمامة إسماعيل ابن جعفر. ينظر: البغدادي، الفرق بين الفرق، ٢٦-٦٣؛ الشهرستاني، الممل والنحل، ١/١٧٠.

(٤) الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ٦٠٥-٦٠٨؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٠/٢١٨؛ ابن شداد، النوادر السلطانية في المحاسن اليوسفية، ٢٣٠-٢٣٥؛ أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢/٢٠٣؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٢/٤٠٢-٤٠٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٧٣/١٢.

(٥) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ٢٣٠-٢٣٥.

سابعاً: تتم هذه الاتفاقية بعد موافقة كل من ملوك وأمراء الطرفين ^(١)، وقد أمر صلاح الدين الأيوبي أن يذاع خبر الهدنة في معسكرات الجنود، وفي الأسواق؛ ليتنقل المسلمون والفرنجة (الصليبيون) في البلاد بحرية وسلام. ^(٢)

وهكذا فقد أعطت اتفاقية الرملة الحدود السياسية لفلسطين في الفترة الأيوبية، حيث قلصت هذه الاتفاقية حدود مملكة القدس اللاتينية التي يسيطر عليها الفرنجة (الصليبيون) إلى حد كبير، واقتصرت على الشريط الساحلي الممتد من مرفأ صور إلى مدينة يافا، أما فلسطين الأيوبية فشملت مناطق الجليل، وطبريا، ومرج ابن عامر، ونابلس، وجبال القدس، وبيت لحم والخليل، هذا إضافة إلى المناطق الساحلية الممتدة من يافا إلى العريش، وتشمل عسقلان، وغزة، والداروم (دير البلح) والرملة، واللد، وبيت جبرين، وصحراء النقب.

- التسامح الأيوبي مع الفرنجة والمسيحيين:

عندما انتصر صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)، وحرر بيت المقدس من قبضة الفرنجة (الصليبيين)، كانت بيت لحم ضمن المناطق المحررة، وتنفس مسيحيوها الصعداء لخلاصهم من ظلم الفرنجة (الصليبيين)، كما احترم صلاح الدين الأيوبي كنيسة المهد؛ باعتبارها مكاناً مقدساً، وحافظ عليها ^(٣)، وبذلك أجبرت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية بالترحيب بعودة الحكم الإسلامي إلى الأرض المقدسة، وذلك لما عُرف عنهم من تسامح، واحترام للأديان الأخرى، وقد قام الامبراطور البيزنطي إسحق أنجليوس

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ٣٧٨-٣١؛ أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ٧٥-٧٩؛ رانسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ١٤٠/٢-١٤١.

Conder .C, The Latin kingdom of Jerusalem 1099- 1291, 253

(٢) أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ٢٧٢/٢.

(٣) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ١٣٣-١٣٤.

(Issac Angelus) بإقامة تحالف مع المسلمين، حيث بعث تهنئة للسلطان صلاح الدين الأيوبي باستيلائه على القدس، وطلب تجديد التحالف ضد الفرنجة (الصلبيين)، وعودة رجال الدين الأرثوذكس المبعدين إلى الأماكن المقدسة. (١)

كما سمح صلاح الدين الأقباط، والأحباش، حقوقاً في كنيسة القيامة بالقدس، ومكاناً للصلاة في كنيسة الميلاد في بيت لحم قرب باب المغارة الشمالي، وأنشأ لهم غرفاً في الكنيسة. (٢)

كان التسامح الإسلامي الأيوبي مع الفرنجة والمسيحيين سمة من سمات هذه الفترة من التاريخ الإسلامي، ومن أشكال هذا التسامح أنه تم السماح للنصارى بزيارة كنيسة القيامة في القدس، والمهد في بيت لحم، وذلك بعد عقد صلح الرملة (٥٨٨هـ/١١٩٢م)، ومما جاء فيها، -كما ذكرنا سابقاً-، أن يكون للفرنجة، والحجاج النصارى حرية الحج إلى بيت المقدس دون دفع أي ضريبة، وقد أعلن صلاح الدين الأيوبي " أن الصلح قد تم، فمن شاء من بلادهم أن يدخل في بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل في بلادهم فليفعل" (٣). وفي هذا المجال فقد ذكر أبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م) أن الحجاج النصارى أقبلوا على بيت المقدس، وما حولها من مناطق مقدسة كبيت لحم، والخليل، فنشطت التجارة بشكل واسع، وفتح السلطان صلاح الدين الأيوبي الباب واسعاً للحجاج، بل وأرسل معهم الخفراء يحفظونهم حتى يافأ، وسمح -أيضاً- بتعيين اثنين من رجال الدين الكاثوليك في كل من : كنيسة القيامة، وكنيسة المهد ببيت

(١) البنداري، سنا البرق الشامي، ٣٠٣؛ أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين، ٢/ ٨٩؛ ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٢/ ٢٠٣؛ بلدوين، اضمحلال، ٢٨٠-٢٨١؛ توما، بنورة، تاريخ بيت لحم بيت جالا بيت ساحور، ٤٨، رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ٥٦/٢.

(٢) توما، بنورة، تاريخ بيت لحم بيت جالا بيت ساحور ، ٤٨.

(٣) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١١٠.

لحم، وكنيسة البشارة بالناصرية، إلى جانب ما كان في تلك الكنائس من رجال الدين الأرثوذكس^(١) والسريان واليعاقبة.^(٢)

أظهر صلاح الدين الأيوبي أخلاق الإسلام وتسامحه، وذلك بعد أن انتصر نصره الحاسم على الفرنجة (الصليبيين)، حيث أكرم رجال الدين المسيحي، وأعطى بطريك القدس كل أمواله، وأموال الكنائس، وذخائرها بل وسمح للنصارى بالقدس، والمناطق المجاورة لها، بالبقاء ضمن رعايا الدولة.^(٣)

إلا أن بعض المراجع ترى أن ظلماً مورس على المسيحيين، حيث إن جميع المؤسسات المسيحية والكنائس، أصبحت ملكاً للدولة بعد دخول السلطان صلاح الدين الأيوبي للقدس، فمنعت الجاليات اللاتينية الكاثوليكية، وكذلك اليونانية البيزنطية من أداء المراسم الدينية، بينما سمح لجاليات مسيحية شرقية أخرى القيام بذلك، بعد دفع جزية كبيرة، وذلك حسب ما ورد في المراجع المسيحية.^(٤) ويبدو أن سياسة التسامح التي قام بها صلاح الدين الأيوبي بعد تحريره لبيت المقدس تنفي وبشكل قاطع أن صلاح الدين الأيوبي قد قام بأي عمل ينافي تعاليم الشريعة الإسلامية التي تحترم الديانات السماوية.

(١) المذهب الأرثوذكسي: هو أحد المذاهب الرئيسية الثلاثة في النصرانية، وقد انفصل هذا المذهب عن الكنيسة الكاثوليكية سنة (٤٤٥هـ/١٠٥٤م)، ولا يعترف أتباع هذا المذهب ببابا روما، ويختلفون -أيضاً- عن الكاثوليك في بعض الأمور المقدسة. الجهنني، مانع، الموسوعة الميسرة، ٥٨٣/٢.

(٢) أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ٢٩٣؛ غوانمة، يوسف، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنجة، ٤٣.

Ostrongrsky. K , A History of the Crusades, 360.

(٣) الشيال، جمال الدين، تاريخ مصر الإسلامية، العصران الأيوبي والمملوكي، ٥١.

(٤) بيت لحم، ٤٤-٤٥.

بيت لحم في عهد الملك الكامل الأيوبي:

- صلح يافا (٦٢٦هـ/١٢٢٩م):

اختلف ملوك بني أيوب وتفرقوا، فصاروا أحزاباً، وفرقاً، وآل أمرهم هذا إلى تسليم القدس الشريف إلى الفرنجة (الصليبيين)^(١)، فوقع الصلح بين الملك الكامل وفريدريك الثاني (Friedrich II von Staufen)^(٢) بتاريخ (٢٢ ربيع الأول ٦٢٦هـ / ١٨ شباط ١٢٢٩م)^(٣)، ومدته عشر سنوات^(٤) تقرر فيه ما يأتي:

أولاً: تكون الناصرة، وبيت لحم، واللد، والقرى الممتدة على طول الطريق بين القدس وعكا بيد الفرنجة، وهي عشر ضياع^(٥)، أما المناطق الإسلامية فتعود إلى الفرنجة، ويظل للمسلمين من بيت المقدس منطقة المسجد الأقصى أي التي تحوي قبة الصخرة، والمسجد الأقصى.^(٦)

ثانياً: للمسلمين حرية الذهاب إلى القدس، والمسجد الأقصى، وبالتالي حرية العبادة، على أن يبقى بيت المقدس على ما هو عليه من خراب، ولا يجدد سورها، ويكون الحرم الشريف (بما يحوي من المسجد

(١) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٥٠/٢٩-١٥١؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/١٣٣.

(٢) فريدريك الثاني (Friedrich II von Staufen): امبراطور الرومانية المقدسة خلال (٦١٦-٦٣٦هـ / ١٢٢٠-١٢٥٠م).

ينظر: رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ٣/١٩٨.

(٣) جقمان، حنا، جولة في تاريخ الأرض المقدسة من أقدم العصور حتى اليوم، ٢/١٣١.

(٤) العيني، عقد الجمان، ٤/٢٠٤.

(٥) القاسمي، خالد، العلاقات الخارجية في العصر الإسلامي، ١٢٠.

(٦) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٤/٢٤١-٢٤٢. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٩/٣٧٨؛ أبو الفداء،

المختصر في أخبار البشر، ٦/٤٠؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ٣/٤٢١؛ المقرئ، السلوك لمعرفة دول

الملوك، ١/٢٣٠. الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ٣١١.

الأقصى، وقبة الصخرة) بأيدي المسلمين، وشعارهم يكون واضحاً فيها، ولا يدخلها الفرنجة إلا للزيارة فقط وأن تكون سائر قرى القدس للمسلمين، لا حكم للفرنجة عليها.^(١)

ثالثاً: أن يكون أجل المعاهدة عشر سنوات بالتقويم الميلادي، أي عشر سنوات وخمسة أشهر بالتاريخ الهجري. ^(٢)

وتقررت الهدنة واستمرت الأوضاع السلمية قائمة حتى بعد وفاة الملك الكامل (٦٣٥هـ/١٢٣٧م)، ثم تولى ولده الملك العادل عام (٦٣٥هـ/١٢٣٧م) من بعده.^(٣)

- نقش الملك الكامل على باب كنيسة المهد :

ترك الملك الكامل أثراً له على باب كنيسة المهد - وهو باب صغير تضطر للانحناء للدخول من خلاله، وقد أطلق عليه باب التواضع - .^(٤) ويدل هذا النقش على مدى التسامح الديني الذي تحلى به الملك الكامل، حيث أنجز هذا النقش في الوقت الذي كان الملك الكامل يواجه جيوش الفرنجة (الصليبيين) على أرض مصر^(٥). ومن مظاهر التسامح الأخرى التي أظهرها الملك الكامل عندما حاور القديس فرنسيس

(١) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٤/٢٤١؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ٣/١٤١؛ العلمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ١/٤٠٦؛ الحريري، علي سيد، الأخبار السنوية في الحروب الصليبية، ٣٣٢؛ الدويهي، اسطفان، تاريخ الأزمنة، ١١١.

(٢) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١/٢٣٠؛ العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ١٨٨-١٩٠؛ عاشور، سعيد، الحركة الصليبية، ٢/٩٦٧؛ رنسيما، تاريخ الحروب الصليبية، ٣/٣٣١.

(٣) مجموعة من العلماء والباحثين، الموسوعة العربية الميسرة، ٥/٦٧٩.

(٤) العيسة، أسامة، نقش إسلامي على باب كنيسة المهد، ١٢.

(٥) الشوملي، قسطندي، كنيسة المهد والمعتقدات الشعبية والدينية المتعلقة بها، ٤٥.

الأسيزي (Francis of Assisi)^(١) وفق ظرف صعب؛ حيث قطع هذا القديس المسافة بين معسكر الجيش الفرنجي (الصليبي) في دمياط^(٢) إلى معسكر الملك الكامل^(٣)، وحصل بموجبه على فرمان من السلطان الكامل يخوله ورفاقه الرهبان بالتجول في فلسطين، وبالتالي زيارة الأماكن المقدسة بحرية، وبناء على ذلك وجدت الرهبانية الفرنسيسكانية^(٤) (حراسة الأراضي المقدسة)، وقد أعطى كل من الملك الكامل والأسيزي (Assisi) مثلاً على الحوار، والاتفاق، وسط صليل السيوف، ودعوات الكراهية والحرب، ويفخر الرهبان الفرنسيسكان بديرهم المحاذي لكنيسة المهد بأنهم يعملون بتلك الروح التي بثها فيهم الأسيزي (Assisi) .^(٥)

(١) فرنسيس الأسيزي (Francis of Assisi) : راهب إيطالي يعده النصارى من أكبر قديسيهم، تنسب له طائفة الرهبان الفرنسيسكان، وقد كانت مهمته التبشير للديانة المسيحية، حيث رافق الحملة الصليبية السادسة المتجهة لمصر عام (٦١٦هـ/١٢١٩م)، والتقى الملك الكامل الأيوبي ودعاه لاعتناق النصرانية. بكرى، حسن، الإسلام والمسيحية، ٨٧-٨٩؛ القاضي، أحمد، دعوة للتقريب بين الأديان، ٣٧٠.

(٢) دمياط: مدينة من سواحل ديار مصر، وكانت مدينة مسورة على البحر عند مصب النيل الشرقي، ثم خربت وبني بالقرب منها بليدة تسمى المنية. ينظر : ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ٨٢؛ اليعقوبي، البلدان، ٣٣٨؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ١٥٢؛ المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ٢٠١؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٤٧٢/٢-٤٧٥؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ١١٦؛ البغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٥٣٦/٢؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ٢٥٧؛ البروسوي، أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، ٣٣٢.

(٣) تم هذا اللقاء بين الملك الكامل الأيوبي وفرنسيس الأسيزي عام (٦١٦هـ/١٢١٩م)، ويقال إن فرنسيس عرض المسيحية عليه لكنه لم يستطع أن يقنع السلطان الكامل بالمسيحية فصرفه دون أن يؤذيه. الشوملي، قسطندي، تراث بيت لحم، ٤٥.

(٤) وقد كان قدوم فرنسيس الأسيزي للقدس بداية وجود الفرنسيسكان في الأراضي المقدسة، وأسسوا أديرة في معظم بلاد الشام، وقاموا ببعث الإرساليات التصيرية إلى شتى أنحاء المعمورة منذ تأسيسها في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي حتى يومنا هذا. القاضي، أحمد، دعوة للتقريب بين الأديان، ٣٧٠.

(٥) الشوملي، قسطندي، كنيسة المهد والمعتقدات الشعبية والدينية المتعلقة بها ، ٤٥

بيت لحم في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب:

لقد تخلل عهد هذا السلطان العديد من الحملات الصليبية، وربما تأثرت بيت لحم في الحملة الصليبية الإنجليزية دون غيرها.

كان الصليبيون بعد انتهاء صلح يافا (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) في بلاد الشام بلا حاكم، أو ملك، يرعى شؤونهم، أما بيت المقدس فقد ظلت مدينة مفتوحة، ليس لها من وسائل الدفاع ما يكفل صد أي عدوان عنها ضد أي محاولة تستهدف طرد الفرنجة (الصليبيين) منها. ^(١) وقد نقض الفرنجة (الصليبيون) لاحقاً الشروط المتفق عليها، بعدم تعمیر بيت المقدس وتحصينه، فاستغل بذلك السلطان الناصر داود (صاحب الكرك والأردن) الفرصة ليحرر بيت المقدس ^(٢)، وتم ذلك حيث هوجمت القدس، ودكت حصونها بالمنجنقات ^(٣)، كما تم تحرير بيت المقدس على يده سنة (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) بعد حصار دام واحداً وعشرين يوماً. ^(٤)

كان لهذا الفتح، أي فتح القدس، أثر على الصليبيين، فاجتمع زعمائهم، وأقروا ضرورة استرجاع القدس؛ مستغلين انقسام البيت الأيوبي، حيث إن وفاة الملك الكامل (٦٣٦هـ / ١٢٣٨م) كانت تنذر بتفكك آخر للدولة الأيوبية، حيث لم يستطع ابنه العادل الثاني وقف الانشقاق بين أبناء البيت الأيوبي، وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل قد استولى على دمشق سنة (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) فوق صراع بينه وبين

(١) غوانمة، يوسف، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، ٦٨.

(٢) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١/٣٩٩؛ عاشور، سعيد، الأيوبيون والمماليك، ١١٨-١١٩؛ صالح، محسن، الطريق إلى القدس، ١١٨.

(٣) ابن شداد الحلبي، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ٣/٢٥٥؛ المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١/٣٩٩.

(٤) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٢٩/١٤٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٦/٣٠٣.

أخيه العادل الثاني، ومما زاد من حدته نجاح الصالح إسماعيل عم العادل الثاني والصالح نجم الدين في استرداد دمشق، وطرد الصالح منها، وألقى الناصر داوود صاحب الأردن والكرك القبض على الصالح أيوب ثم أطلق سراحه، وتم الاتفاق فيما بينهم على القيام بحملة على مصر؛ لانتزاع مصر من العادل الثاني ونجح فيها، وأصبح سلطاناً على مصر عام (٦٢٨هـ/١٢٤٠م)، وغدا يفكر في الثأر من عمه الصالح إسماعيل.

(١)

استغل الفرنجة (الصليبيون) الخلاف بين الصالح إسماعيل في دمشق، وابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب، فاستعان الصالح إسماعيل بالفرنجة (الصليبيين) لمساعدته على الصالح نجم الدين أيوب والناصر داود، ووعد الفرنجة (الصليبيون) مقابل مساعدتهم له ببيت المقدس، وعسقلان، وقلعة الشقيف، ونهر الموجب وأعمالها، وقلعة صفد وبلادها، مما أدى إلى سخط المسلمين عليه، وهكذا عادت بيت المقدس إلى الفرنجة مرة أخرى. (٢)

حشد كل من الصالح إسماعيل والفرنجة (الصليبيين) جيوشهم عند غزة؛ لمواجهة الصالح نجم الدين أيوب في مصر، إلا أن الظروف لم تكن لصالح الفرنجة (الصليبيين) والصالح إسماعيل، فانسحبوا إلى عسقلان وعقدوا صلحاً مع الصالح نجم الدين أيوب عام (٦٣٨هـ/١٢٤٠م)، واعترف الصالح نجم الدين أيوب

(١) ابن العميد، أخبار الأيوبيين، ١٥١.

(٢) النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب ، ١٧٢/٢٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٣٠٦/٦.

بموجب الصلح بحق الفرنجة في ملكية الشقيف، ونهر الموجب أنون، وإقليم الجليل بما فيه تبنين^(١) وهونين^(٢)، وطبرية، والطور^(٣)، بالإضافة؛ إلى بيت المقدس، وبيت لحم، ومجدل يابا^(٤)، وعسقلان. ^(٥)

وفي عام (٦٤٢هـ / ١٢٤٤م) استعاد الصالح بيت المقدس وما حولها من مناطق ومنها بيت لحم. ^(٦)

وبذلك عادت بيت لحم للحكم الإسلامي مرة أخرى بعد أن كانت في مد وجزر بين الفرنجة والمسلمين.

(١) تبنين: بلد في جبال بني عامر، وهي حالياً إحدى القرى اللبنانية التابعة لقضاء بنت جبيل. ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ١٤/٢.

(٢) هونين: قرية فلسطينية تقع على بعد (٢٨ كم) شمال مدينة صفد. ينظر: الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٢٢٩/٦.

(٣) الطور: قرية تقع شرقي القدس، واسمها مشتق من اسم جبل تقوم عليه. ينظر: الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ١٢٧/٨.

(٤) مجدل يابا: قرية فلسطينية كانت تتبع للرملة. ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٥٧/٥؛ الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٥٥٢/٢.

(٥) الكتبي، الوافي بالوفيات، ٣٦/١٠؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٤٤/٥.

(٦) الشيال، جمال، تاريخ مصر الإسلامية، ٩٤/٢.

الفصل الثالث

بيت لحم في العهد المملوكي

تمهيد

التبعية السياسية والإدارية

الحياة الاجتماعية

السكان

- المسلمون

- المسيحيون

- اليهود

العادات الاجتماعية

- المعتقدات والعادات

- الملابس

- المظاهر العمرانية

- الأعياد والاحتفالات

- العلاقة بين المسيحيين النصارى والسلطة المملوكية في بيت لحم

الأحوال الاقتصادية في بيت لحم

- الإنتاج الزراعي

- الثروة الحيوانية

- الصناعة

- التجارة

- أوقاف بيت لحم في الفترة المملوكية

مواقف السلاطين المماليك تجاه كنيسة المهد

تمهيد:

المماليك لغة: كلمة مملوك في أصلها اللغوي مستخرجة من الفعل مَلَكَ وتعني الرقيق، الذي يُشترى؛ بقصد تربيته^(١)، والمملوك هو كل ما تعلق به الملك من حيوان أو غيره^(٢)، وهي على عكس لفظة العبيد، ومفرداها عبد، ومؤنثها جارية، التي استعملت في العصر الإسلامي الأول؛ وذلك لأن الإسلام بميوله الإنسانية كان يرفع شأن الرقيق، إذ لفظة العبيد تعني العبودية، والعبد يولد من الرقيق، بينما المملوك يولد من أبوين حرين ويباع، كما أنّ العبد قد يعني إنساناً أسود اللون، بينما المملوك أبيض البشرة.^(٣)

في لسان العرب المملوك هو العبد، بمعنى أنه الرقيق الذي يُباع ويُشترى، أو هو مَنْ سُبِيَ ولم يُمَلِّكْ أبواه، وهي اسم مفعول من الفعل مَلَكَ، واسم الفاعل مالك، والمملوك هو عبد مالكة.^(٤)

وأما المماليك اصطلاحاً: فهم أولئك الذين كان يطلق عليهم رقيقاً - وفي الغالب البيض منهم - وكانوا يُشترى من قبل الحكام من أسواق النخاسة^(٥) البيضاء؛ وذلك لتكوين الفرق العسكرية في أيام السلم ومن ثم إضافتهم إلى الجيش في أيام الحرب واستطاع هؤلاء المماليك حكم

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (مَلَكَ).؛ زناتي، أنور، معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، ٣٨٢.

(٢) الخفاجي، شهاب الدين، شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، ٢٢١.

(٣) أبو عطوي، سحر، المقامات في العصرين المملوكي والعثماني، ٢.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، مادة (مَلَكَ).؛ الزبيدي، الواسطي، تاج العروس من جواهر القاموس، ١٨١/٧؛ عاشور، سعيد، سعيد، العصر المماليكي في مصر والشام، ١.؛ حجة، شوكت، العلاقات بين دولة المماليك الأولى ودولة إيلخانية فارس، ٣٣.

(٥) أسواق النخاسة: هي أسواق وجدت قديماً يباع فيها الجوارى والعبيد والإماء، ويسمى بائع الرقيق نخاساً. ينظر: ابن منظور، منظور، لسان العرب، مادة (نَخَسَ).

مصر والشام ما يقارب ثلاثة قرون بين عامي (٦٤٨-٩٢٩هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م) ^(١) وكانوا خليطاً من الروم ^(٢) والشراكسة ^(٣) الأتراك. ^(٤)

وأول من استخدم المماليك الخليفة العباسي المأمون في أثناء فترة حكمه (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣ م) ، إذ احتوى بلاطه الملكي بعض المماليك المحررين من العبودية، إلا أن استخدامهم لأول مرة في فرقٍ عسكرية كان على يد الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤١م) ^(٥)، حيث كان يقتني أبناء هذا الجنس وهم صغار، ويجلبهم من سمرقند ^(٦) وفرغانة ^(١) والسند ^(٢) وأشروسنة ^(٣) والشاش ^(٤) وغيرها من

^(١) المنصوري، التحفة المملوكية في الدولة التركية، ٢٥؛ العسقلاني، شافع، الفضل المأثور من سيرة السلطان المنصور، ٢٥-٢٦.

^(٢) دولة المماليك الثانية الروم (المماليك البرجية) : كانوا يسكنون في قلعة الجبل، وتسميتهم بالبرجية تعود لأنهم سكنوا بأبراج هذه القلعة ، وأول ملوكها السلطان برقوق واستمر نفوذها من (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م) وهي الدولة الثانية من دولتي المماليك، وربما تختلف عن الأولى فقط في الجنس فهم من الجنس الجركسي، وليس بين دولتي المماليك اختلاف إلا أن الدولة البرجية نشطت فيها الثورات والفتن والمؤامرات، امتد نفوذها في بلاد الشام والحجاز، وأحياناً امتد نفوذها للمغرب والسودان وما وراء بلاد الشام نحو الشرق. ينظر: شلبي، محمود، حياة الملك الظاهر بيبرس، ٣٧؛ حجة، شوكت، العلاقات بين دولة المماليك الأولى ودولة إيلخانية فارس، ٤٠.

^(٣) الشراكسة: أطلقت على طائفة من المماليك قبل تأسيس دولتهم، وقد أسسوا دولة المماليك الأولى التركية (الشراكسة)، وحكمت نحو مائة وثلاثين سنة في الفترة بين (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م) ومؤسسها شجر الدر وقيل الصالح نجم الدين أيوب، أما سبب تسميتها بالبحرية؛ فكان نسبة إلى إقامتهم في بحر النيل بمصر في جزيرة الروضة، فعرفوا بالبحرية وبقي هذا الاسم ملازماً لهم بعد تأسيس الدولة، وقد وصل نفوذهم إلى شواطئ الفرات والجزيرة وما وراء، بل ووصل إلى بلاد المغرب. ينظر: المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١/٤٥٩؛ شلبي، محمود، حياة الملك الظاهر بيبرس، ٢٧-٢٨؛ حجة، شوكت، العلاقات بين دولة المماليك الأولى ودولة إيلخانية فارس، ٤٠.

^(٤) العبادي، أحمد، قيام دولة المماليك الأولى ، ١١-١٢.

^(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ١٠/٢٩٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٢/٢٣٣.

^(٦) سمرقند: يقال لها بالعربية سُمران، وهو بلد معروف مشهور، يقع على نحو مئة وخمسين ميلاً من شرق بخارى وتقوم على مسافة قصيرة من ضفة نهر الصُغد الجنوبية، تقع حالياً ضمن حدود دولة أوزبكستان. ينظر: يعقوبي، البلدان، ٢٩٣؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ٤٩٢؛ المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ٢٧٨؛ البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ٢/٧٥٤؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ١/٤٩٧؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٢٤٧.

وغيرها من أقاليم ما وراء النهر^(٥) وبلغت عدة ممالিকে بضعة عشر ألفاً^(٦)، ولعل السبب في ذلك أنه ضاق من نفوذ الفرس وأراد أن يقضي عليهم وعلى نفوذهم عن طريق هؤلاء الأتراك المماليك^(٧)، ومن ثم بدأ

البغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٧٣٦/٢؛ خطاب، محمود، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ٣٢-٣٣.

(١) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر (جيحون) متاخمة لبلاد تركستان، وهي مدينة أوزبكية. ينظر: اليعقوبي، البلدان، ٢٩٤؛ المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ٣٦٢؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٧٠٦/٢؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٢٥٣/٤؛ البغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ١٠٢٩/٣؛ ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ٥١؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ٤٤٠.

(٢) السند: بلاد تقع بين الهند وكرمان وسجستان، وهي ضمن حدود دولة باكستان اليوم. ينظر: المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ٤٧٤؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ١٦٧/١؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٢٦٧/٣، البغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٧٤٦/٢؛ ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ٧٦.

(٣) أشروسنة: تقع ببلاد ما وراء النهر شرق سمرقند، أما اليوم فهي مدينة آراتبة الواقعة ضمن حدود تركستان الروسية. ينظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ٢٩؛ اليعقوبي، البلدان، ٢٩٣؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ٥٠٣؛ المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ٢٦٥؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ١٩٧؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ٥٤/١؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ٤٩٦؛ البغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٧٢/١؛ ابن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ٥٠؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ٦٠؛ البروسوي، أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، ١٤٩؛ خطاب، محمود، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ٣٧-٣٨.

(٤) الشاش: وهي قرية تقع في ما وراء النهر ثم ما وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك، أهلها شافعيي المذهب، وهي أرض سهلة ليس بها جبل ولا أرض مرتفعة، وتعرف بالوقت الحالي بطشقند وهي عاصمة دولة أوزبكستان. ينظر: اليعقوبي، البلدان، ٢٩٤؛ المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ٢٦٤؛ البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ٧٧٥/٢؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٧٠٢/٢؛ الحازمي، الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة، ٥٧٢/١؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٣٠٨/٣؛ البغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٧٧٤/٢.

(٥) إقليم ما وراء النهر: سمى العرب هذا الإقليم بهذا الاسم؛ كون النهر (أي نهر جيحون) يعد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والتركية، أي إيران وتوران، ويعرف اليوم بآسيا الوسطى، ويقسم إلى خمسة أقاليم. ينظر: خطاب، محمود، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ٢٩.

(٦) محيي الدين، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ٣؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٢/٢٣٣؛ السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ٢٢٢؛ القرماني، أحمد، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ١٥٧.

(٧) حسين، حمدي، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ١٥٥.

استخدام المماليك في الجيش من قبل ولاية مصر من الطولونيين، والإخشيديين، والفاطميين ومن ثم من الأيوبيين حيث أن مقتل ابن^(١) السلطان الصالح نجم الدين أيوب توران شاه في عام (١٢٥٠م/٥٦٤٨هـ)^(٢) وتولي شجر الدر السلطنة^(٣) هو بمثابة انتهاء عصر الدولة الأيوبية في مصر والشام وابتداء عصر السلاطين المماليك حيث عرفت دولتهم باسم الدولة المملوكية واستمرت في الحكم حتى عام (٩٢٩هـ/١٥١٧م).^(٤)

ثم ظهرت الدولة المملوكية ورأت أنه يقع على عاتقها الدفاع عن الدول الإسلامية ضد الأخطار التي كانت تحيط بها من مغول والفرنجة (صليبيين)، ولذلك فقد رسموا خططهم السياسية والإدارية بما يتماشى مع ذلك.^(٥)

(١) ابن السلطان الصالح نجم الدين أيوب هو توران شاه، وقد خشي من المماليك بعد أن حققوا انتصارات على الفرنجة (الصليبيين) من أن يزاحموه على الحكم فأضمر لهم أمراً، إلا أن المماليك تكالبوا عليه وقتلوه، وتجدر الإشارة إلى أن أغلب المصادر قد أشارت إلى تورط شجر الدر زوجة أبيه بمقتله، وبذلك انتهت الدولة الأيوبية، وتجدر الإشارة أن توران شاه لم يكن رجل سياسة، بل كان فيه طيش وخفة ونكران للجميل. ينظر: المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١/ ٣٥٩؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٦/ ٣٧١؛ عاشور، سعيد، العصر المماليكي في مصر والشام، ٩.

(٢) الدوادري، ابن أبيك، كنز الدرر وجامع الغرر، ٧/ ٣٧٤؛ المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ١/ ٤٤٢.

(٣) الصفي، الوافي بالوفيات، ١٦/ ١٢٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/ ٢١٢؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ٥/ ٤٣٠؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٦/ ٣٧٣.

(٤) حسين، حمدي، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ١٥٥.

(٥) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ١٠.

أولاً: التبعية السياسية و الإدارية لبيت لحم:

تمكنّت دولة المماليك في مصر من بسط سيطرتها على بلاد الشام بعد انتصارهم في معركة عين جالوت^(١) سنة (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م)، وتشكّلت بناءً على ذلك ست نيابات في بلاد الشام على أنقاض الممالك، والإمارات الأيوبية التي كانت قائمة^(٢)، وقد نشأت هذه النيابات تدريجياً وليس بقرار واحد أو في وقت واحد، وهي على حسب ترتيب ظهورها: نيابة دمشق، ونيابة حلب، ونيابة حماة، ونيابة الكرك ونيابة صفد، ونيابة طرابلس، وعلى رأس كل نيابة أمير كبير من أمراء المماليك، ولقبه نائب السلطان^(٣)، وكان أكبرهم مقاماً نائب دمشق الذي كانت نيابته أجلّ النيابات الشامية وأرفعها رتبة^(٤)، وكانت كل نيابة بدورها تقسم إلى أقسام إدارية صغيرة أطلق

(١) عين جالوت: تقع في فلسطين في الشمال الغربي من بيسان. ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ١٧٧/٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٩١/٤.

(٣) نائب السلطان: من أعلى الوظائف العسكرية في الدولة المملوكية، ويسمى -أيضاً- بالنائب الكافل، ويكون النائب عادة أميراً برتبة عالية مثل مقدم ألف، وهو السلطان الثاني في الدولة وصلاحياته واسعة، وترتبط بهذه الوظيفة الدواوين والوظائف الأخرى كافة، له إدارة خاصة به وخاتم خاص بنيابته، ويقوم في قصر خاص سمي بدار النيابة. ينظر: العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ١١٤-١١٥؛ السبكي، تاج الدين، معيد النعم ومبيد النقم، ٢٧؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٩٨/٤؛ الظاهري، ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ٤٤؛ البقلي، محمد قنديل،

التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ٢٨٤

(٤) علي، السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ٣٣.

عليها اسم " ولايات"، أو "نيابات صغار"^(١). ويبدو أن هذا ليس بالأمر المستحدث إذ أن المماليك اتبعوا النظام الأيوبي نفسه الذي كان قائماً في بلاد الشام.^(٢)

أما بالنسبة لفلسطين فكان نصيبها نيابتين هما: نيابة صفد، ونيابة غزة^(٣)، وعلى الرغم من أن صفد وغزة تعدّان مدينتين صغيرتين إلا أن أهميتهما الاستراتيجية جعلت منهما نيابتين كبيرتين^(٤). واستمر الحال كذلك حتى ظهرت نيابة القدس حيث كانت ولاية صغيرة إلى أن استحدثت كنيابة سنة (٧٧٧هـ / ١٣٧٥م) وإمارتها إمرة طبلخانة^(٥)، وقد جرت العادة أن يضاف إليها نظر القدس ومقام الخليل (عليه السلام)^(٦)، واستقلت وأصبح هناك ثلاث نيابات: نيابة صفد في الشّمال، ونيابة غزة في الجنوب والغرب، ونيابة بيت المقدس في الوسط.^(٧)

(١) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٢ / ٦.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٢٧/٧؛ حسن، إبراهيم، مصر في العصور الوسطى، ٣٨٠.

(٣) المقرئزي، تقي الدين أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ١ / ١١٠.

(٤) العسلي، كامل، القدس في التاريخ، ٢١٥.

(٥) طبلخانة: مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف، وكثير من الأمراء لهم هذه الميزة ولذلك يطلق على كل واحد منهم لقب أمير طبلخانة، سمي بذلك؛ لأحقّيته في دق الطبول مع أبواق وآلات موسيقية أخرى على أبواب السلاطين وأبواب أصحاب المناصب العالية، وتحت إمرة كل منهم أربعون أو ثمانون فارساً، وأصبحت الكلمة تدل على رتبة أمير الأربعين. ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٥/٤؛ دهمان، محمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ١٠٤؛ عاشور، سعيد، العصر المماليكي في مصر الشام، ٤١٤.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٩٩/٤.

(٧) بكير، مروان، المدينة الفلسطينية في عهد المماليك، ١٢.

ولعل الأمر الذي حدا بالسلطان الناصر قلاوون^(١) أن يجعل من القدس نيابة مستقلة أنه في بادئ الأمر ربط القدس بنيابة غزة وأصبح نائب غزة هو نائب القدس وناظر الحرمين الشريفين^(٢)، مع أنه في البداية ربط جميع نيابات الشام بنيابة دمشق^(٣)، حيث كانت القاعدة الرئيسية في تعيين النواب والولاية وصدور المراسيم الخاصة من السلطان، أما بالنسبة للنواب والولاية الأدنى فكانوا مرتبطين بنائب دمشق ولا يتصلون بالسلطنة إلا عن طريقه وبوساطته، وقد رفض بعض الأمراء هذه الاجراءات فعلى سبيل المثال: أن نائب غزة وهو (سنجر بن عبد الله الجاولي)^(٤)، كان معتداً بنفسه ومكانته، وكان نائب دمشق في ذلك الوقت

(١) السلطان الناصر قلاوون: هو الناصر بن محمد بن قلاوون، تولى الحكم سنة (٦٩٨هـ / ١٢٩٨م)، عزل نفسه عن السلطنة عام (٧٠٨هـ / ١٣٠٨م) وعاد لها بعد عام أي (٧٠٩هـ / ١٣٠٩م)، وتوفي سنة (٧٠٩هـ / ١٣٠٩م). ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤/١٩٠؛ المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٣/٤١٧. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٨/٣٥

(٢) ناظر الحرمين الشريفين: وهي من أقدم الوظائف في بيت المقدس، إذ كانت موجودة منذ العصر الأيوبي، وكان يتولاها أمير كبير برتبة طبخانة، وفي بعض الأحيان يتولاها عالم جليل برتبة قاضي القضاة، ويسمى متولي هذه الوظيفة -أيضاً- ناظر القدس والخليل، ومن مهامه النظر في كل ما يحتاج إليه الحرم الشريف بالقدس وحرم الخليل من إصلاح وترميم فضلاً عن رواتب القائمين بالعمل فيهما، والإشراف والتصرف في الأموال المخصصة للأوقاف بهذين الحرمين، والإشراف على عمليات البناء والترميم وشراء الزيت من أجل إضاءتهما وتشمير الأوقاف لصالح الحرمين، كذلك الاحتفاظ بأموال الأوقاف الزائدة في صندوق الصخرة. ينظر: العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ١٤٦؛ المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٨١/٤؛ العليمي، مجبر الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢/٢٧٢؛ غوانمة، يوسف، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ٣٦.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٩/٣٨؛ غوانمة، يوسف، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ١٤.

(٤) سنجر بن عبد الله الجاولي: تولى نيابة غزة، وكان أول نائب بها، وكان محباً للعلم والعلماء، توفي عام (٧٤٥هـ / ١٣٤٤م). ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٥/٤٨٣؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٢/٢٦٧-٢٦٨؛ السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ١/٣٩٥؛ العليمي، مجبر الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢/٢٧١-٢٧٢.

الوقت الأمير سيف الدين تنكز^(١)، ورفض نائب غزة مراسلة السلطان عن طريق نائب دمشق، فكانت النتيجة أن انتزعت منه نيابة القدس، وحاول الفرار إلى اليمن إلا أنه اعتقل وسجن في الاسكندرية حتى سنة (٧٢٨هـ / ١٣٢٨م).^(٢)

ومع استمرار خروج نواب دمشق على السلطنة، ارتأت القاهرة إضعاف نائب الشام وذلك بتجريده من بعض مسؤولياته، فزاد الاهتمام بكل من غزة والقدس، وهناك خلاف على استقلال القدس، فمنهم من يرى أن القدس قد تحولت إلى ولاية مستقلة في عهد الناصر محمد بن قلاوون عام (٧٠٩هـ / ١٣٠٩م)^(٣) وهناك من يرى أنها استقلت في عام (٧٧٧هـ / ١٣٧٥م) وذلك حسب ما أورده القلقشندي حيث قال: "نيابة القدس وقد تقدم أنها كانت في الزمن المتقدم ولاية صغيرة، وأن النيابة استحدثت فيها في سنة سبع وسبعين وسبعمئة، ونيابتها إمرة طبخانة"^(٤)، أما ابن تغري بردي فأورد أن نيابة القدس أصبحت طبخانة في سنة

(١) سيف الدين تنكز: نائب السلطنة بالشام حيث تولى السلطنة عام (٧١٢هـ/١٣١٣م)، واستمرت نيابته (٢٨) سنة اتسمت بالاستقرار والأمان، توفي سنة (٧٤١هـ/١٣٤١م) عن عمر الستين. ينظر: الكتبي، فوات الوفيات، ١/٢٦٢-٢٦٣؛ العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٢/٥٥؛ المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٢/٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٩/١٤٥؛ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ٤/١٥٦؛ العلمي، مجير الدين، الأئمة الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢/٣٥.

(٢) العلمي، مجير الدين، الأئمة الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢/٢٧١-٢٧٢؛ ابن طولون، إعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، ٣٨-٤١.

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٨/٢٥٨.

(٤) صبح الأعشى في صناعة الانشا، ٤/١٩٩.

(١٧٦٧هـ / ١٣٦٥م) ^(١)، وهناك رأي آخر يقول: إن نيابة القدس استقلت سنة (٧٩٦هـ / ١٣٩٣م) حين جعل السلطان الظاهر برقوق ^(٢) من بيت المقدس نيابة مستقلة. ^(٣)

وكان حكام هذه النيابات من المماليك، يختارون من أرباب السيوف ^(٤)، وذلك تمييزاً لهم عن أرباب القلم ^(٥)، وهذه النيابات كانت مستقلة وتتبع في حكمها للسلطان مباشرة. ^(٦) وكذلك كانت النيابات في الإدارة المملوكية متفاوتة، أي أن النيابات الأدنى

^(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٣/٩.

^(٢) الظاهر برقوق: هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق ابن أنص الجركسي العثماني، تولى السلطنة بمصر عام (٧٨٤هـ / ١٣٨٢م)، وكان أعظم ملوك الشركسة، توفي سنة (٨٠١هـ / ١٣٩٨م). ينظر: المقرئ، المواعظ والاعتبار، ٤٢٠/٣-٤٢١؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١١/١٨١؛ السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ٤٢٤/٣.

^(٣) غوانمة، يوسف، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ١٩.

^(٤) أرباب السيوف: هم الأمراء ورجال الجيش والقادة العسكريون في سلطنة المماليك، سواء أمراء متئين وأمراء طبلخانة وأمراء عشرات وخمسات، وكانوا ينفذون أوامر السلطان وينصرونه فهم يشكلون أهل الدولة، وكانت الدولة تقدم لهم مقابل خدماتهم إقطاعات، أو بدلات مالية في صورة مرتبات، ولكنهم أحياناً أسأوا استعمال مناصبهم هذه. ينظر: مصطفى، نهلة، أولاد الناس في الحياة السياسية والإدارية، ٩٥.

^(٥) أرباب القلم: يشمل هذا المصطلح القضاة، والعلماء، والمفتين، والمدرسين، والخطباء -أي الموظفين الإداريين- وفي مصادر أخرى يطلق عليهم مصطلح المتعممين أو أهل العمامة، لأن العمامة كانت السمة البارزة والتي تميزهم بملابسهم عن غيرهم خاصة الأمراء والأجناد، وهم عنصر متميز من الشعب، يفقه بأمر الدين ويلم بأحكامه، ونالوا حظاً وافراً من الثقافة والعلم، وبذلك كسبت حب واحترام الطبقة الحاكمة لها، وتجدر الإشارة إلى أن فئة من هؤلاء وليت الوظائف العامة التابعة للحكام (كأمانة السر وديوان الإنشاء)، والفئة الأخرى عكفت على العبادة، ووليت وظائف التدريس، والقضاء، والخطابة. ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ٩/٢٥٥-٢٥٩؛ أشتور، آ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ٤١٣-١١٤؛ لابدوس، إيرا، مدن إسلامية في عهد المماليك، ١٨٢؛ عاشور، سعيد، المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك، ٢٨؛ أبو زيد، سامي، أدب العصور المتتابعة، ٦٧.

^(٦) الدجاني، هادية وآخرون، الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، ٣٩٤.

تلقح بنيابات أعلى وكان يلي هذه الأدنى أمراء من مراتب أدنى من مرتبة أمير المائة
مقدم الألف^(١).^(٢)

أما بالنسبة لمنطقة بيت لحم فقد ارتبطت بنبابة القدس - على الأرجح- وفق ما يراه علي السيد علي
بقوله: "إن أغلبية سكان القرى المحيطة بالقدس مثل؛ بيت لحم، وبيت جالا، وغيرها تابعة لمدينة بيت المقدس
إدارياً في ذلك العصر"^(٣) ، وضمت نيابة القدس إضافة لذلك مدناً كبرى وهي الرملة، واللُد، والخليل
وقاقون^(٤) ونابلس.^(٥) وبذلك فإن أيّ تغيير إداري كان يطرأ على القدس هو إجراء إداري يطبق على بيت لحم.
لحم.

(١) أمير المائة مقدم الألف: وهو أعلى وأسمى المراتب العسكرية في الجيش المملوكي، وتقترن عادة بلقب مقدم ألف فيقال "أمير مئة مقدم ألف"، والمقصود بتلك التسمية المركبة وظيفية واحدة، وهي أن يكون في حوزة هذا الأمير مئة مملوك، وهو في الوقت نفسه مقدم في الحرب على ألف جندي من أبناء الحلقة ، وهذه المرتبة خاصة بأرباب السيوف. ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٨٤/٤؛ المقرزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١/٢٣٩؛ ١، ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ٤٤.

(٢) زگار، سهيل، فلسطين في عصر المماليك ، ٥٨٢

(٣) القدس في العصر المملوكي، ٨١.

(٤) قاقون: هي حصن بفلسطين قرب الرملة، وقيل هي من عمل قيسارية من ساحل الشام. ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٤/٢٩٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٤/١٠٠؛ الدومينيكي، مرمجي، بلدانية فلسطين العربية، ١٣٦؛ السعد، جودت، مختصر البلدان في أرض كنعان، ١٧٧؛ الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٣/٣٣٥

(٥) العلمي، مجبر الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢/٢٨٢؛ عثمانة، خليل، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ٣٣١.

ثانياً: الحياة الاجتماعية:

- السكان:

(١) المسلمون:

من خلال الاطلاع على المصادر التاريخية تبين لنا أن أغلبها لم يتعرض إلى ذكر أعداد السكان المسلمين في بيت لحم في الفترة المملوكية. ويبدو أن الرّحالة الأجانب أشاروا إلى أن بيت لحم في أغلبها مدينة مسيحية مع قليل من المسلمين العرب فيها، فيقول السائح نقولا دي بوجي بونسي (Nicolas Bogi Bonsi) الذي مر ببيت لحم عام (١٣٤٧هـ/١٣٤٧م): "معظم سكان بيت لحم مسيحيون مع قليل من المسمين، ويصنع فيها النبيذ بإذن من السلطان، والبلدة مدمّرة تقريباً، وأما البيوت التي يسكنها المسيحيون فقد أعادوا بناءها".^(١)

وفي عام (١٣٩٥هـ/١٣٩٥م) ذُكر أن بيت لحم كانت مدينة كبيرة: "أما الآن وبعد أن خسرها المسيحيون فقد دمرت وفيها ربما ثلاثون بيتاً حقيراً، يسكنها المسلمون، والمسيحيون من المناطق المجاورة"^(٢). وبناء على ذلك فإنّ المسلمين على ما يبدو سكنوا بيت لحم لكنّ السجلات والمصادر التاريخية لم تعطنا صورة واضحة لذلك .

(١) بنورة، توما، تاريخ بيت لحم بيت جالا بيت ساحور، ٥١.

(٢) نفسه، ٥٢.

وقد أجرى إحصاء سكاني في بيت لحم عام (١٥٢٥هـ/١٥٢٥م) في بداية الدولة العثمانية بعد سقوط الدولة المملوكية بفترة قصيرة، وجاء توزيع السكان على المناطق ضمن دفتر تحرير (٤٢٧) على النحو التالي:

وجود (٣٩) خانة^(١) في بيت لحم، أما بيت ساحور الوادي فيوجد بها (١٨) خانة^(٢)، إرطاس عدد خاناتها (٣٩) وفيها إمام مسجد، وهذا يعني أن نسبة مسلمة لا بأس بها كان تسكن بيت لحم وقراها لوجود مسجد وإمام، أما بيت ساحور النصارى فيها (٧) خانات، ويبدو من اسمها أنه كان يسكنها النصارى، وفاغور^(٣) عدد خاناتها (١٠)^(٤)، أما تقوع^(٥) عدد خاناتها (٢٥) والمجرد^(٦) (٢).^(٧)

(١) الخانة هي مصطلح عثماني يطلق على الأسرة التي تتألف من ٥-٧ أفراد. ينظر: عطا الله، محمود، نيابة غزة في العصر المملوكي، ٨١.

(٢) البخيت، عدنان، لواء القدس من دفتر مفصل لواء صفد وغزة والقدس الشريف من دفتر تحرير ٤٢٧، ٣٣.

(٣) فاغور: تقع على الطريق بين القدس والخليل. ينظر: الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٤٩٣/٨؛ اليعقوب، محمد، ناحية القدس الشريف، ٢٩/١.

(٤) البخيت، عدنان، لواء القدس من دفتر مفصل لواء صفد وغزة والقدس الشريف من دفتر تحرير ٤٢٧، ٣٤.

(٥) تقوع: قرية على بعد ستة أميال جنوب شرق بيت لحم، وتقوع القديمة معناها نصب الخيام، وذكرت في معجم البلدان بأنها من قرى بيت المقدس ويضرب المثل بجودة عسلها، وينسب إلى تقوع عاموس الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد، حيث كان يؤنب قومه اليهود لما رآه من فساد أخلاقهم، وتدهور معاملاتهم، وتصرفاتهم، وتقوع تحتوي على أبنية متهدمة، بقايا كنيسة، وزوايا وأعمدة وقواعد الأعمدة، ومُغر ومدافن، أي أنها منطقة أثرية، وهي تابعة لبيت لحم حالياً. ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٣٧/٢؛ الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٤٩٧/٨؛ الدومينيكي، مرمجي، بلدانية فلسطين العربية، ٧٨؛ السعد، جودت، مختصر بلدان أرض كنعان، ٥٧.

(٦) المجرد وهو مصطلح عثماني يعني الأعزب. ينظر: عطا الله، محمود، نيابة غزة في العصر المملوكي، ٨١.

(٧) البخيت، عدنان، لواء القدس من دفتر مفصل لواء صفد وغزة والقدس الشريف من دفتر تحرير ٤٢٧، ٣٧.

٢) المسيحيون:

كان المسيحيون من ضمن عناصر المجتمع الفلسطيني في الفترة الأيوبية والمملوكية، سكنوا في معظم المدن الفلسطينية، ولعل أهم المدن التي سكنوها القدس، وبيت لحم، والخليل، والناصرية ونجدهم - أيضاً- في المدن الرئيسية مثل: غزة، وطبرية، والبيرة، واللّد، والرملة، وبيت جبرين، وغيرها، وتركزت أديرتهم، وكنائسهم في القدس، وبيت لحم، والناصرية^(١)، وقد منحهم المماليك الحق في توليهم شؤونهم وكذلك حقهم في السيطرة على كنائسهم وشؤونهم الدينية.^(٢)

وقد كان المسيحيون الذين سكنوا فلسطين من العرب المحليين أي من نصارى بلاد الشام الشرقيين وهم من الفئة الملكانية^(٣) وأغلبهم أقباط^(٤) ويعاقبة.

أما الفئات المسيحية الأخرى كالأحباش^(١)، والأرمن^(٢)، والجورجيين^(٣)، والإغريقيين، واللاتينيين فقد فقد قدموا من فرنسا، وإيطاليا، وإسبانيا، وصقلية في الفترات اللاحقة^(٤)، بل وقد قدموا خدمات للمسلمين

(١) يوسف، محسن، الخارطة الدينية لسكان فلسطين عشية الاحتلال الإفرنجي، ٣١.

(٢) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ٨١

(٣) الملكانية: هم نصارى مصر وسورية، ومعظم الروم ملكانية، ويقوم المذهب الملكاني على أن اتحاد الله تعالى بعبسى (عليه السلام) كان باقياً حالة صلبه، ونشأ هذا المذهب بعد عقد مجمع خلقدونية عام (٤٥١م)، وانتهى بتقرير أن للمسيح (عليه السلام) طبيعتين لا طبيعة واحدة وأن اللاهوت طبيعة وحدها، والناسوت طبيعة وحدها التقتا في المسيح (عليه السلام)، ويسمون بالملكانية نسبة إلى الملك، وهو إمبراطور الروم البيزنطي الذي ناصر فكرة الطبيعتين. ينظر: الشهرستاني، أبو الفتح، الملل والنحل، ٢/ ٢٧؛ الرازي، أبو عبد الله محمد، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ١٣؛ رستم، سعد، الفرق والمذاهب المسيحية، ٢٩.

(٤) أقباط: والقبط هم جيل من أهل مصر الأولين، والأقباط تعني أهل مصر مسلمين كانوا أم مسيحيين حتى القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي أي لم تكن تعني مذهباً دينياً إلا بعد هذا القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي حيث أصبحت تعني المصريين المسيحيين. ينظر: المقريزي، تقي الدين، تاريخ الأقباط (القول الإبريزي للعلامة المقريزي)، ١٥.

للمسلمين وأوقف السلاطين المماليك الأوقاف عليهم؛ وذلك لدعمهم ومساندتهم للسلطان الناصر بن قلاوون، والسلطان الناصر أحمد، والسلطان الظاهر برقوق^(٥)، وقال فيهم المؤرخ الفرنجي فوشيه الشارترى (Fulcher of Chartres): "من كان رومياً أو إفرنجياً فقد تحول في هذه البلاد إلى جبلي أو فلسطيني".^(٦)

أما بالنسبة لبيت لحم فقد شكل المسيحيون فيها الأغلبية من السكان، وقد ذكرتها المصادر على أنها قرية في مواضع، ومدينة في مواضع أخرى، وبعضها عدّها قرية تابعة للقدس في تلك الفترة، ووردت في وثائق مملوكية في عهد السلطان جقمق سنة (١٤٤٧/هـ ١٤٤٧م) والسلطان خشقدم^(٧) في سنة (١٤٦٥/هـ ١٤٦٥م) إشارة إلى الوجود النصراني في قرية بيت لحم، وأنّ لهم فيها ديراً، و-أيضاً- لهم حاكورة شرقيّ الدير، وأنّ المستوى المعيشي لهم كان متدنياً أي كانوا فقراء^(٨)، أما فيليكس فابري (Félix Fabri)

(١) الأحباش: وهم نصارى الحبشة، وأكد العلمي وجودهم في مدينة القدس، وذكر أن الدولة المملوكية اعتنت بهم أكثر من الطوائف النصرانية الأخرى. ينظر: العلمي، مجير الدين، الأُنس الجليل بتاريخ القدس الخليل، ٢٦٥/٢.

(٢) الأرمن: وهم أهل أرمينيا الذين بقاياهم ببلاد سيس، ومدينة فارس، وأرجيش، وهم نصارى قرييون من اليعاقبة، وينسبون إلى سيدنا إبراهيم (عليه السلام). ينظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ١٤٨/٥.

(٣) الجورجيون: هم نصارى جورجيا، وكانت تعرف ببلاد الكرج، وكانت لهم كنيسة في بيت المقدس تسمى المصلبية. ينظر: العلمي، مجير الدين، الأُنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٥١/٢.

(٤) خسرو، ناصر، سفر نامه، ٧٠.؛ الدجاني، هادية وآخرون، الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، ٤٢٩.؛ غوانمة، يوسف، تاريخ نيابة القدس في العصر المملوكي، ١٢٠-١٢١.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٠٢/١٤.

(٦) الشارترى، فوشيه، تاريخ الحملة إلى القدس، ٢١٨.

(٧) السلطان خشقدم: الملك السلطان سيف الدين أبو سعيد خشقدم، رومي الجنسية، لقب بالملك الظاهر، اشتراه المؤيد شيخ، أعتقه وتقلب في الدولة إلى أن جعله الأشرف إينال أتاكاً لولده، فلعله وتسلطن مكانه وكانت مدة حكمه ممتدة في هذه الفترة (٨٦٥-٨٧٢هـ / ١٤٦١-١٤٦٧م). ينظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٢٧٧/١٦؛ السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ٣/١٥٧؛ الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٣١٠/٨؛ ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٢/٤٥٦؛ الزيدي، مفيد، موسوعة التاريخ الإسلامي: العصر المملوكي، ١١٩.

(٨) العسلي، كامل، وثائق مقدسية، ٦٣-٦٤.

فقد قال عندما زار بيت لحم عام (٨٨٨هـ/٤٨٣م) : "إنها مدينة آهلة بالسكان، وجلب المسيحيون من كل بلد في الأرض الهدايا إلى هناك، وعاش التجار الأثرياء جداً فيها".^(١)

ومن خلال وثيقة مملوكية أخرى يرجع تاريخها إلى عام (٧٩٦هـ/١٣٩٣م) تبين أن بعض سكان قرية تقوع من النصارى، والأشخاص الذين ذكروا في المحضر أغلبهم نصارى^(٢). ولعلنا لم نستطع أن نجد إحصاءً مملوكياً لعدد النصارى في فلسطين إلا أن السجلات العثمانية في منتصف القرن السادس عشر قد ساعدتنا؛ وذلك لأنها تتحدث عن الموضوع بعد انتهاء الحكم المملوكي بفترة قليلة، ومن خلالها يتضح أن عدد النصارى كان أكبر من عدد اليهود، وقد وجد النصارى في غالبية مدن فلسطين وقراها، إلا أنهم كانوا أقلية ما عدا في بيت لحم وبيت جالا حيث وجدوا في هذه المناطق بكثرة، وسكن المسيحيون -أيضاً- في الريف الفلسطيني، لكن لم تكن نسبتهم إلى مجموع السكان كبيرة.^(٣)

(٣) اليهود:

كانت الفترة المملوكية متنفساً لليهود بعد اضطهاد الفرنجة (الصليبيين) لهم، فمنهم من أُسر، ومنهم من هاجر، لذلك يقال إن فلسطين كادت تخلو تماماً من اليهود في تلك الفترة^(٤)، أما في الفترة المملوكية فشهدت فلسطين قدوم اليهود لها سواء من دول أوروبية وتحديداً من إسبانيا؛ وذلك بدافع ديني واقتصادي^(٥).

(١) زگار، سهيل، الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ٣٨ / ٧٢١-٧٢٢

(٢) العسلي، كامل، وثائق مقدسية، ٢ / ٢٢٤-٢٢٥.

(٣) عبد الفتاح، كمال وآخرون، سكان فلسطين والأردن وجنوب سوريا في أواخر القرن السادس عشر، ٥٢.

(٤) العريني، الباز، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ١ / ٢٧١.

(٥) الموسوعة الفلسطينية، ق ٢، ج ٢ / ٥٩٣.

وذكر المعاصرون لتلك الفترة وجود سبعة بيوت يهودية متفرقة بطول المسافة بين القدس وبيت لحم والخليل.^(١)

أما بالنسبة لأوضاع اليهود في فلسطين بالفترة المملوكية فقد منعوا من العمل بدواوين الدولة، وفرضت عليهم قوانين خاصة في اللباس أي تمييز لون عمامتهم^(٢)، وألا تكون أكثر من عشرة أذرع^(٣)، وربما السبب في ذلك هو فسادهم وابتزازهم للمسلمين، وأطباعهم التي تميل إلى العنصرية، لكن مع ذلك فقد عاش اليهود آمنين وينعمون بتسامح الإسلام المعروف^(٤)، ولم يندمج اليهود في المجتمع بل مالوا إلى العزلة الاجتماعية على عاداتهم، أما أحيائهم التي سكنوها فقد كانت مغلقة.^(٥)

أما أعدادهم فيذكر أنّ نابلس وُجد فيها نحو المائة، وبيت المقدس مائتان، أما بيت لحم فقد وُجد بها اثنا عشر يهودياً، وقد خلت الخليل من اليهود، أما بيت جبريل والرملة فقد كان في كل منهما ثلاثة فقط من اليهود، وكان في يافا يهودي واحد، والمدن الفلسطينية الأخرى فقد خلت من الوجود اليهودي.^(٦)

(١) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ١١٧.

(٢) العمامة: غطاء للرأس يلبسه العلماء وكذلك عامة الناس على اختلاف طبقاتهم، وتصنع عادة من القطن. صالحية، من وثائق الحرم، ٢٩؛ ماير، الملابس المملوكية، ٩٨؛ بلال، ثناء، الملابس في العصرين القبطي والإسلامي، ٧٥.

(٣) أذرع: هي وحدة الطول الأساسية التي كانت تستعمل في البلاد الإسلامية والعربية، أن أجزاء هذه الوحدة الأساسية هي: القبضة، الإصبع، الشعيرة، والشعرة، وأن من مضاعفات هذه الوحدة الميل، والفرسخ، والبريد، والمرحلة، وما زالت تستخدم في بعض الدول العربية والإسلامية حتى الآن، إلا أنها فقدت مكانتها كوحدة طول أساسية بعد أن عم النظام المتري معظم البلاد. فاخوري، محمد، وآخرون، موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية وما يعادلها بالمقادير الحديثة، ٩؛ حلاوي، محمود، النظم الإسلامية في عصر صدر الإسلام، ٢٤٢.

(٤) القرمانلي، أحمد، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ٢٨٦؛ العليمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٥٢/٢-٥٣؛ هنتس، فالتر، المكاييل والأوزان والمقاييس، ٨٣.

(٥) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ١١٧.

(٦) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ١٠٠.

عمل اليهود في صناعة المنسوجات، والصبغة، وأعمال الصرافة، وغيرها من الأعمال الحرفية بالإضافة إلى عملهم بوصفهم مترجمين، ومرشدين للحجاج النصارى في أثناء زيارتهم للأماكن المقدسة. (١)

ويبدو أن اليهود قد عملوا ببيت لحم في تلك الأعمال، خاصة أنها مدينة مقدسة للنصارى، ومحط زيارتهم في أعيادهم المعروفة.

(١) غوانمة، يوسف، التاريخ الحضاري، ١٤٥.؛ الطراونة، مبارك، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة، ٥٠.

- العادات الاجتماعية:

لا بدّ أن يكون لكل مجتمع عادات وتقاليد تحكمه وتسري في زمن معين، وقد تكون قد انتقلت من جيل إلى آخر، ولأننا بصدد الحديث عن الفترة المملوكية وما احتوته من عادات وتقاليد، وكيف أنها سرت على مختلف الطوائف من مسلمين ومسيحيين ويهود، سنعطي في هذا الفصل صورة واضحة عن أهم العادات والتقاليد التي وجدت في مدينة بيت لحم في الفترة المملوكية.

(١) العادات والتقاليد:

يُعدّ الزواج من ضمن الأفراح والاحتفالات التي اتصفت بها الحياة الاجتماعية في ذلك العصر، وهنا نجد اختلافاً بين مراسم الزواج لدى المسلمين ومراسم الزواج لدى المسيحيين، ولم يكن هناك اختلافات واضحة في مراسم الزواج داخل الطوائف المسيحية المختلفة والتي سنركز عليها؛ لأن أغلبية سكان بيت لحم كانوا من المسيحيين.

تبدأ أولى خطوات الزواج سواء عند المسيحيين أو المسلمين بالخطوبة، ويتم ذلك بعد اختيار العروس من قبل والديّ العريس أو أحد الأقارب، أو بعض الوسطاء، وأحياناً عن طريق الخاطبة^(١)، ومن ثم تبدأ الاتصالات بين أهل العروسين وعند الاتفاق يُرسل القسيس^(٢) إلى بيت العروس ويتأكد من درجة القرابة بينهم إن وجدت - لأن لكل طائفة درجات للقرابة يمنع الزواج بين أفرادها - ويسألها عن رأيها فإن أجابت بالإيجاب

(١) القساطلي، نعمان، الروضة الغناء في دمشق الفجاء، ١٢٧.

(٢) القسيس: جمعها قساوسة، قساوسة، قسيسون، والقسس خادم دين المسيحيين وإمامهم في أمور عبادتهم، وله الصلاحية في إقامة المناسك. ابن منظور، لسان العرب، مادة (قَس).

تتم الخطوبة^(١) ويلبس المخطوبان الخواتم الذهبية دليلاً على أن الخطوبة تمت، ثم يدفع العريس نصف المهر أو كله، وذكر أن المهر يختلف تبعاً لجمال العروس، وعمرها، ومكانتها - بكر أم ثيب-، ولنقل كان هناك نوع من الحرص على أن يتم التزاوج بين الأسر من الطبقة والمكانة نفسها، وعادة ما كانت فترة الخطبة طويلة ليتم التعارف بشكل جيد بين العروسين.^(٢)

وفي يوم السبت قبل حفل مراسم الإكليل تقوم نساء أهل العريس بحمل ثياب العروس بالمشاعل وترافقهم الأغاني، ويذهبون إلى بيتها، ويقمن بحنائها، ومن ثم يذهبن بها إلى الحمام ويقمن بغسلها وتزيينها وفي ليلة الأحد تذبح الذبائح وتعد الولائم^(٣)، وفي يوم العرس -وعادة ما يكون الأحد- يوضع على العروس خمارها وإزارها ويكونان باللون الأبيض، ثم ينتقل الموكب إلى الكنيسة؛ لإتمام مراسم التكليل على يد القساوسة، وقد يتم ذلك في بيت أهل العروس، أو أهل العريس، ويرافق المراسم الصلوات والتراتيل والأنشيد انتهاء بتتويج القسيس للعروسين وبيارك زواجهم^(٤)، ثم تبدأ مراسم الاحتفال من رقص، وطرب، وتناول الأطعمة وتستمر إلى منتصف الليل، ويذكر أن الرجال لم يسمح لهم الرقص مع النساء، وهكذا ينتهي الاحتفال بمراسم الزفاف.^(٥)

أما بالنسبة لعادات المسلمين واحتفالاتهم فلعلها لا تختلف كثيراً، ففي البداية تختار العروس من قبل الخاطبة حيث تختار العروس حسب طلب أهل العريس، وعادة لا يكون لها رأي في الموافقة عليه بل رأيها

(١) كرد، علي، خطط الشام، ٦/٢٩٩؛ علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ٢٦٩.

(٢) أسعد، منصور، تاريخ الناصرة من أقدم أزمانها إلى أيامنا الحاضرة، ٢٢٧.

(٣) نفسه، ٢٧٨.

(٤) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ٢٧٠.

(٥) كرد، علي، خطط الشام، ٦/٢٩٤؛ علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ٢٧٠.

موصول بمواقفة والدها وأحياناً قد تشاركه أمها في الرأي^(١)، وتسمى هذه المرحلة الأولى وهي الخطوبة، ثم تأتي مرحلة عقد القران، وبعدها تأتي المرحلة الثالثة وهي إعداد الشوار (جهاز العروس) ونقله إلى منزل العريس، وجرت العادة أن يجهز العروس والدها كما قال ابن بطوطة: "ومن عوائدهم في تلك البلاد أن البنات يجهزها أبوها، ويكون معظم الجهاز أواني النحاس، وبه يتفاخرون وبه يتباهون"^(٢). أما عن ليلة الزفاف فتقام وليمة كبيرة للأهل والأصدقاء، وبعدها يتوجه العريس إلى منزل العروس في موكب من الأهل والأصدقاء، ثم يُحيون العرس، وتُحْفَةُ الأغاني، والدفوف، وزغاريد النساء.^(٣)

أما بالنسبة لاحتفالات اليهود فلم ترد عن ماهيتها أي إشارة في المصادر والمراجع المعروفة، وقد يكون السبب لقلة أعدادهم، أو لعدم اختلاف مراسمها عن غيرهم.^(٤)

وكان من العادات التي انتشرت في كل أرجاء فلسطين في تلك الفترة بما فيها مدينة بيت لحم الحسد، وقد آمنت بها كل الطوائف من المسلمين، والمسيحيين، واليهود، وقد اعتقدوا أنها سبب في المرض والحزن بل إنها سبب للموت، وفي اعتقادهم -أيضاً- أنها تهدم البيوت، وتوقف الحرث، وتقتل الحيوان والزرع^(٥)، وفي هذا دليل على أنهم كانوا يعزون أحياناً سوء المحصول وموت حيواناتهم إلى الحسد، ولقد ترسخت فكرة أن أصحاب العيون الزرقاء هم الأكثر حسداً من غيرهم - وهو تصور عربي قديم من الجاهلية

(١) السخاوي، محمد، التبر المسبوك في ذيل السلوك، ٣٩١.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ٦٣.

(٣) ابن تغري بردي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ١/ ٦٧؛ السخاوي، محمد، التبر المسبوك في ذيل

السلوك، ٣٠٢؛ علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ٢٦٨-٢٦٩.

(٤) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ٢٦٩.

(٥) الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، ١/ ٨٦؛ الصفي، الوافي بالوفيات، ٧/ ٤٨-٤٩؛ علي، علي السيد، القدس في

العصر المملوكي، ٢٦١.

وبقي هذا الاعتقاد سائداً حتى يومنا هذا - ولإبطال مفعول الحسد كانوا يأخذون قطعة من ملابس الشخص الحاسد أو الذي يعتقد أنه يحسد الآخرين، ويحرقونها تحت الشخص الذي أصيب بالحسد، وكانوا - أيضاً - يرددون بعض التعاويذ لِفكِّ الحسد وتطهير المحسود منه، أو كانوا يكتفون بوضع خرزة زرقاء للوقاية من الحسد.^(١)

ومن العادات التي قد تكون وجدت في بيت لحم سواء لدى المسلمين أو المسيحيين هي النذر فحين يعصف بهم المرض كانوا يندرون، وبالنسبة للمسيحي فكان ينذر للكنايس، والمعابد، والأديرة زيتاً وشموعاً وبخوراً، وأحياناً يقومون بنقل النباتات الموجودة في جدران الكنايس لإعطائها للمريض، أو ينقلون بعض الأيقونات^(٢) إلى غرفته.^(٣)

وهناك عادات اختص بها المسيحيون على وجه التحديد وهي الذهاب إلى بركة ماء يقال لها بركة سليمان^(٤)، يذهب إليها المرضى ينتظرون المياه إلى أن تتحرك، ويقال إنَّ أول شخص ينزل إلى الماء عند

(١) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ٢٦١.

(٢) الأيقونات: هي فن لاهوتي ذو طابع روحي يعكس حقيقة الهيئة، وهي تعبير تصويري عن موضوعات دينية، تبرز صورة المسيح (عليه السلام) أو والده الإله، أو بعض القديسين، أو تذكرنا بأحداث التدبير الخلاصي مثل أيقونة الميلاد والقيامة، أو تظهر حدثاً من حياة الكنيسة، أو من الكتاب المقدس كأيقونة رفع الصليب. القادي، عبد الله، الأيقونة والكتاب المقدس، ٢٦.

(٣) لجنة من الأدباء، لبنان مباحث عملية واجتماعية، ١٥٩؛ علي، السيد علي، القدس في العصر المملوكي، ٢٦٣.

(٤) برك سليمان: تقع في وادٍ ضيق إلى الجنوب الغربي من بيت لحم، على بعد أربعة كيلومترات عنها، وهي ثلاثة برك تقع على خط واحد، وبنيت لجمع المياه فيها ومن ثم إرسالها في قناة إلى القدس، ويطلق عليها -أيضاً- "برك البراق" و"برك المرجع"، والزمن الذي بنيت فيه غير معروف، ويطلقون عليها برك سليمان نسبة إلى النبي سليمان، وهناك من يرجع أصل بنائها إلى عهد الرومان وهرودوس، ومن المحتمل أن تكون فكرة بيلاطس البنطي (وهو حاكم فلسطيني روماني)، وتوزع هذه البرك المياه على كلِّ من بيت لحم والقدس. ينظر: الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٨ / ٤٤٩-٤٥١.

حركتها يشفى من مرضه ^(١)، أما بالنسبة للمسلمين فقد انتشرت عادة الاعتقاد بالأولياء والصالحين وأن لهم كرامات كثيرة. ^(٢)

ومن العادات الجماعية التي اشتهرت بها بيت لحم إلى جانب المدن الأخرى عادة إخفاء بعض القطع النقدية بأوانٍ فخارية تحت الأرض خشية سطو اللصوص عليها، ولعل القرى المحيطة ببيت المقدس هي الأكثر تأثراً بهذه العادة ومنها بيت لحم؛ وذلك بسبب فقر أهل القرى وتعبهم في تحصيل هذه النقود فكانت النتيجة أنهم يعتزون بها ويتقنون في إخفائها ^(٣). ولعل كثيراً من الحفريات كشفت عن وجود هذه العملات النقدية وبكميات كبيرة، فكثيراً ما توارد إلى أسماع الناس عن أنه كشف عن عدد من الفخارات التي تحتوي على العملات النقدية في أراضي بيت لحم وما حولها من قرى.

٢) الملابس

تنوعت الملابس وتطورت باستمرار فلا شيء يبقى على حاله، ويبدو أن هناك اختلاف بين ملابس المسلمين، والمسيحيين واليهود، ودل ذلك على اختلاف عادات وتقاليدها كل طائفة وليس نوعاً من العنصرية والاضطهاد.

(١) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ٢٦٣.

(٢) العليمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ / ٥٣١.

(٣) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ٢٦٠-٢٦١.

- ملابس الرجال:

بالنسبة لملابس الرجال؛ فقد كانوا يرتدون العمامة وهي من ألبسة الرأس التي يلبسها العامة من الناس والعلماء، وهي مصنوعة من القطن^(١)، وبالنسبة للمسيحيين فكان لزاماً عليهم أن يرتدوها زرقاء اللون أما اليهود فقد لبسوا العمامة الصفراء، وبالنسبة للمسلمين فقد كانت عمامتهم بيضاء اللون، ويرتدي المسيحيون حزاماً يشد حول الوسط، ويطلق عليه اسم الزنار^(٢) أو الزناد^(٣)، وكانت هذه الأحزمة تميزهم عن غيرهم، وكان الزنار هو الجزء الرئيس في الزي المسيحي، أما طريقة تفصيل الملابس وحياتها فقد كانت واحدة ولم تتميز بها طائفة عن أخرى.^(٤)

أما المارونيين المسيحيين ذوي الزنار يعملون في فلسطين كمكاريين^(٥) ويطلق عليهم اسم "مكاري"، وكانوا هؤلاء يصطحبون الحجاج المسيحيين، ويقودونهم لزيارة الأماكن المقدسة في القدس، وبيت لحم، والناصرية، وكان هؤلاء يرتدون الطواقى السوداء كلباس للرأس من غير منديل يلف حولها.^(٦)

(١) بلال، ثناء عبد الرحمن، الملابس في العصرين القبطي والإسلامي، ٧٥.

(٢) ل.م. ماير، الملابس المملوكية، ١١٥-١١٦؛ صافي، سعيد، مدينة الخليل في العصر المملوكي، ٦٣.

(٣) الزنار: فالزنار والزنارة ما على وسط المجوسي والنصراني، أي ما يلبسوه ويشده على وسطه، حيث يربط النصراني على وسطه الزنار ليعلق عليه الصليب وغيره من شعاراتهم. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (زئر).

(٤) ل.م. ماير، الملابس المملوكية، ١١٦.

(٥) مكاري: كاري يكاري كراء ومكارة، ومكاري هو الذي يستأجر لنقل المتاع ونحوه على الدواب أو غيرها من وسائل النقل، وفي مرجع آخر من عنده دواب يؤجرها للركوب والحمل. مصطفى، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، مادة (كزى)؛ معجم المهن القديمة والحديثة حتى أبواب القرن الحادي والعشرين، ٣٦.

(٦) ل.م. ماير، الملابس المملوكية، ١٢٠-١٢١.

- ملابس النساء :

ارتدت النساء القمصان، وكانت ترى من تحت الملابس الخارجية، والقميص له فتحة عنق دائرية وبدون فتحة أمامية، وقد اختلفت الأطوال بناءً على رغبة النساء، وكانت أكامه ما بين ضيقة وواسعة وصنعت هذه القمصان من القطن، أو الكتان، أو الحرير الإسكندراني، ويلبس معه المنزر^(١) وهو نوع من السراويل تصل إلى الركبتين، أما بالنسبة للإزار فهو أطول من المنزر وتلفه المرأة حول جسدها، وهو عبارة عن ملاءة متسعة فضفاضة من قماش غير مطرز، ويكون لونه بالنسبة للنساء المسيحيات أزرق اللون والمسلمات أبيض اللون، واليهوديات كان أصفر، وفوق الإزار يُشد حزام عرف باسم الزنار^(٢)، وكان لزاماً بطبيعة الحال أن يكون لونه أزرقاً، وقد طبق عليهنَّ ما طبق على الرجال من أن يرتدين الأقمشة الزرقاء على رؤوسهن، أو فوق صدورهن، ليميزن عن النساء المسلمات، كما كان مفروضاً على المسيحيات أن يرتدين علامة مميزة عن غيرهن أثناء وجودهنَّ بالحمامات.^(٣)

أما بالنسبة لأغطية الرأس فلم نجد في المراجع ما يوضح إن كانت النساء المسيحيات يرتدين المناديل، أو العصابات، أو النقاب. أما بالنسبة لألبسة القدم فكان يطلق عليها اسم الخف، وتصنع عادة من الجلد الملون^(٤)، وهو من الأحذية العالية المرتفعة الكعب، وهناك النعل والمشاية^(١)، وفي المنازل يرتدين القباقيب الخشبية المزخرفة، والزرابيل وهي نوع من الخفاف.^(٢)

(١) المنزر: وجمعها مآزر، وهو ثوب يحيط بالقسم الأسفل من البدن، الإزار. ينظر: أبو العزم، عبد الغني، المعجم الغني، مادة (أزر)

(٢) ل. م، ماير، الملابس المملوكية، ١٢٥.

(٣) نفسه، ١١٩.

(٤) نفسه، ١٢٩.

وبالنسبة للزينة فلم تهمل المرأة في ذلك العصر نفسها بل اعتنت بجسدها وبإظهار محاسنه، وتتنوعت أدوات الزينة من طلاء الأظافر، والوشم الذي زين به أجزاء مختلفة من أجسامهن، وربما هذه الظاهرة اقتصرت على المرأة المسيحية، والتي كانت تخرج إلى الكنيسة في أبهى زينتها، مما دفع رجال الدين لعقد المجامع الدينية لإثارة هذه المشكلة وحلها^(٣)، وكنَّ يخضبْنَ أيديهن وأرجلهن بالحناء -أيضاً-، ولبسنَ القلائد، والحلوق، والخواتم، بالإضافة إلى استخدامهنَّ مواد الطيب كالعنبر^(٤). وهذا يوضح اهتمام المرأة بنفسها، وأن أدوات الزينة وجدت في العصر المملوكي كما في غيره من العصور.

(٣) المظاهر العمرانية:

يبدو واضحاً أن المماليك لم يهتموا ببيت لحم من ناحية العمران والبناء كباقي المدن الفلسطينية التي كثرت فيها الجوامع، والزوايا، والخوانق، والمدارس، والحمامات، وغيرها، وفيما يأتي سنستعرض أهم المنشآت العمرانية في العصر المملوكي.

لقد سار المماليك على نهج واحد في بناء المساكن، ولكن الفوارق الطبقيّة أثرت على نوعية المواد المستخدمة وحجم البناء، حيث بنيت بعض المساكن من الحجارة الصلبة، أو الطين، وبعضها كان يتكون من طابق واحد أو طابقين، وكانت قليلة الارتفاع مستوية السطح، وقريبة من بعضها البعض، ولم يكن لها أبواب كبيرة تطل على الشارع الرئيس، بل كانت الأبواب منخفضة، والمدخل كان مظلاً وعميقاً لينتهي إلى

(١) النعل يشبه الصندل العادي ويزين وجهه بالحريز، أما المشاية هو ضرب من النعال الخفيفة تصنع من المخمل أو الجلد الأسود. ينظر: صالحية، محمد عيسى، من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية، ٢٥.

(٢) علي، علي السيد، وثائق الحرم القدسي الشريف، ٣٧٥.

(٣) نفسه، ٣٥١.

(٤) صالحية، محمد عيسى، من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية، ٣٠-٣٢.

قاعة فسيحة تفضي إلى باقي أجزاء البيت، وكذلك كانت تطل على الحدائق والتي تزرع بما لذ وطاب من الفواكه، هذا بالإضافة - بالتأكيد- لوجود غرف لسكن أهل البيت، وغرفة كبيرة تخصص لاستقبال الضيوف.^(١)

ولا بدّ أن نلاحظ أنّ منازل الفلاحين تختلف عن منازل المدينة من حيث الحجم والراحة، فمنازل المدن أكثر راحة وأكبر حجماً، أما بالنسبة لمنازل القرى فكانت تحتوي على طابق سفلي لتربية الدواجن والحيوانات، أما الطابق المرتفع عن سطح الأرض فكان مخصصاً للعائلة^(٢)، ولم تبلط المنازل لتوفر البرودة في الصيف، وكذلك لاتقاء الحرارة في الصيف، وكان الناس يقيمون العرائش فوق أسطح البيوت ليناموا فيها.^(٣)

كما يوجد في كل قرية أو مدينة في فلسطين غرفة مخصصة للضيافة، بل يكون فخراً للسكان إذا قيل إنّ كلّ بيت بالقرية هو بيت ضيافة للزوار، ومن مزايا هذه الغرفة أنها توفر المبيت والحماية والطعام له ولدابته.^(٤)

وإذا ما تجولت في بيت لحم وحاراتها ستجد بلا شك مثل هذه الآثار المعمارية، والمساكن، والبيوت والتي لم تختلف بطابعها عن باقي المدن الفلسطينية.

(١) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ٢٧٥.

(٢) رنسيان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ١ / ٣٩٣-٣٩٤.

(٣) صافي، سعيد، مدينة الخليل في العصر المملوكي، ٧٤.

(٤) فورد، ر، مع العرب في بيت الشعر والبلدة، ١١٢.

أما بالنسبة للمشاريع المائية^(١) التي اهتم بها المماليك في بيت لحم وهي برك سليمان أو برك المرجع^(٢)، وعددها ثلاث برك يعود بناء الأولى والثانية إلى النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد -أي إلى العهد الروماني- أما البركة السفلية وهي البركة الثالثة فيرجع بناؤها إلى الفترة الواقعة بين العامين (٨٦٥-٨٧٢هـ / ١٤٦١-١٤٦٧م) وقام ببنائها السلطان الظاهر خشقدم وهو أبو سعيد خشقدم المؤيد (٨٦٥-٨٧٢هـ / ١٤٦١-١٤٦٧م) وقام بترميم النظام المائي فيها بشكل شامل.^(٣)

(١) ولا بد أن نشير إلى أن البركة الثالثة كانت من أكبر البرك وأكثرها سعة، فطولها (١٧٧م) وعرضها (٩٥ - ٨٦ م) ، وعمقها حوالي (١٥ م) ، وسعتها حوالي (١١٣,٠٠٠ م مكعب) ، أما البركة الأولى فطولها (١١٦م)، وعرضها (٧٠ - ٧٢م) ، وعمقها (٦-١٢م)، وسعتها حوالي (٨٥,٠٠٠ م مكعب)، ويبلغ طول البركة الوسطى (١٢٩م)، وعرضها (٧٠-٧٦م)، وعمقها حوالي (١٢م)، وسعتها تقريباً (٩٠,٠٠٠ م مكعب) . ينظر: مجموعة باحثين، الحج، العلم، والصوفية: الفن الإسلامي في منطقة الضفة الغربية وعزة، ١٩٦-١٩٧.

(٢) يقال إن سبب تسميتها ببرك المرجع تعود إلى أن سيدنا يوسف (عليه السلام) لما أخذه إخوته وألقوه في الجب مروا به على قبر أمه، وهو بالقرب من المرجع، فلما رأى قبرها ألقى نفسه عن الناقة وقال: أمه، ارفعي رأسك وانظري ما حل بولدك من البلاء، وفقدوه ورجعوا فسمي المرجع، ولما رجعوا لطموا وجهه، وحملوه وألقوه في الجب، كما هو مشهور في القصة. ينظر: الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٨ / ٤٥٠.

(٣) العلمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٩٩.

وفي عهد الأمير بردبك^(١) انقطع الماء عن القدس والواصل إليها من قناة السبيل^(٢)، وتمت معاينة الخلل وإصلاحه، ونقشت رخامة بالأمر وألصقت بحائط درج العين^(٣) بجوار التربة الجالقية^(٤) في القدس^(٥) وكذلك عمرت قناة السبيل كما عمرت برك المرجيع (برك سليمان) في عام (١٤٨٣/هـ٨٨٨م) بوساطة الأمير قانصوه اليحياوي^(٦) وبلغت الكلفة حوالي خمسة آلاف دينار، وقام مائتا عامل في عمارتها لمدة خمسة أشهر وخمسة عشر يوماً، كما قام السلطان المملوكي الأشرف قايتباي^(٧) (١٤٦٨-١٤٦٨/هـ٩٠١-٨٧٢م) (١٤٩٦-١٤٦٨/هـ٩٠١-٨٧٢م)

(١) الأمير بردبك: وهو بردبك التاجي، استقر في وظيفة ناظر الحرمين سنة (١٤٦٧/هـ٨٧٢م). ينظر: الخالدي، أحمد، رجال الحكم والإدارة في فلسطين، ٦٢.

(٢) قناة السبيل: هي تجمع مياه الينابيع القادمة من العروب وتحديدًا من بركة الشط ومياه عيون إرطاس، ثم تجري هذه المياه جميعها في قناة واحدة تصل بيت لحم أولاً، ومنها إلى القدس، ويطلق على الجزء الأول منها أي بين العروب وبرك سليمان بقناة العروب، وما تبقى فيطلق عليه قناة السبيل، وكانت المياه التي تصل القدس تجمع في آبار وأسبلة في ساحة الأقصى و-أيضاً- في الأحياء المجاورة، ويقال إنها كانت تزود بركة الظاهر ببيرس بالماء. ينظر: عثمانة، خليل، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ٤٢٣-٤٢٥؛ العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، ٤٣٧-٤٣٨.

(٣) درج العين: وهو أحد الفروع الممتدة لخط وادي الطواحين والمتجهة إلى باب العمود أحد أبواب المدينة. ينظر: العلمي، مجير الدين، الأناضول بتاريخ القدس والخليل، ٤٠٤/٢.

(٤) التربة الجالقية: تنسب لركن الدين ببيرس، الصالحي، العجمي المعروف بالجالق، وهو من أمراء الشام في عهد دولة الملك المنصور قلاوون، وتنسب إليه التربة الجالقية الواقعة في رأس درج العين، بطريق باب السلسلة عند ملتقى هذه الطريق بطريق الوادي في القدس، توفي سنة (١٣٠٧/هـ٧٠٧م) ودفن في تربته هذه وهي الآن ملك آل الخالدي. ينظر: العلمي، مجير الدين، الأناضول بتاريخ القدس والخليل، ٣٩٥/٢؛ العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، ٥١١.

(٥) العلمي، مجير الدين، الأناضول بتاريخ القدس والخليل، ٨٧/٢.

(٦) الأمير قانصوه اليحياوي: تولى نيابة صفد بعد يلبان الأنطالي، واستمر في نيابة صفد حتى عام (١٥٠١/هـ٩٠٦م) حيث نقل إلى حجویبة دمشق، ثم تولى نيابة حماة. ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ٢٢٣/١.

(٧) السلطان الأشرف قايتباي: حكم بين الأعوام (١٤٦٧-١٤٩٥م) (١٤٦٧-١٤٩٥م)، قدم به تاجر إلى مصر عام (١٤٣٩/هـ٨٣٩م)، واشتره الأشرف برسباي، ثم ملكه الظاهر جقمق، ثم ما لبث أن ترقى بالخدمة حتى صار أمير عشرة، ثم أمير طبخانة، ثم صار أتاكياً، تولى نيابة غزة عام (١٤٨٢/هـ٨٨٧م) وأضيف إليه القدس الشريف، ونظر الحرمين الشريفين، وكشف الرملة، وقد أقام في السلطنة تسعاً وعشرين سنة، وأربعة أشهر، وعشرين يوماً حتى وفاته عام (١٤٩٥/هـ٩٠١م). ينظر: السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ٣١٢/٢؛ العلمي، مجير الدين، الأناضول بتاريخ القدس

بترميم البرك وقناة السبيل وتجديدها. (١)

كذلك أوقف الأمراء على القناة، أي قناة السبيل، الأوقاف، وتشير الوثيقة رقم (٣١١) من وثائق الحرم القدسي الشريف المؤرخة عام (١٣٤٤هـ/١٧٤٥م) إلى أنّ الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار (٢) أوقف أوقافاً على قناة السبيل. (٣)

ولعل اهتمام المماليك بإيصال المياه من هذه القنوات إلى القدس يعود إلى وجود المسجد الأقصى المبارك؛ وذلك لتشجيع الناس على البقاء فيه بعد ما حل به من أزمات أثناء الحروب الصليبية وبعدها، والتي كان لها الأثر الفعّال في استقطاب سكان جدد، وإلى زيادة سكانه، وبالتالي حركة علمية وعمرانية في الأقصى وما حوله. (٤)

كما يوجد عين في منطقة إرطاس اسمها العين وكانت المياه قديماً تصل إليها قادمة من برك سليمان، والعين هي خزان ماء رئيس ويحوي على غرفتين ويعود تاريخها إلى العصر المملوكي. (٥)

والخليل، ٣٢٨/٢؛ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١٠/١٢-١٤؛ الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ٦٠٩/٢-٦١٠.

(١) العلمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢/٣٣٠-٣٣١.

(٢) الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار: وكان أحد الأمراء الذين يشار إليهم أيام سلاار والباشنكير، وشغل نائب السلطان بمصر، قتل سنة (٧١١هـ/١٣١١م). ينظر: الصفدي، الوافي بالوفيات، ١/١٢٤-١٢٥؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٢/١٨-١٩؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ٣/٣٩٨-٣٠٠.

(٣) العسلي، كامل، من آثارنا في ثرى القدس ١٥٠.

(٤) أبو رميس، إبراهيم، ربايعه، وقف قناة السبيل في القدس من خلال الوثائق العثمانية، ١١٦.

(٥) الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٨/٤٨١.

ونشير إلى أن قرية إرطاس بلغت قمة قوتها في عهد السلاطين المماليك، وغدت مركزاً تجارياً وقضائياً مميزاً، ووجدت طواحين الغلال التي تعمل بقوة مياه إرطاس، ويوجد بقايا لقاعة محكمة وسجن - يعرف حالياً باسم الحبس- يعود إلى هذه الفترة، ويقال إن أصحاب الأرض التي يقع فيها هذا السجن أغلقوه وبنوا بيوتا حديثة بجانبه، ويمر فوقه شارع القرية الرئيس. (١)

والتقاليد التي كانت متبعة في إرطاس تشير إلى أن فلاحي القرية اعتادوا على حماية القنوات ومصادر المياه التي كانت تضخ إلى القدس، وذلك مقابل إعفائهم من دفع الضرائب، وامتيازات أخرى منها جباية الضرائب من القرى والمناطق المجاورة، وفي فترة المماليك لم يتغير الوضع، فكان زعماء إرطاس يتولون دور العدل في القرية وما حولها ، ولا أحد يعلم متى يمكن اختبار عدلهم، حيث تعرضت القرية لمذبحة من قبل أهالي القرى الأخرى بهذه الفترة. وشهدت الفترة -أيضاً- ترميماً وبناءً للقنوات المائية كما ذكرنا سابقاً. (٢)

٤) الأعياد والاحتفالات:

استمر النصرى في عصر المماليك يحتفلون بأعيادهم بحرية تامة، حيث نهج المماليك نهج الأيوبيين في هذا المجال، وشارك المسلمون النصرى ببعض الأعياد أحياناً؛ للتعبير عن احترام الديانات والتسامح الديني الذي وجد في ذلك العصر. وقد تعددت الأعياد المسيحية وتتنوعت وهي كالاتي:

(١) العيسة، أسامة، الجنة المقفلة، ١.

(٢) نفسه ، ١

١) عيد البشارة: والمقصود به بشارة جبريل (عليه السلام) للسيدة مريم (عليها السلام) بميلاد عيسى (عليه السلام)، ويأتي في الخامس والعشرين من آذار. (١)

٢) عيد الشعانين^(٢): ويقصد بهذا العيد التسبيح لأنه اليوم الذي دخل فيه السيد عيسى (عليه السلام) القدس فاستقبله الناس وهم يسبحون بين يديه، ويحملون أوراق الزيتون، لذلك يسمى -أيضاً- بعيد الزيتون، أو أحد الشعانين، أو أحد السعف، وهو يسبق عيد الفصح المجيد^(٣). أما مظاهر الاحتفال بهذا العيد فلم تختلف في سائر المدن الفلسطينية التي تضم الجاليات المسيحية في الناصرة، أو القدس، أو بيت لحم، حيث تزين الكنائس بأغصان الزيتون وقلوب النخيل، ويوزع منها على الناس على سبيل التبرك. (٤)

٣) عيد الفصح: وهو العيد الكبير عندهم، حيث يفترون من صومهم الذي يستمر عادة أربعين يوماً ويزعمون أن السيد عيسى (عليه السلام) قام من الصلبوت^(٥) بثلاثة أيام، وأقام أربعين يوماً في الأرض، ثم صعد إلى السماء، ويأتي في الرابع عشر من شهر نيسان^(٦). أما مظاهر الاحتفال به فكانت مميزة حيث يصنعون الكعك بالحليب، ويسلق البيض ويلون، ويتعايد الناس فيما بينهم بالكعك والبيض، كما كانت تقام

(١) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٨٠/١؛ لجنة من الأدباء، لبنان مباحث عملية واجتماعية، ٦٥.

(٢) الشعانين كلمة مأخوذة من السريانية (سعانين) ويقصد بها سعف النخيل. ينظر: لجنة من الأدباء، لبنان مباحث عملية واجتماعية، ٦٥.

(٣) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٨٠/١؛ ميتز، آدم، الحضارة الإسلامية، ٢/٢٠٨.

(٤) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ٢٦٧.

(٥) الصلبوت: وهو الصليب الذي يزعم النصارى أن عيسى (عليه السلام) صُلب عليه، وقد استلبه صلاح الدين الأيوبي من الفرنج يوم حطين، وفيه من الذهب ما ينيف على عشرين رطلاً مرصعاً بالجواهر النفيسة. ابن منظور، لسان العرب، مادة (صَلَب)؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٢١/١٢.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ٢/٤١٥-٤١٦؛ الدبس، يوسف، الجامع المفصل في تاريخ المواردة المؤصل، ٤٠٦.

الألعاب المسلية احتفالاً بهذا العيد^(١)، وكانت النساء المسيحيات يتزينَ ويلبسنَ أجمل الثياب، وكذلك الحال بالنسبة للرجال حيث يلبسون الملابس الفاخرة، وكان المسلمون يشاركون المسيحيين بهذا العيد ويحتفلون به.^(٢)

٤) عيد الميلاد: وهو الاحتفال بيوم ميلاد سيدنا عيسى (عليه السلام)، ويأتي في الخامس والعشرين من كانون الأول، وفيه توقد المصابيح، وتزين الكنائس، وتظهر الأفراح، ويعدون أصنافاً من الطعام والشراب، كما يقام قداس احتفالاً بهذا العيد في كل كنائس فلسطين^(٣)، ولعل إيقاد النيران كان يتم احتذاءً بيوسف النجار عندما أشعل النيران للسيدة مريم (عليها السلام)، وكانت بيت لحم في عيد الميلاد تزدهم وتزدهر لأنها المكان الذي يحج إليه المسيحيون من مختلف الأقطار في العالم، و بها كنيسة المهد التي ولد فيها - على الأرجح- السيد عيسى (عليه السلام)^(٤)، وذكر الراهب الإيطالي يعقوب دي فيرونا (Jacopo da Verona) احتفالات عيد الميلاد في بيت لحم عام (٧٣٦هـ / ١٣٣٥م) ووصفها قائلاً: "ينتظر المسيحيون من كل نواحي الأرض المقدسة والأقاليم الأخرى من سوريا، ومصر، وفلسطين، حيث يقصدون اليوم الذي جاءت فيه العذراء مريم ليلية ميلادها إلى بيت لحم، ويأتون بأعداد كبيرة"^(٥)، ثم يردف قائلاً: "حضرت حقا مساء ذلك السبت حيث تجمهر أكثر من خمسة آلاف نسمة من مختلف الجنسيات لترتل التسابيح المسائية كل بلغته، وفي قسم خاص من الكنيسة، وفي صباح العيد استلمت كل جماعة مائدة صلاة عينت لها، أما

(١) لجنة من الأدباء، لبنان مباحث عملية واجتماعية، ١٦٦.

(٢) الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ٢٨٠.

(٣) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ١ / ٣٥١؛ علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ٢٦٧.

(٤) أنطون، فرح، أورشليم الجديدة، ٤؛ الصوفي، مصطفى، طقوس احتفالات المواسم والأعياد الربيعية، ٥٦.

(٥) بنورة، توما، تاريخ بيت لحم بيت جالا بيت ساحور، ٥١.

المائدة الكبرى والعليا فللروم الأرثوذكس والتي في الأسفل إلى جانب المذود فللمسيحيين الفرنج حيث احتفلت معهم بالعيد- أيضاً-، وكنا أكثر من مئة إفرنجي مسيحي، منهم ناسكون واعظون، وناسكون صغيرون، وعدد من رجال الدين، والعلمانيين، والحجاج أقمنا احتفالاً لمجد الله، وكانت في الجانب الأيسر من الكنيسة ثلاث موائد حيث يحتفل الهنود والنوبيون والنساطرة^(١)، وإلى اليمين مائدة واحدة، حيث قبور أربعة وعشرين طفلاً بريئاً، لليعاقبة حيث يحتفل السريان، أما الجورجيون والموارنة فعلى موائد خارج الكنيسة".^(٢)

أما بالنسبة للأقلية المسلمة في بيت لحم فكانت تمارس الاحتفال بالأعياد والمواسم كما في سائر المدن، وأهم الأعياد لدى المسلمين؛ عيد الأضحى المبارك، وعيد الفطر، عدا عن المواسم والموالد.

٥) العلاقة بين المسيحيين والسلطة المملوكية في بيت لحم:

لم تكن العلاقة بين السلطة المملوكية والمسيحيين النصارى تسير على وتيرة واحدة، وكانت قابلة للتغيير والتبديل حسب الضرورة، وعلى الرغم من أن العلاقة كانت مبنية على العدالة والمساواة في مجملها إلا أن المماليك لم يترددوا في العمل ضد المسيحيين إذا بررت الظروف ذلك، أي أن العلاقة كانت متقلبة، وهو ما سنوضحه في هذا الجزء من الدراسة.

^(١) النساطرة: نشأ المذهب النسطوري في ظل الاختلاف حول طبيعة المسيح (عليه السلام)، و نسطور الذي كان بطريكاً على القسطنطينية عام (٤٣١م)، وكان يرى أن مريم (عليها السلام) ليست والدة الإله الحقيقية، إنما والدة الإنسان، وأن المسيح (عليه السلام) هو إنسان مولود من مريم (عليها السلام)، وبالتالي فنسطور هو الذي وضع أساس القول بالطبعيتين للمسيح (عليه السلام) وبالتالي فمريم ليست والدة الإله إنما هي أم المسيح الإنسان البشري. نُفي نسطور على إثرها إلى مصر إلى أن درست مقالاته مجدداً على يد برصوما مطران نصيبين، فانتشر المذهب من جديد في كل من المشرق، والعراق، والموصل، والفرات.

ينظر: ابن بطريق، التاريخ المجموع ، ١٥٨، شنودة، زكي، موسوعة تاريخ الأقباط، ١/ ١٦٠-١٦١.

^(٢) بنورة، توما، تاريخ بيت لحم بيت جالا بيت ساحور، ٥١

لقد بنيت علاقة إيجابية بين المماليك والمسيحيين، ومما يدل على ذلك أنه كان للمسيحيين حرية ممارسة شعائرهم الدينية في أماكنهم المقدسة، وكذلك الحال بالنسبة للحجاج المسيحيين الوافدين إلى الأرض المقدسة حيث زوّدهم المماليك بالترجمين والأدلاء؛ لإرشادهم وحمايتهم مقابل رسوم يدفعونها لقاء السفر المأمون، وضرائب أخرى^(١). وإن كان بعض المسيحيين يعترضون على الرسوم التي كانت تجبى من الحجاج المسيحيين، لكنها نزلت -أيضاً- بالحجاج المسلمين، وكان الدافع إلى ذلك الحاجة الملحة إلى المال، وسوء الحالة الاقتصادية، فكان المال يُطلب ويُجبي بشتى الوسائل والأساليب، وليس لذلك علاقة بالتعصب الديني، أو الاضطهاد الديني كما ظن المسيحيون^(٢). ويذكر أن تحفظات كانت تمارس من قبل السلطات المملوكية على الحجاج الوافدين؛ وذلك خوفاً من اندساس الجواسيس بينهم، وذلك لوصفهم التحصينات العسكرية، والطرق والطاقت الاقتصادية والإمكانات القتالية لدى المسلمين بعد عودتهم لديارهم^(٣).

ومن العلاقات الإيجابية -أيضاً- التي بنيت بين السلطات المملوكية والمسيحيين هي السماح لهم بترميم كنائسهم وتعميرها، وكان ذلك نابغاً من أن حرمة هذه الأماكن المسيحية، وقداستها كانت فوق كل اعتبار، وكانت سياسة المماليك إزاء ترميم الكنائس نابغة من الشرع الإسلامي وفقاً لشروط العهدة العمرية

(١) العسلي، كامل، القدس في التاريخ، ٢٢٢.

(٢) دراج، أحمد، وثائق دير صهيون، ٨.

(٣) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤ / ١٤٣.

التي أقرها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، والتي تنص أن لا يحدثوا كنيسة في مدينة، ولا فيما حولها من دير أو قلالية^(١)، أو صومعة^(٢) راهب، وأن يجددوا ما خرب من كنائسهم إلا ما كان في خطط المسلمين.^(٣)

لذلك أصدر السلاطين المماليك مراسيم ترعى مصالح المسيحيين، وتقدم المساعدة لهم، ومثالاً على ذلك: المرسوم الخاص الذي أصدره السلطان برقوق في (٧٩٧هـ / ١٣٩٤م) والذي يقضي بعمارة ما تهدم وبُلي من الأخشاب والرصاص بمهد عيسى (عليه السلام) ببيت لحم، ومنع من يتعرض إليهم بغير سبب، وكف أسباب الأذى والضرر عنهم والوصية بهم ورعايتهم^(٤)، هذا بالإضافة إلى المراسيم التي تسمح لهم بعمارة كنائسهم وما تهدم منها، حيث صدر مرسوم عام (٨٠٠هـ / ١٣٩٧م) يسمح للرهبان بإصلاح ما تهدم من مساكنهم داخل كنيسة القيامة، وتلا ذلك مرسوم بعد اثني عشر عاماً يقضي بعمارة كنيسة المهد في بيت لحم^(٥)، حيث استغل بطريك القدس زيارة السلطان فرج بن برقوق (٨٠١ - ٨١٥هـ / ١٣٩٩ - ١٤١١م) لمدينة القدس عام (٨١٤هـ / ١٤١٠م) فتقدم له بطلب يستأذنه في السماح بإعادة تعمير كنيسة المهد في بيت لحم وترميمها لإعادتها إلى ما كانت عليه، وبالفعل استجاب السلطان لذلك وأعطاه الإذن بالبداة بعمليات الترميم.^(٦)

(١) قلالية: وهي مكان مخصص لراهب واحد يبني كمنارة مرتفعاً داخل المدن. ينظر: ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ١٢-١٣.

(٢) الصومعة: تشبه القلالية ولكنها تبني خارج المدن. ينظر: الجوزية، ابن قيم، أحكام أهل الذمة، ١٣.

(٣) دراج، أحمد، وثائق دير صهيون، ٦٧-٦٨؛ الطراونة، مبارك، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة، ٨٠.

(٤) المقرزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٥/٣٧٢؛ دراج، أحمد، وثائق دير صهيون، ٤٩-٥٠.

(٥) العسقلاني، ابن حجر، أنباء العمر بأبناء العمر، ٦/٢٢٢.

(٦) عثمانة، خليل، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ٢٢٤.

ويقول المقريري في هذا الشأن: " وفيه قدم- أيضاً- إلى يافا مركب فيه فرنج معهم أخشاب وعجل وصناع برسم عمارة بيت لحم، بالقدس، حيث مولد عيسى (عليه السلام)، ويدهم مرسوم السلطان بتمكينهم من العمل، فدعوا الناس للعمل بالأجرة، فأتاهم عدة من القلعة والصناع وشرعوا في إزاحة ما بطريقهم من الأوعار، وكان سبب هذا أن موسى صبي بطريك النصارى الملكانية، سأل السلطان لما قدم إلى القدس سنة اثنتي عشرة وثمان مئة، أن يمكن النصارى من إعادة عمارة مولد عيسى (عليه السلام) في بيت لحم على ما كانت عليه، فكتب له مرسوماً بذلك" ^(١)، ^(٢) وهذا المرسوم ملحق به -أيضاً- حجج مؤرخة في سنة (١٩١٨هـ/١٥١٢م) وعددها (٥) حجج صادرة عن قضاة القدس تجيز عمارة كنيسة بيت لحم على غرار ما حدث في سنة (٨١٤هـ/١٤١١م) في عهد السلطان برقوق. ^(٣)

وأصدر السلطان جقمق مرسوماً عام (٨٥٠هـ/١٤٤٦م) يسمح فيه لرئيس دير بيت لحم ترميم ما انهدم من حوائط دير بيت لحم ^(٤)، وفي عام (٨٨٥هـ/١٤٨٠م) أصدر السلطان قايتباي مرسوماً خاصاً إلى نائب القدس الشريف أن يتقدم بتمكين الرهبان من عمارة سقف كنيسة المهد في بيت لحم على الوجه الشرطي عملاً بالفتاوي الشرعية بيدهم. ^(٥)

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٤٣/٤.

(٢) العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر، ٢٢٢/٦؛ العليمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٣٤٥/٢؛ الحنبلي، ابن العماد، شذرات من ذهب في أخبار من ذهب، ٣٣٨/٧.

(٣) دراج، أحمد، وثائق دير صهيون، ٥٢-٥٣.

(٤) نفسه، ٥٦.

(٥) نفسه، ٥٩.

وعمد السلطان خشقدم عام (٨٦٩هـ / ١٤٦٥م) إلى إصدار مرسوم يقضي بتعويض المسيحيين عما أفسد من منافعهم، وممتلكاتهم، وأرزاقهم، وعدم معارضتهم في أشغالهم لتعديت المسلمين عليهم، وتخريب ممتلكاتهم. (١)

كما أكدت السلطات المملوكية على حرية الحركة للحجاج والزوار المسيحيين عبر الطرق التي توصلهم إلى المقدسات في الناصرة، وبيت المقدس، وبيت لحم بأمان. (٢)

وبذلك نرى أن السلاطين المماليك كانوا قد التزموا بمبدأ التسامح الديني قذوة بالإسلام، وبذلك أصدروا المراسيم التي تمنع التعديت على ممتلكات المسيحيين بشكل فردي أو جماعي.

أضف إلى كل ذلك أن السلطان قانصوه الغوري (٣) أصدر عام (٩١٤هـ / ١٥٠٧م) مرسوماً خاصاً يقضي بالسماح للرهبان الفرنسيسكان (٤) بعمارة سقف كنيسة بيت لحم (١)، وكذلك أصدر عام (٩١٩هـ / ١٥١٣م)

(١) كوهين، أمنون، القدس دراسات في تاريخ المدينة، ١١٦؛ غوانمة، يوسف، تاريخ نيابة بيت المقدس، ٨٥.
(٢) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤/٥٦-٧٣؛ المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ١/٩٨٥-٩٩٠؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٧/٢٦٢-٢٧٠؛ ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ٣٤-٤٢.

(٣) قانصوه الغوري: هو قانصوه بن عبد الله الشركسي المعروف بالغوري، وغوري نسبة إلى طبقة الغور، وهو من ممالك السلطان الأشرف قايتباي، حيث اعتقه وولاه عدداً من الأعمال من مثل موظف لمراقبة الأفيان، والأراضي الزراعية، وجمع الضرائب، وظل يتولى المناصب حتى وصل الوزارة سنة (٩٠٦هـ / ١٥٠١م)، وعندما زاد الاضطراب أجمع القواد على توليته وكانت أيام حكمه مستقرة وعامرة، وليث سلطاناً خمس عشرة سنة، وتسعة أشهر، وخمسة وعشرين يوماً. ينظر: الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨/١١٣.

(٤) الرهبان الفرنسيسكان: تأسست الرهبانية الفرنسية في كنيسة سيدة الملايكة بمدينة أسيزي في إيطاليا سنة ألف ومئتين وتسع، انتشرت وامتدت وتفرعت منها عدة فروع، وأخذوا ينتشرون في أنحاء العالم يبشرون بالإنجيل، وفضلاً عن انتشارهم في أوروبا فقد انتشروا في فلسطين بعد ارتحال الصليبيين، وشيدوا الأديرة، والمعابد، والكنائس. الجمعية الأنطونية الخيرية البيتلحمية، بيت لحم، ٣٧-٣٨.

١٥١٣م) مرسوماً يقضي بمعاملة المسيحيين اليعاقبة، والملكانية، والأقباط معاملة حسنة ولائقة، وأسقط عنهم ما كان يجبي من رسوم عند قيامهم بالحج، وهو ليس بالأمر الجديد حيث أصدر السلطان جقمق عام (١٤٤٩هـ/١٤٤٩م) مرسوم حماية للطائفة الأرمنية يضمن فيه ممتلكاتهم وعدم التعرض لهم من قبل حكام المدينة. (٢)

ويذكر -أيضاً- أن شخصاً من بيت لحم قد استولى ووضع يده على قطعة أرض ملاصقة للدير وقد كان الرهبان ينتفعون بها في زراعة ما يلزمهم من الخضراوات، فشكا الرهبان ذلك إلى السلطان جقمق فأصدر مرسوماً عام (١٤٤٧هـ/١٤٤٧م) بعد أن تحرى ما جاء في هذه الحادثة وتضمن المرسوم الإقرار بتسليم قطعة الأرض لرئيس الرهبان بعد أن ثبت أنها من حقوقهم، وتضمن كذلك كف أسباب الضرر عنهم. (٣)

وأصدر الأمير أحمد بن عبد الرحيم العيني في (١٤٦٦هـ/١٤٦٦م) مرسوماً إلى الفلاحين بقرية بيت لحم، وقد كانت بيت لحم جارية في إقطاعه، وأمر بكف أسباب الأذى والضرر عنهم والوصية التامة بهم. (٤)

وقد أصدر المماليك مثل هذه المراسيم التي تقضي بإعمار الكنائس والأديرة وقد صدرت لأغلب كنائس فلسطين بما فيها كنائس القدس، والناصرية، والرملة^(٥)، وبيت لحم كما ذكرنا آنفاً، وهذا يعني أن

(١) دراج، أحمد، وثائق دير صهيون، ٦٤.

(٢) كوهين، أمنون، القدس دراسات في تاريخ المدينة، ١١٦-١١٧.

(٣) دراج، أحمد، المماليك والفرنج، ٦٢-٦٣.

(٤) نفسه، ٩٣.

(٥) الرملة: إحدى المدن العظيمة التي أحدثت في الإسلام على يد سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي، وتقع في شمال فلسطين. ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٨١٧/٢؛ السعد، جودت، مختصر البلدان في أرض كنعان، ١٢٩؛ الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٣٧٢/٢.

المماليك كانوا مهتمين بأمر المعابد المسيحية مراعين بذلك تعاليم الإسلام، ولكن لم تكن هذه العلاقة تسير على المنوال نفسه بل بُنيت علاقة سلبية ومتوترة نوعاً ما وسنورد الأمثلة على ذلك في الأسطر القادمة.

لعل العلاقات السلبية التي نشأت بين السلطات المملوكية والمسيحيين كانت في أغلبها مع الرهبان الفرنسيين، وذلك لأن الفرنسيين الذين سكنوا فلسطين في تلك الفترة كانوا من الفرنج، لذلك لم يتوانوا في السعي لتحقيق بعض الأهداف الصليبية، أي لم يستطيعوا أن يفصلوا بين مهمتهم الأصلية؛ وهي دينية بحتة، وبين الأهداف السياسية التي سعى الفرنجة إلى تحقيقها في الأراضي المسيحية. (١)

تزايد النشاط السياسي للرهبان الفرنسيين، فغلبت الصفة السياسية لأهدافهم على الصفة الدينية، مما حدا بالسلطات المملوكية أن تعاملهم على نحو سيء، ومثالاً على ذلك وهو ليس المثال الوحيد إصدار السلطان جقمق عام (٥٨٤٤هـ / ١٤٤١م) أمراً بالقبض على الرهبان الفرنسيين المقيمين بدير بيت لحم وصهيون وزجهم في السجن، وذلك لأنهم نقلوا إلى فرسان الإسبتارية (٢) أخبار الاستعدادات الحربية لحملة الاستيلاء على رودس (٣). (٤)

(١) دراج، أحمد، وثائق دير صهيون، ٦.

(٢) فرسان الإسبتارية: وهم فرقة عسكرية تأسست عام (٥٢٤هـ / ١١٣٠م) تابعة للكنيسة الكاثوليكية، غالبيتهم من التجار الإيطاليين، رايتهم حمراء، وعليها صليب أبيض، وقد أنشأوا لهم في الديار المقدسة مؤسسات لترعى المسيحيين الوافدين من أوروبا إلى القدس للحج وطلب المغفرة. ينظر: مقامي، نبيلة، فرقة الرهبان الفرسان في بلاد الشام، ١٦-١٧.

(٣) رودس: وهي جزيرة ببلاد الروم قديماً، أما اليوم فهي تنتمي لمجموعة جزر الدويكانيز، وعددها ١٢ جزيرة رودس هي أكبرها، وكانت قديماً دار صناعة الروم، وبها تبنى المراكب البحرية، وفيها خلق من الروم مراكبهم تقارب بلاد الاسكندرية وغيرها من بلاد مصر، فتغير، وتسبي، وتأخذ، طبيعة هذه الجزيرة صخرية وتحوي أودية خصبة، تجري فيها المياه، وغابات وعيون عذبة، وعاصمتها تحمل نفس التسمية، وامتازت رودس بموقعها المتميز الاستراتيجي إذ تقع بالقرب من الساحل الجنوبي لتركيا. ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٣/٧٨؛ غزالة بك، حبيب، جزيرة رودس (جغرافيتها وتاريخها وآثارها)، ٩.

(٤) دراج، أحمد، المماليك والفرنج، ٥٦.

وفي حادثة أخرى شن فيها القراصنة البروفانسيون^(١) غارة على ميناء الإسكندرية وأسروا كبار تجارها المسلمين، وتوجهوا بهم إلى بلاد الفرنج، فما كان من السلطات المملوكية إلا أن تأسر كبار تجار الفرنج المقيمين بالإسكندرية وتصادر أموالهم ومتاجرهم، بل وتلزمهم بمكاتبة ملوك الفرنج للضغط عليهم بالإفراج عن التجار المسلمين، ولما لم يكن لهذه الاجراءات المملوكية أي اعتبار عند الفرنج، فما كان من السلطان قايتباي إلا أن أصدر أمراً عام (١٤٧٦هـ/١٤٧٦م) بالقبض على جميع الرهبان الفرنسيين المقيمين في دير صهيون، وفي بيت لحم، وفي كنيسة القيامة، ومن ثم إرسالهم إلى القاهرة، وكانت هذه الوسيلة الأنجع والأسرع إذ استجاب الفرنجة وأطلقوا سراح التجار المسلمين، والجدير بالذكر أن التعرض للرهبان لم يكن بدافع الكراهية أو الرغبة في التنكيل بهم، بل إن هذا الإجراء اضطرت إليه السلطات المملوكية؛ لإرجاع التجار المسلمين، وإجبارهم على وقف مثل هذه الغارات التي كانت تستهدف الموانئ والسواحل الإسلامية، وبعد انتهاء هذه الأزمة عاد الرهبان إلى أديرتهم في ظل التسامح الذي كانوا يعاملون به.^(٢)

وبين هذا وذاك من العلاقات المتذبذبة بين المسلمين والمسيحيين إلا أننا نرى أن الهدوء والإخاء والمحبة سادت بينهم ولفترات طويلة، فقد نظمت في عام (١٣٢٢هـ/١٣٢٢م) صلاة استسقاء مشتركة بين المسلمين، والمسيحيين، واليهود؛ لانحباس الأمطار، وكذلك يذكر أن المسلمين كانوا رجالاً ونساءً يدخلون إلى الكنائس والأماكن المسيحية المقدسة دون أي اعتراض من قبل النصارى.^(٣)

(١) البروفانسيون: وهم قراصنة يعودون بالأصل لمنطقة بروفنس تقع في جنوب شرق فرنسا وتطل على البحر الأبيض المتوسط تجاور إيطاليا، تشتهر بمواقعها التاريخية والسياحية. ينظر: هايد، ف، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ٣٥٠.

(٢) دراج، أحمد، المماليك والفرنج، ١٠٦-١٠٧.

(٣) الدجاني، هادية وآخرون، الصراع الإسلامي الفرنجي في العصور الوسطى، ٤٦٣-٤٦٦.

ثالثاً: الأحوال الاقتصادية في بيت لحم في العهد المملوكي:

(١) الإنتاج الزراعي والثروة الحيوانية :

- الإنتاج الزراعي:

لعبت العوامل الطبيعية دوراً مهماً في الإنتاج الزراعي، فللموقع الجغرافي، وطبيعة الأرض، ونوع التربة ومدى خصوبتها دور في تحديد حجم ونوع الإنتاج الزراعي، -وكما ذكرنا سابقاً- فقد لعب موقع بيت لحم وطبيعتها دوراً في الزراعة، سواء أكان هذا في العهد الأيوبي، -كما ورد في الفصل السابق-، أم كان في العهد المملوكي الذي نحن بصدد دراسته حالياً.

ازدهرت الزراعة بشكل واضح في العهد المملوكي، وقد أولى السلاطين اهتماماً كبيراً بالزراعة؛ لأنها تشكل الحرفة الأولى لغالبية السكان، كما أنها المورد الأول الذي كان يعتاش عليه أهالي فلسطين عامة وبذلك كان لا بد من فرض نظم إقطاعية لتنظيم الزراعة في فلسطين؛ وأمثلة ذلك كثيرة، نذكر منها -على سبيل الحصر- : أن السلطان الظاهر بيبرس عندما فتح قيسارية عام (٦٦٣هـ / ١٢٦٤م) وزع الإقطاعات على الأمراء والمجاهدين، وكتب مكتوباً جامعاً بالتمليك^(١)، ومن ذلك-أيضاً- أنه عندما رحل السلطان الظاهر بيبرس إلى القدس عام (٦٦١هـ / ١٢٦٢م) أمر بتعمير الأوقاف فيها "ونادى بالقدس ألا ينزل أحد في

(١) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ٢١/٢-٢٤؛ عاشور، سعيد، العصر المماليكي في مصر والشام، ٢٨٣.

زرع^(١)، كذلك بُني في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون الكثير من الجسور في المناطق الساحلية والأغوار، وأوقف عليها الأوقاف. ^(٢)

وقد وصف العديد من الرحالة - الذين زاروا فلسطين في العهد المملوكي - حديثاً مطولاً عن خصوبة أرض فلسطين وذلك لما فيها من تنوع في الأقاليم، بالإضافة إلى موارد مائية وينابيع، وطبيعة تضاريسية متنوعة. ^(٣)

وبالنسبة لبيت لحم فقد ذكرت على أنها من أخصب الأراضي لأنها تقع بين الجبال، وبها أشجار متنوعة ما بين الزيتون، والتين، والجميز، وأنواع الفواكه كافة ^(٤)، ويذكر أنها كانت مكتظة بالسكان الذين يعتمدون على الزراعة لكسب لقمة عيشهم، وكانت أراضيها تزرع بالقمح، والكروم، والزيتون، كما أنه يوجد بها المراعي، ومن هنا نستنتج أنه غلبت عليها الحياة الريفية التي تتصف بالهدوء، وقد ذكر فيليكس فابري (Félix Fabri) ذلك حينما زار فلسطين في عامي (١٤٨٠هـ/١٤٨٠م) و(١٤٨٣هـ/١٤٨٣م) حيث قال: " توجد في قرية الرّب ويقصد بيت لحم، حياة ريفية مضمونة بالهدوء ... والفلاحون يعملون في الكرمة، ويقلمون الأشجار بالسكينة المثلمة ". ^(٥)

(١) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ١ / ٥٥٦.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ١٠ / ٢١٣-٢١٤.

(٣) للمزيد ينظر: خسرو، ناصر، سفر نامة، ١ / ٥٤؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ١ / ٣٥٦؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ٣٣٩؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ٤ / ١٥٤-١٥٥.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ١٥٨؛ القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ٤ / ٩٢.

(٥) زكّار، سهيل، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ٣٨ / ٧٣٤.

وقد ذُكر لنا الرحالة ناصر خسرو أن القرى المجاورة لبيت المقدس كانت تلبّي حاجتها من الغذاء وذلك لوجود الأودية وخاصة في المنطقة الممتدة ما بين بيت المقدس، وبيت لحم، والخليل، وأضاف أن بهذه المناطق الممتدة قرى كثيرة، وزروعاً، وحدائق، وأشجاراً برية لا تحصى من العنب، والتين، والزيتون، والسماق^(١). وتعدّ هذه المنطقة الممتدة بين بيت المقدس والخليل، وما تخللها من قرى عامرة يسكنها المسيحيون (وقد تكون إحدى هذه القرى المقصودة هي بيت لحم)، ذات أراضي خصبة، يزرعها سكانها بالنباتات، وكذلك تميزت بوفرة موارد المياه فيها وكثرتها.^(٢)

ويمكن حصر الإنتاج الزراعي في بيت لحم ما بين أشجارٍ مثمرة، وزراعات تغلها الأرض، أما بالنسبة للأشجار فشجر الزيتون هو الأول على رأس قائمة الأشجار المثمرة، وأشجار الكروم ثانياً؛ وقد اهتم بزراعتها المسيحيون؛ وذلك للاستفادة منها في صناعة النبيذ، ومن الأشجار -أيضاً- التين لكنه لم يكن بوفرة أشجار الزيتون والكروم وكثرتها.^(٣)

أما المحاصيل الأخرى كالقمح الذي كان يُزرع في المناطق السهلية والواديان فكانت قليلة، ولتلبية حاجات السكان كان القمح يستورد من منطقة شرقي الأردن التي كانت تشتهر بزراعته في العصر المملوكي^(٤)، وتركزت زراعة الشعير حول الكرم^(٥)،

(١) سفر نامة، ٣٢.

(٢) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ١٩٣.

(٣) العلمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢/٤٠٩-٤١٠.

(٤) Lewis, Chhen, **Population and Revenue in the towns of Palestine in the Sixteenth Century**, p487 .

(٥) الكرم: في الجنوب الشرقي من يطا في آخر حدود الخليل، تعني المثمر أو المشجر. ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٤/٤٦٥؛ الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٥/٢٢٧؛ السعد، جودت، مختصر البلدان في أرض كنعان، ١٩٤.

والسموع^(١)، وعند حافة صحراء النقب في الجنوب، وفي الشمال حول قرى بيت أمر،
وسعير إلى امتداد بيت لحم^(٢).

وبالنسبة للأدوات الزراعية التي استخدمت في المدن الفلسطينية في العصر المملوكي، منها:
المحراث الخشبي، وهو محراث بسيط له سكة ذات رأس مدبب من الخشب وأحياناً من الحديد، وبسبب خفة
وزن هذا المحراث فإنه لا ينغرس عميقاً في الأرض^(٣)، وتُجر هذه الآلة عن طريق المواشي كالبغال
والأبقار^(٤).

واستخدم فلاحو مدينة القدس وما حولها الفؤوس، إذ كانت ذات رأس حاد، وصنعت خصيصاً
للأراضي الوعرة، وقد ذكر ذلك ياقوت الحموي عندما تحدث عن مدينة القدس قائلاً: "وزرعها على الجبال
وأطرافها بالفؤوس، لأن الدواب لا صنع لها هناك"^(٥)، وقد استخدم الفلاح الفؤوس لأنه لا يستطيع أن يحرث

(١) السموع: تقع على بعد ١٤ كم جنوب الخليل، وتعدّ آخر معالم المنطقة الجبلية الفلسطينية، وتحيط بها أراضي يطا، ودورا
والظاهرية، وقضاء بئر السبع، قرية تهتم بالزراعة وخاصة زراعة التين، والزيتون، والعنب، وتعنى كثيراً بتربية الماشية، وبعض
سكانها يصنعون بيوت الشعر (البسط). ينظر: الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٢٣٠/٥، السعد، جودت، مختصر البلدان
في أرض كنعان، ١٣٦.

(٢) Theoderich, **Guide to the Holy Land**, p53.

(٣) قسطوس، الرومي، الفلاحة اليونانية، ٢٢؛ اشتور، أ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور
الوسطى، ٦٣.

(٤) المقريري، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤/٨٢-٨٣.

(٥) معجم البلدان، ٥/١٦٨.

أرضه بوساطة المحراث في الأراضي الجبلية الوعرة، وكذلك استخدمها للنكش حول النباتات المزروعة والأشجار المثمرة، وقد تكون استخدمت لحفر الآبار.^(١)

ومن الجدير بالذكر أن أهالي بيت لحم كان أغلبهم من الفلاحين، ومما يؤكد ذلك وثيقة مملوكية صدرت في عهد السلطان جقمق^(٢) عام (١٤٤٧هـ / ١٤٤٧م) حيث ورد فيها أن سكان قرية بيت لحم معظمهم فلاحون -وهو حال معظم سكان فلسطين-^(٣)، ويبدو أن أوضاع الفلاحين لم تكن جيدة في الفترة المملوكية حيث تعرضوا للجور، والظلم، والحياة القاسية^(٤)، وقد أدت إجراءاتهم التعسفية، ومنها زيادة فرض الضرائب، إلى فرار الفلاح من قريته والسكن في المدن، وبالتالي ترك الأرض من غير زراعة^(٥)، أو أن يقوم بوقف أرضه على الأماكن المقدسة في القدس، فالأرض الموقوفة تكون معفاة من دفع الضرائب.^(٦)

(١) صالحية، محمد عيسى، علم الريافة عند العرب، ٣٩-٤٠.

(٢) السلطان جقمق: هو الظاهر سيف الدين جقمق حكم بين الأعوام (٨٤٢-٨٥٧هـ / ١٤٣٨-١٤٥٣م) جلبه إلى مصر الخواجا كزلك، اشتراه وهو صغير العلاء علي بن الأتابك إينال اليوسفي، فتولى تربيته، ثم أرسله إلى الحجاز وأعتقه، أخذه من بعد ذلك الظاهر برقوق لأخيه وأنعم عليه، وترفع بعدها في المراتب فأصبح ساقياً، ثم أمير عشرة، ثم أمير طببخانه، ثم خازن دار، ثم استقر في الحجوبية الكبرى في عهد السلطان الأشرف برسباي، ثم نقل إلى منصب الأخرية الكبرى، وبعدها نقل إلى إمرة السلاح، فالأتابكية، فوصياً على العزيز بن الأشرف برسباي إلى أن خلعته سنة (٨٤٢هـ / ١٤٣٨م) وأعلن نفسه سلطاناً واستمر بالحكم إلى أن عهد بالسلطنة لولده المنصور أبي السعادات عثمان عام (٨٥٧هـ / ١٤٥٣م). ينظر: الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٩/٤٢٥-٤٢٦. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٣٢/١٥-٣٥.

(٣) العسلي، كامل، وثائق مقدسية تاريخية، ٦٣.

(٤) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ٣٤؛ علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ١٩٦.

(٥) لابيدوس، ايرا، مدن الشام في العصر المملوكي، ١٤٦.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ١/٣٦٦-٣٦٧؛ مكاحلة، نهى، الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي، ٢٤٢.

ورغم أن الإنتاج الزراعي شكل مورداً مهماً في الاقتصاد في ذلك الوقت فإن هذه الاجراءات أثرت سلباً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

وكان للظواهر الطبيعية أثر سلبي على الزراعة، ففي عام (١٤٩٣هـ/١٨٧٧م) كان لتراكم الثلوج في بيت لحم لمدة تزيد على العشرين يوماً^(١) أثر في خراب المزروعات وغلائها^(٢)، وفي عام (١٧٤٣هـ/١٣٤٢م) هاجمت فلسطين موجة كبيرة من الجراد التي أكلت الأشجار، ولم تبق منها شيئاً حتى خشبها^(٣). وبذلك فقد ألحق الجراد دماراً واسعاً شمل؛ الزراعة، والشجر في المناطق التي أصابها الجراد.

وقد أجدبت القدس وما حولها في عام (١٤٢٢هـ/١٨٢٥م) لعدم سقوط الأمطار في أوانها، حيث قلت المياه، وبالتالي تراجع الإنتاج الزراعي، وأحياناً أخرى كان لغزارة الأمطار أثر سلبي على الزرع، كما حصل في عام (١٤٣٣هـ/١٨٣٧م) حيث سقطت أمطار غزيرة، فأحدثت سيولاً، ودمرت السدود، وأفسدت المزروعات في القدس وما حولها، وكذلك الحال كان في غزة^(٤). كل هذه الظروف الطبيعية كانت تؤثر على الإنتاج الزراعي من جهة وعلى السكان من جهة أخرى، فارتفعت الأسعار، وقلت المزروعات، وهاجر السكان من المناطق المنكوبة إلى مناطق أخرى مما أدى إلى بعض التغيرات الديموغرافية وكذلك الاقتصادية.

(١) بنورة، توما، تاريخ بيت لحم بيت جالا بيت ساحور، ٥٤.

(٢) الذهبي، شمس الدين، العبر في خبر من غير، ٣٠٣/٦.

(٣) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٣٧٩/٤.

(٤) المقرئزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٢٦١/٧؛ أبو شلوف، نسيم، الأوضاع الاجتماعية في فلسطين في العهد المملوكي، ٩٩.

- الثروة الحيوانية :

استخدم الفلاحون الآلات الزراعية البدائية التي تحتاج إلى الدواب لتجرها، فوجدت الثيران، والحمير والبغال التي استخدمت لجر الآلات الزراعية، وأحياناً إن توافرت الأبقار والجواميس فإنها تستخدم للغرض نفسه^(١). إلا أنها كانت قليلة، ونادراً ما كانوا يذبحونها، ويأكلون لحومها، ولعل الحمير كانت من أعلى ما يملك الفلاح في تلك الفترة، فكانت وسيلته في حمل أثقاله عليها، وكذلك في حراثة حقله، أضف إلى أنها وسيلة تنقل للأماكن البعيدة، حيث كان أهالي بيت لحم والقدس يعتمدون عليها في تنقلاتهم الداخلية وكذلك كانوا يقومون بتأجيرها للسياح والحجاج المسيحيين الغربيين ليستخدموها في تنقلاتهم داخل الأراضي المقدسة.^(٢)

وتوفرت كذلك بعض الحيوانات الرعوية؛ كالأغنام، والخيل، والجمال، التي كانت تستخدم أيضاً- للتنقل، وكانت تتغذى على النباتات الشوكية، ولا تحتاج إلى عناية كبيرة، وكان يقضي الفلاح أوقاتاً ممتعة في رعاية المواشي وخاصة في فصل الربيع.^(٣)

(١) علي السيد، علي، القدس في العصر المملوكي، ١٩٧٠؛ غوانمة، يوسف، التاريخ الحضاري، ٥٥.

(2) Smith, George Adam . **Jerusalem, the topography, economic and history from the earliest time to A.D** . Vol 1. P 308-309.

(٣) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ١٧٠-١٧١.

٢) الصناعة:

من الأنشطة الاقتصادية الأخرى التي تمتع بها سكان بيت لحم هي الصناعة، وعلى الرغم من صغر حجم هذه الصناعات وقتها؛ لطبيعة المنطقة الجبلية والفقيرة نوعاً ما ، إلا أنها على الرغم من ذلك فقد قامت فيها بعض الصناعات الخفيفة.

ومن أهم الصناعات التي توافرت في هذه البقعة الجغرافية صناعة عصر الزيتون واستخراج الزيت وقد اشتهرت كذلك المناطق المجاورة لبيت لحم بهذه الصناعة كالقدس، والخليل؛ وذلك لتوافر أشجار الزيتون^(١)، وقد ذكر عدد من الرحالة الأوروبيين: أن بيت لحم وبيت ساحور غنية جداً بأشجار الزيتون^(٢) فوجدت معاصر الزيتون في معظم القرى الشامية، وربما السبب الرئيس للاشتغال بهذه الصناعة هي -أيضاً- الطلب المحلي المتزايد على زيت الزيتون كغذاء رئيس للسكان.^(٣) ونتج عن هذه الصناعة صناعات أخرى مثل: صناعة الصابون في كل من القدس والخليل، ولكن لم يرد في أي مصدر اشتهار بيت لحم بهذه الصناعة.

ومن الصناعات التي اشتهرت بها بيت لحم -أيضاً- صناعة الحفر على خشب الزيتون، وهي صناعة قديمة تعود للفترة البيزنطية واستمرت حتى الفترة المملوكية، لكنها تطورت لسببين رئيسين: التشجيع الذي لقيته هذه الصناعة من قبل السلاطين المماليك، واعتمادها على الأخشاب المحلية ، أما السبب الثاني

(١) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ٨٤.

(٢) الجندي، إبراهيم، فلسطين في عيون الرحالة الأوروبيين، ١٥٠.

(٣) غوانمة، يوسف، التاريخ الحضاري، ٨٤.

فهو زيادة تدفق الحجاج المسيحيين والزوار من الغرب الأوروبي دون أي مضايقات من قبل سلطات الدولة، حيث توافرت وسائل الأمن في المدن المقدسة التي يقصدها هؤلاء الحجاج والزوار في فلسطين. (١)

وكان للربان الفرنسيين الذين أقاموا في بيت لحم والقدس في تلك الفترة دور في ازدهار صناعة الحفر على الخشب كتشكيل الأدوات، والأشكال ذات المعنى الديني كالتحف التذكارية، والتماثيل الخشبية للأماكن المقدسة المرصعة أحياناً بالصدف، والتي كانت بطبيعة الحال تجذب نظر الحجاج والزوار وبالتالي تلقى رواجاً في الشراء. (٢)

واشتهرت بيت لحم بصناعة الشمع كونها من المدن المقدسة ومقصد الحجاج، وقد كان الشمع مرغوباً لدى الأجانب والحجاج المسيحيين حيث يوقدونه داخل الكنائس طوال الأعياد والاحتفالات الدينية الخاصة بهم، ومنهم من كان يأخذ هذه الشموع معه إلى الخارج ويشعلونه في كنائسهم في الغرب الأوروبي تبركاً بها لأنها صنعت في الأراضي المقدسة. كذلك وجدت في هذه الأراضي المقدسة صناعات خفيفة كالمشغولات الفضية والذهبية والتي يقبل عليها حجاج كل من بيت المقدس و بيت لحم. (٣)

(١) توما، بنورة، تاريخ بيت لحم بيت جالا بيت ساحور، ١٤٩.

(٢) الجندي، إبراهيم، فلسطين في عيون الرحالة الأوروبيين، ١٥٠.

(٣) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ١٩٩؛ النقر، محمد، تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، ١٢٦.

هذا وقد اشتهرت بيت لحم بزراعة الكرمة حيث اعتمدت العائلات النصرانية على نفسها في صناعة النبيذ، وكانت هذه الصناعة تلقى رواجاً بين النصارى، وكانوا أحياناً يبيعون الخمر والنبيذ للفاسق من المسلمين. (١)

وقد ساعدت بيت لحم مدينة بيسان^(٢) في صناعة الحصر السامانية والتي تعتمد بالأساس على نبات السامان^(٣)، وكان دور بيت لحم في هذه الصناعة هو صبغة الحصر بالألوان المختلفة، ومن الواضح أن من كان يقوم بهذه العملية هم اليهود^(٤)، وهو ما تطرق له الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي (Benjamin of Tudela) عندما زار بيت لحم فقال: "إن بها أحد عشر يهودياً يحترفون الصباغة"^(٥). وهذا يدل على توافر هذه الصنعة في بيت لحم واشتغال اليهود الذين يسكنون بيت لحم بها؛ وربما احترف هذه الصنعة طوائف أخرى، إلا أنه لم يرد ذكر ذلك في أي مصدر معروف.

(١) خسرو، ناصر، سفر نامه، ١/ ٥٥؛ علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ١٩٩-٢٠٠؛ النقر، محمد، تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، ١٢٧.

(٢) بيسان: بلدة من أقدم بلدان فلسطين وتقع في شمالها، يعود تاريخها إلى ما قبل العصور التاريخية، أي إلى أكثر من ٦٠٠٠ سنة، ودعت بيت شان في العهد الكنعاني، وأخذ اليهود هذه التسمية عنهم، ولها أهمية تجارية وعسكرية لوقوعها على الطريق الذي يصلها بشرق الأردن، وحووران، ودمشق من جهة، ومدن فلسطين الساحلية، فمصر من جهة أخرى، بالإضافة إلى أهميتها الزراعية لوقوعها في غور خصب، و بها عين الفلوس ويقال إنها من الجنة، وهي عين فيها ملوحة يسيرة، وتوصف بكثرة النخل. ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ١/٥٢٧؛ الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٦/٤٦٢

(٣) نبات السامان: ويعتقد البعض أن نبات السامان هو نفسه نبات الحلفا الذي ينمو في مدن الغور بشكل كبير، وهو نبات يتجاوز ارتفاعه الذراع، ساقه وزهره أبيض، وينبت هذا النبات في بيسان ولا يوجد إلا بها وليس في سائر الشام شيء منه. ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ١/٣٥٦؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ١١٩؛ غوانمة، يوسف، تاريخ نيابة القدس في العصر المملوكي، ١١٢؛ الطراونة، طه ثلجي، مملكة صفد في عهد المماليك، ١٧٤.

(٤) غوانمة، يوسف، التاريخ الحضاري، ١١٢؛ الطراونة، طه ثلجي، مملكة صفد في عهد المماليك، ١٧٤.

(٥) التطيلي، بنيامين، رحلة بنيامين التطيلي، ٢٥٦.

٣ التجارة:

من الطبيعي أن يرتبط النشاط التجاري بالأنشطة الاقتصادية الأخرى - أي الزراعة والصناعة - فإذا ما كانت هذه الأنشطة منتعشة ومتوافرة فإن النشاط التجاري يتأثر إيجاباً، وينمو، ويزدهر، وبالنسبة للتجارة في فلسطين في العصر المملوكي فقد شهدت نمواً وازدهاراً، خاصة في عصر دولة المماليك الأولى (البحرية) ، وتعرضت لنكسات في فترة دولة المماليك الثانية (البرجية أو الجراكسة)^(١)، فالاستقرار الأمني وقوة السلاطين الذين حكموا في الفترة الأولى كالسلطان الظاهر بيبرس^(٢) والسلطان قلاوون^(٣) ومن بعده السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان له الأثر الأكبر في استقرار الأوضاع، وازدهار التجارة، والأنشطة الأخرى، عكس ما كانت عليه الأوضاع في الفترة الثانية حيث كثرت الاضطرابات والثورات مما ألحق تراجعاً في الأنشطة الاقتصادية بعامه.^(٤)

(١) النقر، محمد، تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، ١٢٧

(٢) الظاهر بيبرس: هو السلطان الملك الظاهر ركن الدين، أبو الفتوح، بيبرس بن عبد الله، البندقداري، الصالحي، النجمي الأيوبي، ولد في صحراء الفيحان، وهي قبيلة تركية كبيرة، تولى السلطة سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠ م) بعد أن قتل قطز، وأصبح سلطان الديار المصرية، والبلاد الشامية، والأقطار الحجازية، ويعد كذلك المؤسس الحقيقي لدولة المماليك البحرية، توفي سنة (٦٧٦هـ/١٢٧٨م). ينظر: الذهبي، العبر في خبر من غير، ٣٠٨/٥؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ٢٠٧/١٠-٢٠٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٣٦/٧؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ٩٤/٧-٩٥.

(٣) المنصور قلاوون: هو السلطان المنصور سيف الدين قلاوون، الألفي، العلاتي، الصالحي، أحد ممالك الأتراك البحرية، وقد ترقى في الوظائف بعد أن تملكه الملك الصالح نجم الدين، وفي سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) عين ملكاً على مصر ولقب بالمنصور فكان عصره عصر رخاء ورفاهية، توفي سنة (٦٨٩هـ/١٢٩٠م). ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ١٥٨/٤؛ ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ٦٧-٦٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ٢٨٩/٧-٢٩٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٨٨/١٣-٢٨٩؛ عبد الوهاب، حسن، العمارة الإسلامية، ٨٥؛ المعاصيدي، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، ٢٣٩.

(٤) العلمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ١/ ٦٨٦

كذلك كان للأوبئة، والأمراض، والمجاعات، التي تضرب فلسطين أثر في نقص المواد الغذائية وبالتالي؛ حصل ارتفاع وتضخم في أسعار المواد الغذائية، بالإضافة إلى سلعٍ أخرى مما أثر على التجارة وخاصة في فترة حكم دولة المماليك الثانية أي الجراكسة^(١)، حيث تعرضت بلاد الشام في عصر دولة المماليك الأولى عام (١٣٤٧هـ/١٣٤٧م) لطاعون أطلق عليه اسم "الفناء الكبير"؛ لشدة فتكه، وسعة انتشاره^(٢) وأفنى العديد من سكان مدن دمشق، وحلب، وصفد، والقدس، والكرك، وعجلون، ونابلس، وجنين، والرملة^(٣) أما في فترة دولة المماليك الثانية استمر ظهور الأمراض التي تقتكُ بالسكان، وتميزت عن فترة دولة المماليك الأولى؛ أنها كانت تختفي ثم تعود مجدداً أشد فتكاً وقتلاً، ففي عام (١٣٩٢هـ/١٣٩٢م) تفشت الأمراض والأوبئة الكثيرة في غزة، والقدس، وحلب، وحصدت الكثير من أرواح السكان، و-أيضاً- في عام (٨١٩هـ/١٤١٦م) ضرب دمشق وباء وانتقل إلى كل من القدس، وصفد، وطرابلس، وحصد يوماً حوالى مائتي شخص^(٤). وبذلك فإن مدينة بيت لحم كانت جزءاً من هذه البلاد وما تعرضت له البلاد تعرضت هي له.

وأهم الآثار المترتبة على هذه الأوبئة أن الغلاء الشديد قد عم ، وارتفعت الأسعار وخصوصاً المواد الغذائية، ومستلزمات التكفين من القماش ونحوه؛ وذلك لازدياد الوفيات، واغتنى أرباب الصنائع، والحرف

(١) علي، علي السيد ، القدس في العصر المملوكي، ٢٠١-٢٠٢.

(٢) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ٨٣٤/٧، ٨١٢-٨٣٧؛ المقرئ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٨٢/٤؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٣٣٣-٣٤؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٩٧/١٠.

(٣) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ١١٤.

(٤) ابن حجر، العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر، ٨٧ / ٣، الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١٣٤/٣.

والباعة وأصبحوا بمكانة مرموقة في المجتمع بغناهم^(١)، هذا وقد قلت أعداد الفلاحين؛ لكثرة الوفيات، وأدى ذلك إلى خراب القرى وتدميرها، إضافة إلى منع الفلاحين من مغادرة أراضيهم إلا بعد ثلاث سنوات من العمل بها حسب المراسيم الصادرة.^(٢) وقد كانت بيت لحم كغيرها من مدن فلسطين وقرائها جزءاً من هذه القوانين.

ومن هنا نستنتج أن التجارة تأثرت وبشكل ملحوظ بالظروف الطبيعية، وبأحوال البلاد السياسية، أما بالنسبة للأوبئة والأمراض، فقد تم التركيز على الأوبئة التي ضربت فلسطين وبالأخص مدينة القدس حيث كانت هذه الأوبئة تؤثر عليها وعلى ما حولها من المناطق ومنها بيت لحم.

أما بالنسبة للأسواق التي خدمت النشاط التجاري فقد كانت المدن الفلسطينية الكبرى تلبي حاجات القرى والمناطق المجاورة لها، أي أنها كانت المركز الذي تتوفر فيه حاجات السكان من سلع ومواد غذائية وأحياناً كانت هذه المدن الكبرى تعتمد على القرى المجاورة في تلبية وسد حاجاتها، أي أن العلاقة كانت تكاملية، وقد كان لكل سلعة سوق خاصة بها وهو ما اشتهرت به الأسواق في ذلك الحين^(٣). ومن هنا نجد أن بيت لحم تعد من القرى المجاورة للقدس، فكانت أحياناً تسد حاجات أسواق القدس من سلع ومحصولات زراعية، وأحياناً أخرى يشتري سكان بيت لحم حاجياتهم من أسواق القدس.

(١) السخاوي، وجيز الكلام في الذيل على دول الاسلام، ١٢٣٩/٣

(٢) السبكي، عبد الوهاب، معيد النعم ومبيد النقم، ٣٤.

(٣) العليمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٥٠ / ٢.

وذكر أن القدس اشتهرت بكثرة أسواقها وتنوعها؛ لوفرة المحاصيل الزراعية، وازدهار الصناعة فيها - كما ذكرنا سابقاً - بالإضافة إلى موقعها المتوسط بين النيبات الثلاث^(١)، و كانت القرى والمناطق المجاورة لها كبيت لحم مثلاً مصدراً آخر لإنعاش الحياة التجارية بها، حيث جلب فلاحو بيت لحم كميات وفيرة من الحبوب، وأنواعاً مختلفة من البقوليات إلى القدس^(٢)، وأخذوا يتاجرون بالزيتون، والكروم، والقمح والشعير الذي يزرعونه في أراضيهم^(٣). ومما لا شك فيه أن بيت لحم اشتملت على سوق خاص بها وبأهالي القرية، إلا أننا لم نجد في المصادر أو المراجع ما يؤكد ذلك، باستثناء ما ذكره الحموي أنها تشمل "سوق وبازارات"^(٤).

وكانت التجارة في فلسطين تنتعش في فترة المواسم والأعياد، حيث كان الحجاج الغربيون القادمون إلى المدن المقدسة في فلسطين يشترون السلع الشرقية من هذه المناطق ويحملونها معهم إلى الخارج، ومن هذه السلع المسابح المصنوعة من أخشاب الزيتون، أو العاج، والحلى الصغيرة كالخواتم، والأقراط التي تصنع محلياً وتباع في القدس وبيت لحم والأماكن المقدسة الأخرى^(٥)، وهذا بلا شك قد أوجد -أيضاً- الأسواق الموسمية التي تفتح أبوابها مع بداية هذه المواسم، ومن هذه الأسواق "سوق السعف" والذي يباع به سعف

(١) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ٢٢

(2) Frances R. Ryan, and H.S. Fink, **Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem**, p232

(٣) النقر، حافظ، تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، ١٢٧.

(٤) معجم البلدان، ١/ ٥٢١.

(٥) زكي، نعيم، طرق التجارة الدولية، ٦٩.

النخيل المهمة في فترة الحج المسيحي، وهناك الأسواق الدورية التي تعقد كل أسبوع لأهل الريف، والبدو والقرى المجاورة حيث يبيعون محصولاتهم ويشتررون مستلزماتهم.^(١)

وتجدر الإشارة إلا أن السياحة الدينية لم تقتصر على المسلمين والمسيحيين، وإنما شملت الطائفة اليهودية؛ حيث كانوا يأتون للاحتفال بمواسمهم الدينية، وكان لهم أسواقهم الخاصة بهم في يافا، والرملة والقدس، وبيت لحم، مما يعود بالنفع على تجار تلك المدن والمناطق المجاورة.^(٢)

أما بالنسبة للتجارة الداخلية فكانت مقتصرة على المدن الكبرى كالقدس، ونابلس، والخليل، وغزة وصفد وغيرها، ولم يكن كما يبدو لبيت لحم أي نشاط فيها، بل كانت جزءاً من الطريق التي تمر بها قوافل التجارة، ويربط هذا الطريق بين مصر وبيت المقدس عبر صحراء سيناء تمر بكل من غزة، والخليل، وبيت لحم^(٣). وبهذا يمكن أن لنبيين أن بيت لحم كانت طريقاً تمر بها قوافل التجارة المحملة بالبضائع والسلع ويمكن أيضاً- اعتبار زيارة الحجاج لبيت لحم وشرائهم السلع الشرقية ونقلها للخارج نوعاً من التجارة الخارجية.

ازدهرت الأسواق وتنوعت، وحوث أصنافاً مختلفة من البضائع، وكان السوق يشتق اسمه من نوعية السلع التي تباع به كسوق القطنين، وسوق الطباخين حيث تباع به جميع أصناف الأطعمة، وسوق العطارين، وسوق الزيت، وسوق السمك^(٤) حيث كان أبناء القدس يجلبونه بكميات وفيرة من يافا ويبيعونه في هذا السوق، وسوق التوابل حيث يستوردونها ويبيعونها في سوقها المخصص هذا، وسوق القماش وغيرها من

(١) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ٢٠٢.

(٢) ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ٣٩/١.

(٣) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكي، ٢٠٣.

(٤) النقر، محمد، تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، ١٢٩.

الأسواق.^(١) ونظراً لأن بيت لحم في تلك الفترة كانت قرية صغيرة فربما حوت على عدد من الأسواق الصغيرة التي تخدم أهالي القرية.

ويبدو أن سكان القرى والمناطق المجاورة كانوا يأتون لهذه الأسواق كونها تتوافر في مركز نيابتهم؛ أي أن الأسواق اقتصر على المدن الكبرى في ذلك الحين، لذلك كان سكان بيت لحم يتزودون من أسواق القدس، أو الخليل بما يحتاجون إليه من بضائع ليست متوافرة لديهم.^(٢)

أما بالنسبة لتنظيم الأسواق وهيكلها العام في الفترة المملوكية، فقد كانت متشابهة في أغلب مدن فلسطين وغيرها، ولربما عُدت أسواق بيت المقدس الأكثر ترتيباً كما ذكر ذلك مجير الدين العليمي حين قال: "وقد ذكر المسافرون أنهم لم يروا مثل هذه الأسواق في الترتيب والبناء في بلدة من البلدان، وأن ذلك من المحاسن التي لبيت المقدس"^(٣)، وتتشابه هذه الأسواق بشوارعها الطويلة، والمتوازية، والمسقوفة، وكانت تقفل بأبواب في مداخلها، وهناك حيطان منخفضة لعرض البضائع على جانبي السوق، وأسقف من القماش يمكن تحريكها تبعاً لفصول السنة.^(٤) وهو ما نلاحظه في تنظيم أغلب الأسواق القديمة التي كانت منتشرة في المدن الفلسطينية ومنها بيت لحم.

(١) علي، علي السيد، تاريخ القدس في العصر المملوكي، ٢٠٢.

(٢) نفسه، ٢٠٣.

(٣) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ١/٦٣٧.

(٤) علي، علي السيد، تاريخ القدس في العصر المملوكي، ٢٠٣.

ووجدت مؤسسات أخرى تجارية عرفت في القدس -لسنا بصدد التوسع في مجالها- وهي القيساريات^(١)، والخانات^(٢)، والوكالات^(٣)، وتجدر الإشارة إلى أن الأسواق كانت تخضع للرقابة من قبل السلطة المملوكية، ويقوم بحفظ السوق، ومنع الاحتيال، وجمع الضرائب التي تفرض على أهل السوق.^(٤)

(١) القيسارية: جمعها قياسر، ويبدو أنها كلمة لاتينية الأصل لأنها نشأت من القيصر أو الإمبراطور، وهي سوق مسقوفة وأطلقت -أيضاً- على الخان أو الوكالة، أو البناء الذي يحتوي على غرف ومخازن للتجار، ويعلوه طباق للسكنى بارتفاع دورين أو ثلاثة، أي أنها منشأة تجارية للتجار ليبيعوا بها بضاعتهم وأمتعتهم . ينظر: اليوزيكي، توفيق، دراسات في النظم العربية الإسلامية، ٦٤؛ زناتي، أنور، معجم مصطلحات التاريخ والحضارة، ٣٢٥.

(٢) الخان: جمعها خانات، بالأصل هي كلمة فارسية تعود لفترة العصور الوسطى، وهي الوكالات أو الفنادق المعدة لاستقبال التجار وبضائعهم ودوابهم، وغيرهم من المسافرين والحجاج، وبها اصطبل للدواب، أما في الأعلى فيوجد طباق ومساكن للنازلين به تطل على حوش أو ساحة تتوسط الخان، بالإضافة إلى بئر مياه، وميضأة ومسجد صغير. إبراهيم، عبد اللطيف، دراسات، ١/٧٨؛ زناتي، أنور، معجم مصطلحات التاريخ والحضارة، ١٣٦.

(٣) الوكالات: وهي فنادق لنزول التجار وبضائعهم ودوابهم للبيع والشراء. زناتي، أنور، معجم مصطلحات التاريخ والحضارة، ٤٢١.

(٤) النقر، محمد، تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، ١٣٢.

٤) أوقاف بيت لحم في الفترة المملوكية

تعدّ بيت لحم في الفترة المملوكية من القرى التابعة للقدس، وبالتالي فأراضيها كانت وقفاً للقدس ومن القرى التلحمية التي تتبع مدينة القدس، وذكرت كأوقاف لها: بيت جالا، وتقوع، وبيت لحم، وبيت ساحور، وبيت تعمر،^(١) وفاغور، وبتير، والولجة^(٢).^(٣)

ومن خلال المصادر التاريخية تبين لنا أن مسيحيي بيت لحم كان لهم أوقاف في القدس، ومن ذلك أن الروم الكاثوليك كان لهم مقبرة في بيت لحم، وأراضٍ زراعية بالقرب من دير مار إلياس^(٤)، وكان هناك -أيضاً- وقف للمسيحيين الأرثوذكس، وآخر للمسيحيين الأقباط مثل: وقف منصور الإفرنجي وحاكورة في بيت لحم.^(٥)

(١) بيت تعمر: هي إحدى قرى بيت لحم تقع إلى الجنوب الشرقي منها، سميت كذلك نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، حيث مر بهذه المنطقة وصلى بها عندما خرج لفتح القدس، وبني بها مسجد سمي باسم مسجد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وأصل سكان هذه القرية يعود لشبه الجزيرة العربية. معهد الأبحاث التطبيقية - القدس، دليل قرية بيت تعمر، ٤-٥.

(٢) الولجة: هي إحدى قرى محافظة بيت لحم تقع إلى الغرب منها، سميت بهذا الاسم نسبة إلى الفتحة الطبيعية التي تلجها طرق المواصلات، وفي نكبة (١٩٤٨م) احتلت القوات الإسرائيلية معظم أراضي القرية وتم تهجير أهلها إلى الأراضي المقامة عليها القرية حالياً، ويعود أصل سكان قرية الولجة الحالية إلى أهل الولجة الذين هاجروا من أرضهم عام (١٩٤٨م). الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ١٧٨/٨-١٧٩م معهد الأبحاث التطبيقية - القدس، دليل قرية الولجة، ٤-٥؛ عبيد، يوسف، دليل مواقع المدن والقرى والقبائل البدوية في فلسطين، ٤٧.؛ وينظر: البكري، معجم ما استعجم، ١/٢١٠.

(٣) دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس، ٢٢٣-٢٢٤.

(٤) دير مار إلياس: يقع في منتصف الطريق بين القدس وبيت لحم، أسسه البطريرك أنسطانيوس الذي تولى البطريركية بين عامي (٤٥٨-٤٧٨م) ثم أعيد بناؤه عام (١١٦٠م) على إثر زلزال دمره، وتقول الأسطورة أن النبي إلياس وهو في طريقه إلى بئر السبع مرّ بهذا الموقع واستراح به، وتخليداً لذكراه شيد هذا الدير. الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٨/٤٤٧-٤٤٨.

(٥) عبد الغني، مصطفى، الأوقاف على القدس، ٣٠-٣١.

وذكر المقرئزي أنه في سنة اثنتين وثمانين وستمئة، استخرجت الجوالي^(١) من سكان المنطقة على أن تكون جوالي الذمة بالقدس وبلد الخليل وبيت لحم وبيت جالا مرصدة لعمارة بركة في بلد الخليل.^(٢) ومن أوقاف بيت لحم -أيضاً- ما يختص بالمدارس والمؤسسات الدينية مثل: المدرسة المزهرية^(٣)، التي أوقف عليها قرية بيت ساحور الوادي وهي من أعمال القدس، كذلك المدرسة الجوهريية^(٤)، التي أوقف عليها قرية تقوع^(٥)، وأوقف على المدرسة المعظمية^(٦) قرية بتير.^(٧)

(١) الجوالي أو مال الجوالي: وهو الجزية المضروبة على أهل الذمة. إسماعيل، حسن، ألقاظ الحضارة عند أبي حيان التوحيدى، ١٥

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٦٥/٢

(٣) المدرسة المزهرية: تم بناؤها عام (١٤٨٠هـ/١٤٨٠م)، وتقع بباب الحديد، وواقفها زين الدين، أبو بكر محمد بن محمد، بن أحمد، بن مزهر، الأنصاري. العسلي، كامل، معاهد العلم في بيت المقدس، ١٩٤؛ العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، ٢٥٤.

(٤) المدرسة الجوهريية: تقع بباب الحديد على يسار الداخل إلى الحرم، وهي بالأصل مدرسة تضم -أيضاً- خانقاه للصوفية، ويدرس فيها القرآن والفقه والحديث. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ٣٨٢/١؛ العسلي، كامل، معاهد العلم في بيت المقدس، ١٩٦-١٩٩.

(٥) الخطيب، محمد، الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر المملوكي، ٤٨

(٦) المدرسة المعظمية: وهي المدرسة الحنفية، وتقع إلى الشمال من طريق المجاهدين عند باب المسجد الأقصى، وكانت من كبريات المدارس في القدس. العلمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٤٠٣/١؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ٤٤٥/١؛ العارف، عارف، المفصل بتاريخ القدس، ٢٤٠.

(٧) الخطيب، محمد، الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر المملوكي، ٥٦

أما ما يخص المؤسسات الدينية فقد أقيم في الجزء الشمالي من بيت لحم مسجد سموه باسم الصحابي بلال بن رباح (رضي الله عنه)، وهو عبارة عن وقف يضاف إلى أوقاف المسلمين، وأوقفت ما مساحته ستة قراريط^(١) من أرض بلدتي بيت لحم وبيت جالا من قبل السلطان قايتباي لعموم المسلمين^(٢)،^(٣) المسلمين^(٢)،^(٣)

بالإضافة لذلك مسجد النبي لوط (عليه السلام)^(٤)، والذي أوقف عليه قرية وادي فوكين^(٥)، وأوقف على مقام مقام النبي موسى (عليه السلام)^(٦)، دير السيق^(٧) غرباً إلى زعترة^(٨). أما قرية إرطاس^(٩) فكانت تتبع لوقف المسجد الإبراهيمي^(١).

(١) قراريط: مقياس مساحة مصري، وهو اليوم ٢٤/١ فدان، أو ١٧٥,٠٣٥ متر مربع. هنتس، فالتر، المكابيل والأوزان والمقاييس، ٩٨.

(٢) وتم وقف ما تبقى من أرض بيت لحم وبيت جالا أي ١٨ قيراطاً من مساحتهما على يد السيدة خاصكي سلطان سنة (٩٥٩هـ/١٥٥١م) وذلك لصالح تكية خاصكي سلطان بالقدس. المهدي، عبلة، ٣٢٦، الصلاحات، سامي، الأوقاف الإسلامية في فلسطين ودورها في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي، ٨٤.

(٣) المهدي، عبلة، القدس تاريخ وحضارة، ٣٢٦؛ الصلاحات، سامي، الأوقاف الإسلامية في فلسطين ودورها في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي، ٨٤.

(٤) مسجد النبي لوط: يقع في قرية كفر بريك (بني نعيم حالياً)، تقع شرق الخليل وتبعد حوالي (٦ كم) عنها، وهو مقصود بالزيارة منذ قديم الزمن. ينظر: الهروي، الإشارات في معرفة الزيارات، ٢٩؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٢/٢٩٠؛ السيوطي، إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، ١٢٠/٢؛ العليمي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدي والخليل، ١/٧٢؛ القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، ٣/٤٥١؛ اللقيمي، موانح الأنس، ٨٧؛ عبد القادر، حسن وآخرون، أسماء المواقع الجغرافية في الأردن وفلسطين، ١٨.

(٥) قرية واد فوكين: قرية صغيرة تقع إلى الغرب من مدينة بيت لحم. الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٨/٤٨٧-٤٨٩؛ شراب، معجم بلدان فلسطين، ٧٢٢؛ السعد، جودت، مختصر بلدان أرض كنعان، ٢٤٨.

(٦) مقام النبي موسى: يقع في برية القدس على بعد (٧ كم) عن مدينة أريحا، وحوالي (٣٠ كم) عن مدينة القدس، ويقع المقام على تلة ترابية، عمره السلطان الظاهر بيبرس وبنى مسجداً وقبة على المقام سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م). ينظر: العسلي، كامل، موسم النبي موسى في فلسطين: تاريخ الموسم والمقام، ٢٥.

(٧) دير السيق: دير القديس مار سابا، من أديرة الروم الأرثوذكس، يقع شرقي بيت لحم، وفي الجنوب الشرقي من بيت المقدس على بعد ١٥ كم. الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٨/٥١١؛ السعد، جودت، مختصر بلدان أرض كنعان، ١٢٢.

(٨) زعترة: مركز يسكنه أفراد قبيلة التعامرة على حدود صحراء يهودا بجانب طريق بيت ساحور -حلول. السعد، جودت، مختصر بلدان أرض كنعان، ١٣٤.

(٩) الخطيب، محمد، الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر المملوكي، ١٤٨.

(١٠) إرطاس: هي كلمة لاتينية بمعنى البستان، وهي قرية صغيرة تبعد ميلين جنوب بيت لحم، تكثر فيها الينابيع التي تلتقي بمياه برك سليمان، وتسيل معها في قناة واحدة إلى أن تصل بيت لحم فالقدس، وهذه الينابيع جعلت منها جنة خضراء تكثر

ويوضح الجدول الآتي وجود العديد من القرى الموقوفة في بيت لحم على العديد من الجهات في مدينة القدس والخليل، ويُذكر -أيضاً- وقف تابع للشيخ برهان الدين المقدسي يورد في شروطه الصرف على العديد من الجهات في الحرم النبوي الشريف ومكة^(٢) ، وكما يورد بعض من أوقف تلك القرى حيث تعود في تاريخها للعهدين الأيوبي والمملوكي، حيث تفاوتت حصص الوقف من قرية إلى أخرى، بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت جزيرة نصارى بيت جالا وفقاً لصالح حرم الخليل.^(٣)

فيها البساتين والأشجار المثمرة، كما تعد إرطاس موقعاً أثرياً. الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٤٨٠/٨-٤٨١؛ ؛ السعد، جودت، مختصر بلدان أرض كنعان، ٢٢.

(١) الخطيب، محمد، الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر المملوكي، ٢٨٠

(٢) أشار الواقف للعديد من الشروط في وقفته، حيث شرط أن يصرف من مال الوقف على وجوه متعددة ومنها : يصرف على رجل يقرأ كتاب الشفا في الحديث بالحرم الشريف النبوي في (رجب، شعبان، رمضان) في كل سنة ديناران، ويصرف على قارئ صحيح البخاري في نفس الحرم ونفس الأشهر ديناران، ويصرف على رجلين يقرأن كتاب الله في كل ليلة جزأين كاملين في الحرم ذاته في كل سنة ٥ دنانير ، ويصرف لرئيس المؤذنين بالحرم نفسه في كل سنة ديناران، وكما يصرف لقارئ صحيح البخاري في مكة في (رجب، شعبان، رمضان) في كل سنة ٣ دينار، وعلى رجلين يقرأن كتاب الله بالحرم المكي بين المغرب والعشا في كل ليلة جزأين كاملين في كل سنة ٥ دنانير، ويصرف للأرامل والمنقطعين بالرباط في القدس الشريف في كل سنة ديناران، ونفس المبلغ على المؤذنين على أن يقرءوا الفاتحة للواقف ويدعوا له، ويصرف -أيضاً- في كل سنة ثمن ماء يوضع في سبيل للواقف ديناران، ويصرف لرجلين يقرأن من كتاب الله على ضريح المرجوم في كل يوم بعد صلاة الفجر ما تيسر من كتاب الله ٤ دنانير، يصرف ثمن ريحان وجريد يوضع في كل يوم جمعة على ضريح الواقف . دفتر ٥٢٢، ٢٧ .

(٣) دفتر تحرير ٢٨٩، ١٥٩؛ الحوش، حمزة، أوقاف ناحية الخليل في القرن العاشر الهجري، ٦٧ .

القرية	الواقف	نسبة الوقف	الجهة الموقوف عليها
واد فوكين	الناصر محمد بن قلاوون ^(١)	٢٤ ط تماماً ^(٢)	مقام سيدنا موسى ويونس ولوط ^(٣)
فاغور/فاعور	الناصر محمد بن قلاوون	٢٤ ط تماماً	
ارطاس	-	٢٤ ط تماماً	الرباط والبيمارستان والساقية في مدينة الخليل ^(٤)
بيت جالا	السلطان قايتباي ^(٥)	٦ ط	الحرمين الشريفين ^(٦)
بيت لحم		٦ ط	
تقوع		١٢ ط	
بيت تعمر	الشيخ برهان الدين ابراهيم بن شريف المقدسي	١٢ ط	على نفسه ومن ثم على وجوه متعددة. ^(٧)
نجم	الشيخ برهان الدين ابراهيم بن شريف المقدسي	١٢ ط	
تقوع		٩ ط	وقف المدرسة الجوهريّة في القدس ^(٨)
بتير	الملك المظفر عيسى بن	٢٤ ط تماماً	

(١) الناصر محمد بن قلاوون : العلاني، الصالحي، النجمي، أبو المعالي سيف الدين ، أول ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام وتولى السلطنة عام (٦٧٨ هـ / ١٢٧٩_١٢٨٠م). دمشق، ابن العماد، شذرات الذهب، ٧/٧١٥؛ الزركلي ، خير الدين ، الأعلام ، ١٠٣ / ٥ .

(٢) ط: وتعني هنا قيراط.

(٣) دفتر ٣٤٢، ١١١؛ دفتر ١٠١٥، ٦٩؛ دفتر ٥١٦، ١٥٥؛ الحوش ، حمزة ، أوقاف ناحية الخليل في القرن العاشر الهجري، ٦٥ .

(٤) دفتر تحرير ١٣١، ١٤٧؛ دفتر ١٠١٥، ٧٠؛ دفتر ٢٨٩، ١٦٩؛ الحوش ، حمزة ، أوقاف ناحية الخليل في القرن العاشر الهجري، ٦٥ .

(٥) السلطان قايتباي : لقب بالملك الأشرف وهو سابع عشر سلاطين دولة المماليك الجراكسة بمصر، والشام، والحجاز، كانت فترة حكمه حافلة بالعظائم والحروب، له اشتغال بالعلم، كثير المطالعة، شجاع، له نزعة صوفية، مهيباً، عاقلاً، حكيماً، له كثير من المآثر العمرانية، توفي بالقاهرة عام (٩٠١هـ/١٤٩٦م). ينظر: موير، تاريخ دولة المماليك، ١٥٧؛ ليز بول، استانلي، طبقات سلاطين الإسلام، ٨٢؛ زامبارو، معجم الأنساب، ١/١٦٤ .

(٦) وردت بأنها موقوفة على الحرمين الشريفين (حرم القدس، حرم الخليل) ، وكما تورد إحدى الوقفيات أن السلطان قايتباي أوقفها على الجشيثة (إحدى الطرق الصوفية) . دفتر تحرير ٥٢٢، ٢٠ .

(٧) دفتر تحرير ٥٢٢، ٢٧ .

(٨) دفتر تحرير ١٣١، ١٣١ .

وقف المدرسة المعظمية الحنفية في القدس ^(٢)	٢٤ ط تماماً	أيوب في تاريخ (٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) ^(١)	علار ^(٣) الفوقا
	٢٤ ط تماماً		علار السفلى
وقف المدرسة المزهرية في القدس ^(٤)	١٢ ط		بيت ساحور

يبين الجدول السابق أوقاف بيت لحم في العهد المملوكي

^(٣) علار: يوجد في فلسطين عدة أماكن في فلسطين بهذا الاسم، علار طولكرم، وعلار القدس، وعلار بيت لحم، وأقطعها الظاهر ببيرس إلى الأمير سيف الدين قشتمر، وفي شرقها مقام الشيخ محمد النوباني، ويعود أصل أهلها إلى قبيلة (عنزة) النجدية، وسميت بهذا الاسم من أيام الرومان. أبو علم، عبد الله، أسماء ومسميات فلسطينية وعربية وأجنبية، ١٢٣.

^(١) دفتر تحرير ٥٢٢، ٤٩.

^(٢) دفتر تحرير ١٣١، ١٣٢، ١٣٣.

^(٤) دفتر تحرير ١٣١، ١٣٤.

- مواقف السلاطين المماليك تجاه كنيسة المهد:

تعدّ كنيسة المهد من الأماكن المقدسة لدى المسيحيين ففيها ولد سيدنا عيسى (عليه السلام)، وإن كان هناك اتجاه يقول: إن مولده كان في مدينة الناصرة^(١)، لكن أرجح الروايات في أغلب المصادر المسيحية والإسلامية هو أن مولد سيدنا عيسى (عليه السلام) كان في بيت لحم، الأمر الذي حدا بالإمبراطور قسطنطين^(٢) أن يشيد الهيكل^(٣) بعد ثلاثة قرون من مولد سيدنا عيسى (عليه السلام) والذي شكل النواة الأولى لكنيسة المهد وما هي عليه اليوم^(٤)، أما بناء الكنيسة فكان على يد الملكة هيلانة والدة قسطنطين

(١) الناصرة: ذكرها صاحب كتاب معجم ما استعجم باسم (نصورية) وهي قرية بالشام وإليها تنسب النصرانية، أما صاحب معجم البلدان فذكرها باسم الناصرة: فاعلة من النصر، ومنها اشتق اسم النصارى، أما صاحب كتاب بلادنا فلسطين فأورد أن موقعها في قلب الجليل الأدنى على جبل يعلو (٤٠٠) متر عن سطح البحر، بها مولد سيدتنا مريم (عليها السلام) ونشأ سيدنا عيسى (عليه السلام) بها لذلك فهي مقدسة لدى المسيحيين وغالية على المسلمين. ينظر: اليعقوبي، البلدان، ٧٩/١؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ١٢٣/١؛ الهروي، الإشارات في معرفة الزيارات، ٣٠؛ البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ١٣١٠/٤؛ الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٢٥١/٥؛ القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ١٨٤؛ الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ٢١٢؛ الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، ٣٤/٧-٣٥.

(٢) الإمبراطور قسطنطين: تولى قسطنطين الحكم في ٣٠٦م، ووجد أطراف الامبراطورية في عام ٣٢٣م، ولقد كان له أهمية كبيرة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية وحقق لها الانتقال من العالم القديم إلى عالم العصور الوسطى، حيث اعترف بالمسيحية ونقل العاصمة من روما إلى روما الجديدة التي شيدها على ضفاف البسفور في الشرق والتي سميت باسمه حيث عرفت بالقسطنطينية عاش من عام (٢٨٠-٣٧٧م)، وهو ابن غير شرعي لقسطنطيوس من محظيته غير الشرعية هيلانة خادمة إحدى الحانات في بيشنيا، ولم يلق إلا قليلا من العلم، دخل الجندية في عمر مبكر، وأظهر بسالة في حروب مصر وفارس، ولما توفي والده عام (٣٠٦م) كان قد أوصى أن يخلفه ابنه في الملك، وحذا حذو والده في معاملة النصارى معاملة حسنة، وفي عام ٣٢٣م أصبح قسطنطين الإمبراطور الأوحده للدولة الرومانية. ينظر: ديورانت، ول، قصة الحضارة، ٣٨٢-٣٨٣. ملر، أندرو، مختصر تاريخ الكنيسة، ١٤٣.

(٣) الهيكل وهو موضع في صدر الكنيسة يقرب فيه القربان. ابن منظور، لسان العرب، مادة (هكل).

(٤) هيكل، محمد حسنين، الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة، ١٤٩-١٥١.

عام (٣٣٥م) فوق مغارة الميلاد^(١) وذلك بعد أن اعترف رسمياً بالديانة المسيحية للإمبراطورية الرومانية عام (٣٢٣م).^(٢) وقد مر على كنيسة المهد العديد من العصور تعرضت حيناً للازدهار وحيناً لمحاولات الإضرار بها لكنها الوحيدة التي نجت من محاولات الهدم بسبب المكانة الدينية المهمة لها، -وأيضاً- كانت بين فترة وأخرى يجري عليها إصلاحات وترميمات في حالات الخراب، والهدم، بفعل عوامل الطبيعة.

ذكر الرحالة فيليكس فابري (Félix Fabri) في رحلته التي زار بها فلسطين أن المسلمين حاولوا هدم الكنيسة، لكن السريان - المسيحيين السوريين - أنقذوها بإعطاء السلطان المملوكي مبلغاً كبيراً من المال مقابل صونها من الهدم، لكن ومع هذا قدم السلطان إلى بيت لحم وخرق دفاعاتها، وهدم سور المدينة وأبراجها، وكذلك الدير الملاصق لكنيسة المهد، واستعد لمهاجمة الكنيسة لهدمها وخرقها، ولما دخلوا الكنيسة هدموا المذابح والتماثيل المنحوتة فيها، ويقول: "وإنه عندما شاهد السلطان الأعمدة والألواح الثمينة جداً أعطى الأوامر بوجوب خلعهم جميعاً ليأخذهم إلى حيث رغب"، وهنا وقعت المعجزة - كما يدعي فيليكس فابري (Félix Fabri) - فعندما جاء العمال ومعهم أدواتهم ولمسوا الجدار وذلك على مرأى السلطان خرج منه ثعبان بحجم مدهش، وعض أول لوح فمزقه بلسانه الناري، وزحف إلى اللوح الثاني فالثالث والرابع حتى حطم كل الألواح، ولما رأى السلطان والعاملون معه ذلك عدلوا عن مقاصدهم في التخريب والتدمير، وما تزال

(١) مغارة الميلاد: هي المغارة التي ولد فيها السيد عيسى (عليه السلام) قبل حوالي (٢٠٠٠) عام، وشيدت الملكة هيلانة والدة الامبراطور قسطنطين كنيسة المهد فوق هذه المغارة حيث اختارتها لتكون الأساس للكنيسة الضخمة وتم استكمال بنائها عام (٣٣٩م)، وتصل إلى هذه المغارة من داخل الكنيسة بواسطة درج يؤدي إليها ، ويوجد الآن عند المغارة نجمة فضية مطلية برخام أبيض، وعليها نقش لاتيني يقول: " هنا ولد السيد المسيح من السيدة العذراء". ينظر: وزارة السياحة، السياحة الفلسطينية في الإطار الإقليمي، ٧١.؛ عودة، أيمن، المقومات السياحية في محافظة بيت لحم، ٣٤-٣٥.

(٢) الدومينيكي، مرمجي، بلدانية فلسطين العربية، ٥٦.؛ مصطفى، وليد، قصة مدينة بيت لحم، ٧٦.

آثار الثعبان على الألواح حتى اليوم وكأن إنساناً وضع أداة حديدية حامية وضغط بها بشدة على الأحجار ويقول فيليكس فابري (Félix Fabri) : " لقد رأيت هذه الآثار بأَمِ عيني وبدهشة وسرور عظيم"^(١).

وفي رواية أخرى أن هذا السلطان هو الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م)، حيث أُعجب بفخامة أعمدة الكنيسة وألواحها الرخامية فأمر بنقلها إلى بلاده، ويقال إن أفعى ضخمة برزت من جدار لا يوجد به ثقب يتسع لرأس إبرة، وبدأت تعض هذه الأعمدة والألواح، فما كان من الظاهر بيبرس إلا أن يلغي هذه المحاولة بسلب الأعمدة^(٢)، وهناك رواية أخرى تعود لفترة هذا السلطان والتي تتحدث عن خروج أعداد كبيرة من الدبابير من ثقب بعض الأعمدة لمهاجمة جنوده الذين حاولوا سلب نفائس الكنيسة وهدمها، وقد لحقتهم هذه الدبابير وهاجمتهم بطريقة شرسة وأمكنت في لسعهم، وعلى الرغم من هروبهم وخروجهم من الكنيسة؛ إلا أن الدبابير لحقتهم حتى وصلوا منطقة اسمها رأس فطيس^(٣)، وقد مات كثير من الجنود نتيجة لذلك، ودفن أهل المنطقة الجنود في موقع اسمه الكركفة^(٤)، ولما سمع السلطان بما حلَّ بجنوده أصدر أوامره بالتوقف عن قتل المسيحيين، واضطهادهم، وعدم التعرض لكنائسهم، وأصدر أوامره للوالة بالسماح للمسيحيين الذين هربوا من بيت لحم بالعودة إليها، وإلى أي بلد يرغبون في العودة إليه، وقد عاد

(١) زكار، سهيل، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ٣٨ / ٧٢٧-٧٢٨.

(٢) المصو، عيسى، كنيسة المهد في بيت لحم، ١٥.

(٣) رأس فطيس: شارع متعدد التسميات يطلق عليه (راس فطيس) نسبة لأسطورة محلية، تتعلق بتدخل إلهي للتغلب على جيش غاز، ويطلق عليه أيضاً- (شارع التراجمة) وسمي بذلك لأن قاطنيه عملوا ك مترجمين، واهتموا بالحجاج والسياح الأجانب ويعتقد أن أصولهم فرنسية، وإيطالية، وقد قدموا في الفترة الفرنجية (الصليبية)، وكذلك يطلق عليه (شارع البطاركة) لأنه الطريق التقليدي لمرور مواكب البطاركة اللاتين من القدس للاحتفال بأعياد الميلاد، طوله كيلو متر واحد وقريب من كنيسة المهد. ينظر: بلدية بيت لحم، أحياء البلدة القديمة في مدينة بيت لحم، ٣.

(٤) الكركفة وتعني باللغة الآرامية مقبرة الجثث أو الجماجم. ينظر: شوملي، قسطندي، كنيسة المهد والمعتقدات الشعبية والدينية المتعلقة بها، ٦٣.

أهالي بيت لحم من الشوبك^(١) في وادي موسى واستقروا من جديد في بيت لحم حيث نعمت بالاستقرار والأمن.^(٢)

ورواية أخرى تذكر أن أحد ممالك مصر أمر بتخريب كنيسة المهد، ومذابحها، وأيقوناتها، ونهب المجوهرات التي كانت موجودة بداخل الكنيسة، وعندما كان عمال هذا المملوكي يقومون بأعمال التخريب ونزع البلاط وسلب المجوهرات، خرج عليهم ثعبان ضخم من الجدار له لسان من نار، وبعد أن حطم ما انتزعه العمال من بلاط انحنى إلى المكان الذي يقال أن المجوس الثلاثة^(٣) وقفوا فيه، ومن ثم اختفى بين البلاط.^(٤)

ويذكر أن بعض القبائل حاولت تخريب كنيسة المهد وتدميرها، ونهب مجوهراتها التي كانت مطمعا للجميع، حيث احتوت على الذهب، والفضة، وجواهر ثمينة، وأنهم أثناء عملية نهبهم وتخريبهم خرج عليهم

(١) الشوبك: بلدة صغيرة من الثالث من الشراة، في شمالي العقبة ، غالب سكانها من النصارى. ينظر: الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ٣/٣٧٠؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ٢٤٦؛ العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ٢١٤؛ البغدادي، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ٢/٨١٨؛ الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ٤٣.

(٢) شوملي، قسطندي، كنيسة المهد والمعتقدات الشعبية والدينية المتعلقة بها، ٦٣.

(٣) المجوس الثلاثة: المجوس بشكل عام هم حكماء من بلاد فارس، وكانوا يترقبون قدوم السيد المسيح (عليه السلام)، وهم من فئة المتعلمين والأغنياء الذين يروا أن لا قيمة لما يملكونه أو يعلمونه إن لم يقدمهم إلى المسيح، وما إن أعلن الخبر عن قدوم السيد المسيح (عليه السلام)، حتى جاء المجوس من المشرق بهداياهم ذهباً، ولباناً، ومرأ، وقدموا للسجود للسيد المسيح (عليه السلام)، ويتفق الكل على أنهم من نسل أولاد نوح (سام، حام، يافث)، ويتفقون -أيضاً- على أنهم من قارات العالم القديم الثلاث، أما المجوس فهم عبدة النار، القائلون أن للعالم أصلين اثنين مدبرين، يقتسمان الخير والشر، والنفع والضرر، والصلاح والفساد. ينظر: عبد المسيح، حسام، سر المجوس الثلاثة، ١٤-١٥؛ زناتي، أنور، معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، ٣٥٦.

(٤) شوملي، قسطندي، كنيسة المهد والمعتقدات الشعبية والدينية المتعلقة بها، ٦٤.

فجأة نور شديد اللمعان كالصاعقة، وقتلهم، وهكذا سلمت الكنيسة كما كل مرة من التخريب والنهب^(١). وفي رواية شبيهة بها أن بعض المسلمين ساد لديهم اعتقاد أنه يوجد تحت حجرة ميلاد المسيح كنوز لا يمكن تقديرها، مدفونة هناك، فتسللوا إلى الكنيسة ليلاً واقتلعوا الألواح عند موضع ميلاد المسيح، والمفاجأة أن كل ما اقتلعوه كان يتفتت بأيديهم، فتملكهم الرعب الشديد وأخذوا يرتجفون وتركوا أدواتهم وفروا هاربين، وفي هذا الصدد هناك من يقول إن المسلمين مهما حاولوا أن يسلبوا أي شيء من الكنيسة لم يفلحوا في ذلك، فكانوا يستأجرون مسيحيين ليسرقوا من الكنيسة بعض الألواح المصقولة ومن ثم يبيعونها لهم.^(٢)

ومن خلال ما سبق نرى أن الروايات التي ذكرت ربما ذكرت في المصادر المسيحية ولكننا لم نجد لها ذكراً في المصادر الإسلامية، وهي توضح الطمع في مقتنيات الكنيسة الثمينة من ذهب، وفضة، ورخام من قبل المماليك، لكن -أيضاً- لم يصادفنا في الكتب التاريخية الإسلامية ما يبين ذلك، ونلاحظ أن في هذه الروايات نوعاً من السرد الخيالي ولا تخلو من الأساطير وقد لا يصدقها العقل البشري، ويبدو من خلال سرد مثل هذه الروايات أن المسيحيين يصدقون ويعتمدون هذه الروايات لأنها جزء من موروثهم الثقافي.

(١) شوملي، قسطندي، كنيسة المهدي والمعتقدات الشعبية والدينية المتعلقة بها، ٦٤-٦٥.

(٢) زكار، سهيل، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ٣٨ / ٧٢٨-٧٢٩.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة لبيت لحم في الفترتين الأيوبية والمملوكية يمكن أن نسجل أهم النتائج الآتية:

- اختلف الجغرافيون حول ما إذا كانت بيت لحم مدينة أو قرية، فبعضهم رآها قرية صغيرة والبعض الآخر عدها مدينة.
- كانت بيت لحم بالفترة الأيوبية تتبع لعمل غزة كونها كانت من ضواحي القدس التي تبعت -أيضاً- لعمل غزة، أما بالفترة المملوكية فقد تبعت بيت لحم لنيابة القدس، وأي شيء كان يطرأ على القدس كان يشمل بيت لحم سواء بالفترة الأيوبية أو بالفترة المملوكية، أي أن ارتباطها كان يتمحور حول القدس.
- شكل السكان المسيحيون الغالبية العظمى لبيت لحم مع وجود نسبة قليلة من المسلمين سكنتها بالفترتين الأيوبية والمملوكية.
- كانت بيت لحم في الفترة الأيوبية بين مد وجزر؛ فحيناً يستردها المسلمون من يدي الفرنجة (الصلبيين)، وحيناً تقع تحت يدي الفرنجة (الصلبيين) ضمن معاهدات صلح تمت بينهم وبين المسلمين، لكنها عاشت صنوفاً من الظلم والعسف في ظل الحكم الفرنجي (الصلبي)، على الرغم من أن سكان بيت لحم كانوا في غالبهم من المسيحيين، إلا أن ذلك لم يمنع الفرنجة (الصلبيين) على إمعان الظلم بهم، بالمقابل عاشت بيت لحم بسلام في كنف العدالة الإسلامية التي عرفت عنها، وقد أظهر الإسلام مواقف تسامح عديدة مع سكان بيت لحم وتحديداً في فترة حكم السلطان صلاح الدين الأيوبي، كما أن هذا التسامح، والعدل، والمساواة رافق سلاطين الفترة المملوكية الذين لم يتوانوا في معاملتهم بعدل، وتسامح، وإخاء.

- مارست بيت لحم في الفترتين الأيوبية والمملوكية الأنشطة الاقتصادية المختلفة الزراعة، والصناعة والتجارة، ونظراً لكونها صغيرة الحجم والأهمية في ذلك الوقت فلم تكن تسد حاجاتها من السلع المختلفة؛ مما يضطر سكانها للانتقال لأسواق المدن الكبرى المجاورة لها كالقدس والخليل.
- كثرت الروايات حول محاولة سلاطين المماليك هدم كنيسة المهد وذلك لطمعهم بمقتنياتها الثمينة إلا أن المصادر الإسلامية لم تذكر مثل هذه الروايات، بالإضافة إلى أن محتوى الروايات ينم عن قصص أسطورية لا تتصل بالحقيقة والمنطق بصلة.

تم بحمد الله

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية

- (١) القرآن الكريم
- (٢) الكتب المقدسة العهد القديم.
- (٣) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، (د.د) بيروت، ١٩٦٦م.
- (٤) الأصفهاني، عماد الدين محمد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.
- (٥) الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م.
- (٦) ابن إياس، محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
- (٧) البروسوي، محمد بن علي (ت ٩٩٧هـ/١٥٨٩م)، أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تحقيق: المهدي الرواضية، دار الغرب الإسلامي، ط.١، بيروت، ٢٠٠٦م.
- (٨) ابن بطريق، أفثيشيوس (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م)، التاريخ المجموع لابن بطريق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٥م.

٩) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.

١٠) البغدادي، صفي الدين بن عبد المؤمن (ت ٧٣٩هـ/١٣٢٨م)، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٥٥م.

١١) البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، (د.ت.).

١٢) البنداري، الفتح بن علي (ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، سنا البرق الشامي، تحقيق: فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٧٩م.

١٣) ابن تغري بردي، أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق: محمد عز الدين، عالم الكتب، ط.١، (د.م.)، ١٩٩٠م.

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد أمين، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٨٤م.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (د.ت.).

١٤) ابن جبير، محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م.

١٥) الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عطا وآخرون، دار الكتب العلمية، ط.١، بيروت، ١٩٩٢م.

١٦) ابن الجوزي، أبو المظفر (ت ٦٥٤هـ/٢٥٦م)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط.١، الهند، ١٩٥٢م.

١٧) الجوزية، ابن قيم (٧٥١هـ/١٣٥٠م)، أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف أبو براء وآخرون، رمادي للنشر، ط.١، الدمام، ١٩٩٧م.

١٨) الحازمي، زين الدين أبو بكر (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م)، الأماكن أو ما اتفق لفظه واقترب مسماه من الأمكنة، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٩٩٤م.

١٩) ابن الحريري، أحمد بن علي (ت بعد ٩٢٦هـ / ١٥١٩م)، الإعلام والتبيين في خروج الفرنجة الملاعين على بلاد المسلمين، تحقيق: مهدي أحمد، دار الدعوة، الإسكندرية، ١٩٨٤م.

٢٠) ابن حزم، أبو محمد علي (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م)، جمهرة أنساب العرب لابن حزم، دار الكتب العلمية، ط.١، بيروت، ١٩٨٣م.

٢١) الحموي، ياقوت (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م.

٢٢) الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط.٢، بيروت، ١٩٨٤م.

٢٣) الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦هـ / ١٤٧١م)، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ترجمة وتحقيق: مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، ط.١، بورسعيد، ١٩٩٦م.

٢٤) الحنبلي، ابن العماد، (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (د.ت).

٢٥) ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م)، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، (د.م)، (د.ت).

٢٦) ابن خردادبة، عبيد الله بن عبد الله (ت ٢٨٠هـ / ٨٩٣م)، المسالك والممالك، (د.د)، بريل، ١٩٦٧م.
٢٧) خسرو، ناصر (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م)، سفر نامه: رحلة ناصر خسرو، ترجمة وتقديم: أحمد البدلي، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٣م.

٢٨) الخفاجي، شهاب الدين (ت ١٠٦٩هـ / ١٦٥٨م)، شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، تقديم: محمد كشاش، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.

٢٩) ابن خلدون، عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المسمى: تاريخ ابن خلدون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

٣٠) ابن خلكان، أبو العباس (ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، ط.١، بيروت، ١٩٩٤م.

٣١) الدواداري، ابن أبيك (ت بعد ٧٣٦هـ / ١٤٣٢م)، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: بيرند راته وآخرون، عيسى البابي الحلبي، (د.م)، ١٩٨٢م.

٣٢) الذهبي، شمس الدين (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب أرنؤوط وآخرون، دار الرسالة للنشر، ط.٣، (د.م)، ١٩٨٥م.

- ذيول العبر في خبر من خبر، تحقيق: محمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م.

٣٣) الرازي، أبو عبد الله محمد (ت ١٢٠٩/هـ٦٠٦ م)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق: علي النشار، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).

٣٤) الزبيدي، مرتضى (ت ١٢٠٥/هـ ١٧٩٠م)، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، ط.٢، الكويت، (د.ت).

٣٥) ابن السباهي، محمد بن علي (ت ٩٩٧/هـ ١٥٨٩م)، أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تحقيق: المهدي عيد الرواضية، دار العرب الإسلامي، ط.١، بيروت، ٢٠٠٦م.

٣٦) السبكي، تاج الدين (ت ٧٧١/هـ ١٣٦٩م)، معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٦م.

٣٧) السخاوي، شمس الدين (ت ٩٠٢/هـ ١٤٩٦م)، التبر المسبوك في ذيل السلوك ، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، (د.ت).

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).

٣٨) السيوطي، جلال الدين (ت ٩١١/هـ ١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط.١، (د.م)، ٢٠٠٤م.

- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط.١، (د.م)، ١٩٦٧م.

٣٩) السيوطي، شمس الدين (ت ٨٨٠/هـ ١٤٧٥م)، اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، تحقيق: أحمد رمضان أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.

- ٤٠) أبو شامة المقدسي، شهاب الدين (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الجيل، بيروت، (د.ت).
- ٤١) ابن شداد، بهاء الدين (ت ٦٣٢هـ/١٢٢٤م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، دار المنار، ط.١، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- ٤٢) ابن شداد الحلبي، عز الدين (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٣م.
- ٤٣) الشهرستاني، أبو الفتح (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م)، الملل والنحل، تحقيق: أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، ط.٢، (د.م)، ١٩٩٢م.
- ٤٤) الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).
- ٤٥) شيخ الربوة، شمس الدين الأنصاري (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة الأكاديمية الامبراطورية، بطربورغ ، ١٨٦٥م.
- ٤٦) الصفدي، صلاح الدين (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات، تحقيق: هلموت ريتز وآخرون، (د.د)، فرانزشتاينر، ١٩٦١م.
- ٤٧) الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ٤٨) ابن طولون، محمد (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، إعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق: محمد أحمد دهمان، مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ، ١٩٦٤م.

٤٩) الظاهري، غرس الدين ابن شاهين (ت ٨٧٣هـ/٤٦٨م) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق

والمسالك، تصحيح: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٣م.

٥٠) ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله (ت ٤٦٣هـ/١٠٧١م)، الأنباه على قبائل الرواة، دار الكتاب

العربي، ط.١، بيروت، ١٩٨٥م.

٥١) ابن عبد الظاهر، محي الدين (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك

المنصور، تحقيق: مراد كامل، الشركة العامة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م.

٥٢) العبدري، محمد (ت ٦٩٤هـ/١٢٩٤م)، رحلة العبدري المسماة: الرحلة المغربية، تحقيق: محمد

الفاسي، جامعة محمد الخامس، الرباط، ١٩٦٨م.

٥٣) ابن العبري، غريغوريوس (ت ٩٨٥هـ/١٢٥٦م)، تاريخ مختصر الدول، تحقيق: سهيل زكار، دار

الفكر، ط.١، دمشق، ١٩٩٥م.

٥٤) ابن العديم، كمال الدين عمر (ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل

زكار، (د.د.)، القاهرة، ١٩٩٧م.

٥٥) ابن عساكر، أبو قاسم (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محمد أحمد دهمان،

المجمع العلمي العربي، دمشق، (د.ت).

٥٦) العسقلاني، ابن حجر (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي، لجنة

إحياء التراث الإسلامي، مصر، ١٩٦٩م.

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة،

القاهرة، ١٩٦٦م.

٥٧) العسقلاني، شافع بن علي (ت ١٣٢٩هـ/١٧٣٠م)، الفضل المأثور من سيرة السلطان المنصور، تحقيق: عمر تدمري، المكتبة العصرية، ط.١، بيروت، ١٩٩٨م.

٥٨) العليمي، مجير الدين (ت ٩٢٨هـ/١٥٢١م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٣م.

٥٩) العمري، شهاب الدين (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق: محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: أحمد زكي، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٤م.

٦٠) العياشي، أبو سالم (ت ١٠٩٠هـ/١٦٧٩م)، الرحلة العياشية، تحقيق: سعيد الفاضلي وآخرون، دار السويدية للنشر والتوزيع، ط.١، أبو ظبي، ٢٠٠٦م.

٦١) العيني، محمود بدر الدين (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

٦٢) أبو الفداء، عماد الدين (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، تقويم البلدان، صححه: ماك ديسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م.

- المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، مصر، ١٣٢٥هـ.

٦٣) ابن الفرات، ناصر الدين (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، تاريخ الدول والملوك المسمى: تاريخ ابن الفرات، تحقيق: قسطنطين زريق، جامعة بيروت الأمريكية، بيروت، ١٩٤٢م.

٦٤) ابن قاضي، شهبه تقي الدين (ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م)، الكواكب الدرية في السيرة النورية، تحقيق: محمود زايد، دار الكتاب الجديد، ط.١، بيروت، ١٩٧١م.

٦٥) القرماني، أحمد (ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م)، أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق: أحمد حطيظ، عالم الكتب، بيروت، ، ١٩٩٢م.

٦٦) القزويني، زكريا (ت ٦٨٢هـ/٢٨٣م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م.

٦٧) القساطلي، نعمان (ت ١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م)، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، دار الرائد العربي، ط.٢، بيروت، ١٩٨٢م.

٦٨) ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)، نيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، ط.١، بيروت، ١٩٠٨م.

٦٩) القلقشندي، أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: محمد شمس الدين ، دار الفكر، بيروت ، ١٩٨٧م.

- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م.

٧٠) الكتبي، محمد شاکر (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر ، بيروت، (د.ت).

٧١) ابن كثير، عماد الدين (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية في التاريخ، تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرون، دار الكتب العلمية، ط.٣، بيروت، ١٩٨٧م.

٧٢) الكندي، أبو عمر محمد (ت بعد ٣٥٥هـ/ بعد ٩٦٦م)، كتاب الولاة وكتاب القضاة، تحقيق: محمد إسماعيل وآخرون، دار الكتب العلمية، ط.١، بيروت، ٢٠٠٣م.

(٧٣) اللقيمي، مصطفى أسعد (ت ١١٧٨هـ/١٧٦٥م)، موانح الأنس برحلتني لوادي القدس، تحقيق:

عبد الله أمين، دار الرسالة للنشر، القاهرة، ٢٠٠٤م.

(٧٤) الماوردي، أبو الحسن (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، الأحكام السلطانية، تحقيق: أحمد البغدادي، مكتبة

دار ابن قتيبة، ط.١، الكويت، ١٩٨٩م.

(٧٥) المسعودي، علي بن الحسين (ت ٣٤٥هـ/٩٥٦م)، التنبيه والإشراف، مطبعة بريل، ليدن،

١٨٩٣م.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط.٥، بيروت،

١٩٧٣م.

(٧٦) مصطفى، إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة العلمية، طهران، (د.ت).

(٧٧) المعافري، أبو بكر (ت ٥٤٣هـ/١٤٨١م) القبس في شرح موطأ مسالك بن أنس، تحقيق: محمد ولد

كريم، دار الغرب الإسلامي، ط.١، بيروت، ١٩٩٢م.

(٧٨) المقدسي، شهاب الدين ابن تميم (ت ٧٦٥هـ/١٣٦٣م)، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام،

تحقيق: أحمد الخطيمي، دار الجيل، ط.١، بيروت، ١٩٩٤م.

(٧٩) المقدسي، محمد أحمد (ت بعد ٣٩٠هـ/٩٩٩م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة خياط،

بيروت، (د.ت).

(٨٠) المقرئزي، أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٠م)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء،

عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦١م.

- تاريخ الأقباط بالقول الإبريزي للعلامة المقريزي، تحقيق: عبد المجيد دياب، دار الفضيلة، (د.م)، (د.ت).

- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد زيادة، وسعيد عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤١م.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، مكتبة المثني، بغداد، (د.ت).

(٨١) المكي، عبد الله (ت ١١١١هـ/١٦٩٩م)، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تحقيق: عادل الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، ط.١، بيروت، ١٩٩٨م.

(٨٢) ابن مماتي، أسعد (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز عطية، مكتبة مدبولي، (د.م)، ١٩٩١م.

(٨٣) المنصوري، ركن الدين (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، التحفة المملوكية في الدولة التركية، الدار المصرية اللبنانية، ط.١، القاهرة، ١٩٨٧م.

(٨٤) ابن منظور، أبو الفضل (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (د.ت).

(٨٥) ابن منقذ، أسامة (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م)، الاعتبار، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، ط.١، دمشق، ١٩٩٥م.

(٨٦) النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت ٩٧٨هـ/١٥٧٠م)، الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية، ط.١، بيروت، ١٤١٠هـ.

٨٧) النويري، شهاب الدين (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: سعيد عاشور وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.

٨٨) الهروي، أبو الحسن (ت ٦١١هـ/١٢١٤م)، الإشارات في معرفة الزيارات، تحقيق: جانين سورديل، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٣م.

٨٩) الهمذاني، أبو محمد الحسن (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م)، صفة جزيرة العرب، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٤م.

٩٠) ابن واصل، جمال الدين محمد (ت ٦٩١هـ/١٢٩١م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال وآخرون، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٩٥٧م.

٩١) ابن الوردي، زين الدين (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تنمة المختصر في أخبار البشر المسمى: تاريخ ابن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البدرابي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٠م.

- خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، ط.٢، مصر، (د.ت).

٩٢) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م)، كتاب البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م.

- تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، (د.ت).

ثانياً : سجلات ودفاتر الأراضي والمحاكم الشرعية

١) أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين في ألوية غزة، والقدس، وصفد، ونابلس، وعجلون، حسب

دفتر (٥٢٢)، دراسة وتحقيق: محمد أبشلي، ومحمد داوود التميمي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستنبول، ١٩٨٢م.

- ٢) نواء القدس من دفتر مفصل (T.D.١٣١)، تاريخه (١٥٢٥/١٥٢٦م - ٩٣٨ هـ/١٥٣١-١٥٣٢م)، دراسة وتحقيق: محمد عدنان البخيت، ونوفان رجا السواريه، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط.١، لندن، ٢٠٠٧م.
- ٣) نواء القدس من دفتر مفصل (T.D.١٠١٥)، تاريخه (١٥٣٨/١٥٣٩م)، دراسة وتحقيق: محمد عدنان البخيت، ونوفان رجا السواريه، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط.١، لندن، ٢٠٠٨م.
- ٤) نواء القدس من دفتر مفصل (T.D.٢٨٩) تاريخه (١٥٥٣/١٥٥٤م)، دراسة وتحقيق: محمد عدنان البخيت، ونوفان رجا السواريه، الطبعة الوطنية، عمان، ٢٠١٠م.
- ٥) نواء القدس من دفتر مفصل (T.D.٥١٦)، تاريخه (١٥٦٢/١٥٧٠م)، دراسة وتحقيق: محمد عدنان البخيت، ونوفان رجا السواريه، الطبعة الوطنية، عمان، ٢٠١١م.
- ٦) سجل اراضي الوية صغد، نابلس، غزة، وقضاء الرملة حسب دفتر (٣١٢) تاريخه (١٥٥٦/١٥٦٤م)، دراسة وتحقيق: محمد عيسى صالحية، الأردن، ط.١، ١٩٩٩.

ثالثاً: المراجع الأجنبية المترجمة

- ١) بورشارد، وصف الأرض المقدسة، ترجمة: سعيد البيشاوي، مراجعة: مصطفى الحياوي، دار الشروق، عمان، ١٩٩٥م.
- ٢) بن تشيلو، إسحاق، رحلة بن تشيلو إلى فلسطين (الطرق من القدس)، ترجمة: عبد الرحمن المغربي، جامعة القدس المفتوحة، نابلس، (د.ت).
- ٣) جيل، ريموندا، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة وتحقيق: حسين عطية، دار المعرفة الجامعية، ط.١، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.

٤) ديورانت، ول وايرل، قصة الحضارة، ترجمة: زكي محمود وآخرون، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨م.

٥) الراهب، دانيال، وصف الأراضي المقدسة في فلسطين للحاج دانيال الراهب (١١٠٦-١١٠٧م) ، ترجمة: سعيد البيشاوي وداود أبو هدبة، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط.١، عمان، ٢٠٠٣م.

٦) رنسيان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني ، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٨م.

٧) الشارترى، فوشيه، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة وتحقيق: زياد العسلي، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط.١، القاهرة، ١٩٩٠م.

٨) فابري، فيلكس، جولات الراهب الدومينيكي فيلكس فابري ورحلاته ضمن الموسوعة في تاريخ الحروب الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: سهيل زكار، (د.د)، دمشق، ١٩٩٥م.

٩) الفيتري، يعقوب، تاريخ بيت المقدس، ترجمة وتحقيق: سعيد عبد الله، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط.١، عمان، ١٩٩٨م.

١٠) قسطوس، الرومي، الفلاحة اليونانية، ترجمة: سرجس ابن هلبا الرومي، مطبعة القاهرة، (د.م)، ١٨٧٦م.

١١) لابدوس، إيرا، مدن إسلامية في عهد المماليك، ترجمة: علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م.

١٢) لودولف، وصف الأرض المقدسة للرحالة وودولف السوخومي، ترجمة: عثمان الخطيب، دار الشيماء للطباعة والنشر، (د.م)، ٢٠١٦م.

١٣) مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة: حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٨م.

١٤) مجهول، الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق وتقديم: سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، ١٩٨١م.

١٥) مجهول، الحروب الصليبية الثالثة صلاح الدين وريتشارد، ترجمة: حسن حبشي، (د.د) ط.١، القاهرة، ٢٠٠٠م.

رابعاً: المراجع

١) إبراهيم، عاطف ومحمد حجاج، الفاكهة المستديمة الخضرة زراعتها ورعايتها وإنتاجها، منشأة المعارف، ط.١، الإسكندرية، ١٩٩٨م.

٢) إبراهيم، عبد اللطيف، دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية، دار الشعب، ط.١، القاهرة، (د.ت).

٣) أسعد، منصور، تاريخ الناصرة من أقدم أزمانها إلى أيامنا الحاضرة، مؤسسة دار الهلال، ط.١، (د.م)، ١٩٢٤م.

٤) إسماعيل، حسن، ألفاظ الحضارة عند أبي حيان التوحيدي، دار الفارابي، ط.١، (د.م)، ٢٠١٠م.

٥) أشتور، آ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة: عبد الهادي عبلة، دار قنينة، دمشق، ١٩٨٥م.

٦) اعبيد، وائل، القدس في العصرين الفاطمي والأيوبي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط.١، عمان، ٢٠٠٥م.

٧) ألغزي، كامل، نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، ط.٢، حلب، ١٤١٩هـ.

- ٨) الإمام، رشاد، مدينة القدس في العصر الوسيط (١٢٥٣-١٥١٦م)، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٦م.
- ٩) الأنصاري، ناصر، المجمل في تاريخ مصر النظم السياسية والإدارية، دار الشروق، ط.١، القاهرة، ١٩٩٣م.
- ١٠) أنطون، فرح، أورشليم الجديدة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط.١، القاهرة، (د.ت).
- ١١) الأوتاني، أحمد، دمشق في العصر الأيوبي، تقديم: سهيل زكار، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، ط.١، دمشق، ٢٠٠٧م.
- ١٢) بحيري، صلاح الدين، جغرافية الأردن، (د.د)، عمان، (د.ت).
- ١٣) البخيت، محمد، بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور النصارى وجوارها، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٢م.
- ١٤) برجاي، سعيد، الحروب الصليبية في المشرق، دار الآفاق الجديدة، ط.١، بيروت، ١٩٨٤هـ.
- ١٥) بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين ومخير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط.٥، بيروت، ١٩٦٨م.
- ١٦) البعلبكي، منير، موسوعة المورد العربية، دار العلم للملايين، ط.١، بيروت، ١٩٩٠م.
- ١٧) البقلي، محمد قنديل، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.م)، ١٩٨٣م.
- ١٨) بكري، حسن، الإسلام والمسيحية، مكتبة دار نشر الثقافة، (د.م)، ١٩٦٦م.

١٩) بلال، ثناء عبد الرحمن، الملابس في العصرين القبطي والإسلامي، دار النهضة العربية، القاهرة ، ١٩٨٢م.

٢٠) بلدية بيت لحم، أحياء البلدة القديمة في مدينة بيت لحم، (د.د.)، (د.م.)، ٢٠١٤م.

٢١) بنورة، توما، تاريخ بيت لحم بيت جالا بيت ساحور، مطبعة المعارف، القدس، ١٩٨٢م.

٢٢) البهنسي، عفيف، العمارة والزخرفة في فلسطين منذ الفتح العربي الإسلامي، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، بيروت، ١٩٩٠م.

٢٣) بولياك، أن، الاقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة: عاطف كرم، منشورات دار الكشوف، ط.٢، بيروت، ١٩٤٨م.

٢٤) البيشاوي، سعيد، الاستيطان الفرنجي في بيت المقدس والمناطق المحيطة بها (١٠٩٩-١١٨٧م)، بحوث في تاريخ العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٤م.

-الأراضي الزراعية ومنتجاتها في الخليل في العصر الفرنجي (٤٩٢-٥٨٣هـ / ١٠٩٩-

١١٨٧م): ضمن كتاب دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى،

تحرير: محمد عوض، ط.١، القاهرة، ٢٠٠٣م.

-الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ،

١٩٨٩م.

-نابلس: الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية خلال الحروب الصليبية، (د.د.)،

ط.١، عمان، ١٩٩٠م.

٢٥) البيشاوي، يحيى، المسرح والقضايا المعاصرة، الأكاديميون للنشر والتوزيع، (د.م.)، ٢٠١١م.

- ٢٦) التظلي، بنيامين، رحلة بنيامين التظلي، المجمع الثقافي، ط.١، أبو ظبي، ٢٠٠٢م.
- ٢٧) ثيودوري، إبراهيم، القدس في العيون، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، ط.١، (د.م)، ٢٠١١م.
- ٢٨) جقمان، حنا، جولة في تاريخ الأرض المقدسة من أقدم العصور حتى اليوم، مركز الهبة للخدمات الهندسية، ط.١، بيت لحم، ٢٠٠٠م.
- ٢٩) الجهني، مانع، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط.٤، (د.م)، ١٤٢٠هـ.
- ٣٠) حافظ، أحمد، الامبراطورية الرومانية من النشأة إلى الانهيار، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٧م.
- ٣١) حتاملة، محمد، حبراص زيتونها المبارك يحمي مسجدها الأموي، الجامعة الأردنية، (د.م)، ٢٠١٧م.
- ٣٢) حتي، فيليب وآخرون، تاريخ العرب المطول، دار الكشاف للنشر والطباعة، ط.١٢، (د.م)، ٢٠٠٧م.
- ٣٣) أبو الحجاج، يوسف، القائد صلاح الدين الأيوبي، دار الذهبية للنشر والتوزيع، ط.١ القاهرة، ٢٠١٨م.
- ٣٤) حجة، شوكت، العلاقات بين دولة المماليك الأولى ودولة إيلخانية فارس (٦٤٨-٧٣١هـ)، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن، (د.ت).
- ٣٥) أبو حجر، آمنة، موسوعة المدن والقرى الفلسطينية، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط.١، (د.م)، ٢٠٠٣م.
- ٣٦) الحروب، صقر، جغرافية فلسطين، وزارة الثقافة الفلسطينية، ط.١، فلسطين، ٢٠١٤م.

٣٧) الحريري، علي سيد، الأخبار السننية في الحروب الصليبية، الزهراء للإعلام العربي، ط.٣، القاهرة، ١٩٨٥م.

٣٨) حسن، إبراهيم، مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، مكتبة النهضة المصرية، ط.٥، القاهرة، ١٩٦٤م.

٣٩) حسنين، عبد النعيم، سلاجقة إيران والعراق، دار المعارف، ط.٢، القاهرة، ١٩٧٠م.

٤٠) حسين، حمدي، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، (د.م)، ٢٠٠٠م.

٤١) حلواني، أحمد، ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين، دار البشائر للطباعة والنشر، ط.١، (د.م)، ٢٠٠٠م.

٤٢) حلاوي، محمود، النظم الإسلامية في عصر صدر الإسلام، دار الأرقم، ط.١، (د.م)، ٢٠١٠م.

٤٣) الخالدي، أحمد، رجال الحكم والإدارة في فلسطين من عهد الخلفاء الراشدين إلى القرن الرابع عشر الهجري، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، (د.ت).

٤٤) خطاب، محمود، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، دار ابن حزم، ط.١، بيروت، ١٩٩٨م.

٤٥) أبو خليل، شوقي، حطين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، دار الفكر، ط.١، دمشق، ٢٠٠٥م.

٤٦) الخوند، سعود، الموسوعة التاريخية الجغرافية، دار رواد النهضة، جونية، (د.ت).

٤٧) دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: أحمد الشنتناوي وآخرون، (د.د)، طهران، ١٩٣٣م.

٤٨) الدباغ، مصطفى، بلادنا فلسطين، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٢م.

٤٩) الدبس، يوسف، **الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل**، المطبعة العمومية الكاثوليكية، بيروت، ١٩٠٥م.

٥٠) الدجاني، هادية وآخرون، **الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط.١، بيروت، ١٩٩٤م.

٥١) دراج، أحمد، **المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١م.

- **وثائق دير صهيون**، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨م.

٥٢) درويش، مهاب، **تاريخ وآثار النوبة**، مكتبة الإسكندرية، (د.م.)، (د.ت).

٥٣) دسوقي، محمد، **القبائل العربية في بلاد الشام منذ ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الأموي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.م.)، ١٩٩٨م.

٥٤) دهمان، محمد، **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، دار الفكر، ط.١، دمشق، ١٩٩٠م.

٥٥) الدومينيكي، مرمجي، **بلدانية فلسطين العربية**، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٧م.

٥٦) الدويهي، اسطفان، **تاريخ الأزمنة**، ترجمة وتحقيق: بطرس فهد، دار لحد خاطر، ط.٣، (د.م.)، ١٩٠٠م.

٥٧) الذنبيات، ماجدة، وآخرون، **الدليل الفني لانتاج محصول العنب**، المركز الوطني للبحث والإرشاد الزراعي، عمان، ٢٠٠٧م.

٥٨) رستم، أسد، **مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران**، المكتبة البولسية، ط.٢، بيروت، ١٩٩٠م.

٥٩) رستم، سعد، الفرق والمذاهب المسيحية منذ ظهور الإسلام حتى اليوم، الأوائل للنشر والتوزيع، ط.٢، دمشق، ٢٠٠٥م.

٦٠) زامبارو، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة: زكي محمد حسن بك وآخرون، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٠م.

٦١) الزركلي، خير الدين، الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، ط.٤، بيروت، ١٩٧٩م.

٦٢) زكار، سهيل، فلسطين في عهد المماليك من أواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي إلى أواسط القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، بيروت، ١٩٩٠م.

- الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، دار الفكر، ط.١، دمشق، ٢٠٠٠م.

٦٣) زكي، نعيم، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، المكتبة المصرية، مصر، ١٩٧٣م.

٦٤) زناتي، أنور، معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية، دار زهران للنشر والتوزيع، ط.١، عمان، ٢٠١١م.

٦٥) أبو زهرة، محمد، محاضرات في النصرانية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط.٤، الرياض، ١٤٠٤هـ.

٦٦) زيادة، نقولا، الجغرافية والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٦٢م.

٦٧) أبو زيد، سامي، أدب العصور المتتابعة (الزنية والأيوبية والمماليك)، دار المسيرة للطباعة والنشر ط.١، (د.م)، ٢٠١٢م.

٦٨) الزيدي، مفيد، موسوعة التاريخ الإسلامي: العصر المملوكي، دار أسامة، ط.١، عمان، ٢٠٠٩م.
٦٩) سترانج، لي، فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة: محمود عمايرة، جمعية عمال المطابع التعاونية، ط.١، عمان، ١٩٧٠م.

٧٠) السرجاني، راغب، الموسوعة الميسرة في التاريخ الإسلامي، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع، ط.٣٩، القاهرة، ٢٠١٤م.

٧١) السرياني، ماديونيسيوس، الدر الفريد في تفسير العهد الجديد، ترجمة: عبد المسيح الأرثوذكسي، مصر، ١٩١٤م.

٧٢) السعد، جودت، مختصر البلدان في أرض كنعان، مكتبة برهومة للنشر والتوزيع، ط.١، عمان، ١٩٩٥م.

٧٣) سنيوبوس، شارل، تاريخ حضارات العالم، ترجمة: محمد علي، الدار العالمية للكتب والنشر، ط.١، (د.م)، ٢٠١٢م.

٧٤) الشامي، كامل، جغرافية فلسطين: دراسة الأقاليم الطبيعية، مركز غنيم للتصميم والطباعة، عمان، ١٩٩١م.

٧٥) شديفات، صالح، وآخرون، جفت الزيتون، المركز الوطني للبحث والإرشاد الزراعي، عمان، ٢٠٠٩م.

٧٦) شراب، محمد معجم بلدان فلسطين، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٧م.

- (٧٧) شعيب، منى، المسجد الأقصى والهيكل الثالث، (د.د)، (د.م)، ٢٠١٢م.
- (٧٨) شلبي، محمود، حياة الملك الظاهر بيبرس، دار الجبل، بيروت، (د.ت).
- (٧٩) شنودة، زكي، موسوعة تاريخ الأقباط والمسيحية، دار فيلوباترون للترجمة والنشر، (د.م)، ٢٠٠١م.
- (٨٠) الشيال، جمال الدين، تاريخ مصر الإسلامية، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، (د.م)، ٢٠٠٧م.
- (٨١) صالح، محسن، دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ط.١، بيروت، ٢٠١٠م.
- الطريق إلى القدس (دراسة تاريخية في رصيد التجربة الإسلامية على أرض فلسطين منذ عصور الأنبياء وحتى أواخر القرن العشرين)، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ط.٥، بيروت، ٢٠١٢م.
- (٨٢) صالحية، محمد عيسى، علم الريافة عند العرب، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨٢م.
- من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية السادسة، ١٩٨٥م.
- (٨٣) صايغ، عيظم، قاموس الكتاب المقدس، مكتبة المشعل، ط.٦، بيروت، ١٩٨١م.
- (٨٤) الصلابي، علي، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحريم بيت المقدس، دار المعرفة، ط.١، بيروت، ٢٠١٨م.
- دولة السلاجقة وبرز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، مركز السلام، ط.١، القاهرة، ٢٠٠٦م.

- ٨٥) الصلاحيات، سامي، الأوقاف الإسلامية في فلسطين ودورها في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ط.١، بيروت، ٢٠١١م.
- ٨٦) الصوفي، مصطفى، طقوس احتفالات المواسم والأعياد الربيعية، (د.د.)، (د.م.)، ٢٠١٥م.
- ٨٧) الطراونة، طه ثلجي، مملكة صفد في عهد المماليك، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢م.
- ٨٨) الطراونة، مبارك، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة، المنهل، (د.م.)، ٢٠١٠م.
- ٨٩) طقوش، محمد سهيل، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، دار النفائس، ط.١، (د.م.)، (د.ت.).
- تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام (٥٢١-٦٣٠هـ / ١١٢٧-١٢٣٣م)، دار النفائس، ط.٢، بيروت، ٢٠١٠م.
- ٩٠) العابدي، الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن، جمعية عمال المطابع التعاونية، (د.م.)، ١٩٧٣م.
- ٩١) العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، مكتبة الأندلس، القدس، ١٩٦١م.
- ٩٢) عاشور، سعيد، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦م.
- الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو
مصرية، القاهرة، ٢٠١٠م.
- العصر المماليكي في مصر والشام، دار الاتحاد النهضة العربية، ط.٢، القاهرة، ١٩٧٦م.
- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٢م.

- ٩٣) عاشور، فايد، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية: العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي، مؤسسة الرسالة، ط.٤، بيروت، ١٩٨٨م.
- ٩٤) عامر، محمد، عروبة القدس ودعاوي الصهيونية الباطلة، المكتبة الأكاديمية، ط.٢، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- ٩٥) العبادي، أحمد، قيام دولة المماليك الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م.
- ٩٦) عبد السلام، عادل، جغرافية سوريا الإقليمية، جامعة دمشق، ط.١، دمشق، ١٩٩٦م.
- ٩٧) عبد السيد، إبراهيم، الفرق العقيدية بين المذاهب المسيحية، كنيسة مارجرجس، المعادي، (د.ت).
- ٩٨) عبد الغني، مصطفى، الأوقاف على القدس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- ٩٩) عبد الفتاح، كمال، السمات العربية للمواقع الفلسطينية المهودة، كتاب مؤتمر بلاد الشام، دار الرشد للنشر، دمشق، ١٩٨٢م.
- ١٠٠) عبد الفتاح، كمال وآخرون، سكان فلسطين والأردن وجنوب سوريا في أواخر القرن السادس عشر، (د.د.)، (د.م.)، ١٩٧٧م.
- ١٠١) عبد القادر، حسن وآخرون، أسماء المواقع الجغرافية في الأردن وفلسطين، اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر، عمان، ١٩٧٣م.
- ١٠٢) عبد المسيح، حسام، سر المجوس الثلاثة، (د.د.)، (د.م.)، ٢٠١٨م.
- ١٠٣) عبد الوهاب، حسن، العمارة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ١٠٤) عبيد، يوسف، دليل مواقع المدن والقرى والقبائل البدوية في فلسطين، (د.د.)، عمان، ٢٠٠٥م.

١٠٥) عثمانة، خليل، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط. ١، بيروت، ٢٠٠٦م.

١٠٦) عراف، شكري، المواقع الجغرافية في فلسطين: الأسماء العربية والمسميات العبرية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ٢٠٠٥م.

١٠٧) العريني، الباز، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م.

١٠٨) أبو العزم، عبد الغني، المعجم الغني، مؤسسة الغنى للنشر، (د.م)، (د.ت).

١٠٩) العسلي، كامل، القدس في التاريخ، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٢م.

- معاهد العلم في بيت المقدس، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨١م.

- من آثارنا في ثرى القدس، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨٢م.

- موسم النبي موسى في فلسطين: تاريخ الموسم والمقام، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٠م.

- وثائق مقدسية تاريخية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (د.م)، ١٩٨٩م.

١١٠) العصيمي، إيمان، المسلمون والغزو الصليبي في العصور الوسطى، جامعة أم القرى، (د.م)، ٢٠١٧م.

١١١) عطا الله، محمود، نيابة غزة في العصر المملوكي، دار الآفاق الجديدة، ط. ١، بيروت، ١٩٨٦م.

١١٢) أبو علم، عبد الله، أسماء ومسميات فلسطينية وعربية وأجنبية، دار الفلاح للنشر والتوزيع، عمان، (د.ت).

١١٣) علوان، عبد الله، صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبيين، دار السلام، ط. ٣، القاهرة، (د.ت).

- ١١٤) علي، جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقى، ط.٤، (د.م)، ٢٠٠١م.
- ١١٥) علي، علي السيد، القدس في العصر المملوكى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط.١، القاهرة، ١٩٨٦م.
- وثائق الحرم القدسي الشريف (مصدر لدراسة بعض جوانب التاريخ الاجتماعى للقدس فى العهدين الأيوبي والمملوكى)، مجلة الدرعية، (د.م)، ١٩٩٩م.
- ١١٦) ابن العميد، المكين، أخبار الأيوبيين، مكتبة الثقافة الدينية، ط.١، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ١١٧) العناتى، جاسر، فتح صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس بين السياسة والحرب، أمواج للنشر والتوزيع، ط.١، عمان، ٢٠١٢م.
- ١١٨) غزالة بك، حبيب، جزيرة رودس (جغرافيتها وتاريخها وآثارها)، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٢٩م.
- ١١٩) غوانمة، يوسف، التاريخ الحضارى لشرقي الأردن فى العصر المملوكى، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط.٢، عمان، ١٩٨٢م.
- تاريخ نيابة بيت المقدس فى العصر المملوكى، دار الحياة للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٢م.
- دراسات فى تاريخ الأردن وفلسطين فى العصر الإسلامى، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٣م.
- معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج (خطاب جديد فى العجز الإسلامى والعربى والمشروع النهضوى العربى الوحدوى)، دار الفكر والنشر والتوزيع، ط.١، عمان، ١٩٩٥م.

١٢٠) فاخوري، محمد، وآخرون، موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية وما يعادلها بالمقادير الحديثة، مكتبة لبنان ناشرون، ط.١، بيروت، ٢٠٠٢م.

١٢١) فورد، ر، مع العرب في بيت الشعر والبلدة، ترجمة: سليمان موسى، دار ابن رشد، عمان، ١٩٨٤م

١٢٢) القاسمي، خالد، العلاقات الخارجية في العصر الإسلامي، الدار الثقافية للنشر، ط.١، القاهرة، ٢٠١٣م.

١٢٣) القاسمي، محمد وآخرون، قاموس الصناعات الشامية، تحقيق: ظافر القاسمي وآخرون، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط.١، دمشق، ١٩٨٨م.

١٢٤) القاضي، أحمد، دعوة للتقريب بين الأديان (دراسة نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية)، دار ابن الجوزي، (د.م)، ١٤٢١هـ.

١٢٥) قزما، ماريو، دراسة جيولوجية وهيدروجيولوجية، (د.د)، (د.م)، ٢٠٠٤م.

١٢٦) كرد، علي، خطط الشام، مكتبة النوري، ط.٣، دمشق، ١٩٨٣م.

١٢٧) كوهين، أمون، القدس دراسات في تاريخ المدينة، (د.د)، (د.م)، ١٩٩٠م.

١٢٨) لجنة من الأدباء، لبنان مباحث عملية واجتماعية، تحقيق: أنطون فيقانو، دار لحد خاطر، بيروت، ١٩١٨م.

١٢٩) ل.م. ماير، الملابس المملوكية، ترجمة: صالح الشيتي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م.

١٣٠) لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، (د.م)، ٢٠١٢م.

١٣١) ليز يول، استانلي، طبقات سلاطين الإسلام، ترجمة وتحقيق: مكي طاهر الكعبي، دار منشورات البصري، ط.١، (د.م)، ١٩٦٨م.

١٣٢) مؤسسة أريج، دليل قرية بتير، معهد الأبحاث التطبيقية، القدس، ٢٠١٠م.

- دليل قرية بيت تعمر، معهد الأبحاث التطبيقية، القدس، ٢٠١٠م.

- دليل قرية الولجة، معهد الأبحاث التطبيقية، القدس، ٢٠١٠م.

- دليل مدينة بيت ساحور، معهد الأبحاث التطبيقية، القدس، ٢٠١٠م.

١٣٣) مؤلف مجهول، معجم المهن القديمة والحديثة حتى أبواب القرن الحادي والعشرين، (د.د)، (د.م)، (د.ت).

١٣٤) مجموعة باحثين، الحج، العلم، والصوفية: الفن الإسلامي في منطقة الضفة الغربية وغزة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (د.م)، ٢٠٠٧م.

١٣٥) مجموعة من الباحثين، بيت لحم، الجمعية الأنطونية الخيرية البيتلحمية، (د.م)، ١٩٩٧-١٩٩٨م.

١٣٦) مجموعة من الرحالة المجهولين، وصف الأرض المقدسة، ترجمة: جلال سلامة، تقديم: سعيد البيشاوي، دار الشيماء للنشر والتوزيع، ط.١، رام الله، ٢٠١٣م.

١٣٧) مجموعة من العلماء والباحثين، الموسوعة العربية الميسرة، المكتبة العصرية، ط.١، بيروت، ٢٠١٠م.

١٣٨) محاسنة، محمد، حقيقة القدس، منشورات أمانة عمان الكبرى، عمان، ٢٠٠٤م.

- ١٣٩) المريني، ندى، بيت العنكبوت: الكيان الصهيوني بين يهودية الدولة وإنهيارها، باحث للدراسات الفلسطينية والاستراتيجية، ط.١، بيروت، ٢٠١١م.
- ١٤٠) مصطفى، وليد، قصة مدينة بيت لحم، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم دائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية، (د.م)، (د.ت).
- ١٤١) المصو، عيسى، كنيسة المهد في بيت لحم، مجلة جامعة بيت لحم، (د.م)، ١٩٨٣م.
- ١٤٢) المعاضيدي، خاشع، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي، جامعة الموصل، ط.١، (د.م)، (د.ت).
- ١٤٣) المغلوث، سامي، أطلس تاريخ الدولة العباسية، مكتبة العبيكان، ط.١، الرياض، ٢٠١٢م.
- ١٤٤) مقامي، نبيلة، فرقة الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، دار النهضة، القاهرة، ١٩٩٤م.
- ١٤٥) ملر، أندرو، مختصر تاريخ الكنيسة، شركة الطباعة المصرية، ط.٤، (د.م)، ٢٠٠٣م.
- ١٤٦) المنجد، صلاح الدين، اللاجئين المقدسة إلى دمشق بعد الغزو الفرنجي ونتائج هجراتهم، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، ط.١، فلسطين، ١٩٨٣م.
- ١٤٧) المهدي، عبلة، القدس تاريخ وحضارة، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ط.١، (د.م)، ٢٠٠٠م.
- ١٤٨) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ١٩٨٤م.
- ١٤٩) مونرون، مكسيموس، من تاريخ الأرض المقدسة المدعوة حرب الصليب، ترجمة: كيريو كيريو مكسيموس مظلوم، طبع الرهبان الفرنسيكان، القدس، ١٨٤١م.
- ١٥٠) موير، وليم، تاريخ دولة المماليك، مطبعة المعارف، ط.١، مصر، ١٩٢٤م.

- (١٥١) ميتز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة: محمد أبو ريده، دار الكتاب العربي، ط.٥، بيروت، (د.ت).
- (١٥٢) نجم، رائف وآخرون، كنوز القدس، (د.د)، ط.١، عمان، ١٩٨٣م.
- (١٥٣) نصار، فتحي، وثائق فلسطين من العهد العمري إلى وعد بلفور، الدار الثقافية للنشر، ط.١، (د.م)، ٢٠١٣م.
- (١٥٤) نعيترات، أسامة، إقطاعية بيسان ودورها في الصراع الإسلامي الفرنجي (٤٩٢-٦٩٠هـ/١٠٩٩-١٢٩١م)، مؤسسة الأسوار، ط.١، عكا، ٢٠٠٢م.
- (١٥٥) النقاش، زكي، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، ط.١، بيروت، ١٩٥٧م.
- (١٥٦) النقر، محمد، تاريخ بيت المقدس في العصر المملوكي، دار البداية، ط.١، عمان، ٢٠٠٦م.
- (١٥٧) هايد، ف، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة: عز الدين فوده، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.م)، ١٩٨٥م.
- (١٥٨) هنتس، فالتر، المكايل والأوزان والمقاييس، ترجمة: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م.
- (١٥٩) هيكل، محمد حسنين، الامبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط.١، القاهرة، ٢٠١٤م.
- (١٦٠) وزارة السياحة، السياحة الفلسطينية في الإطار الإقليمي، المركز الفلسطيني للدراسات الإقليمية، البيرة، ١٩٩٧م.

١٦١) ويندوفر، روجر، ورود التاريخ: ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الشامية في تاريخ

الحروب الصليبية الجزء (٤٤)، ترجمة: سهيل زكار، ط.١، دمشق، ١٩٩٥م.

١٦٢) ياغي، إسماعيل، تاريخ مدينة القدس، دار الكرمل، عمان، ١٩٨٤م.

١٦٣) اليعقوب، محمد، ناحية القدس الشريف: في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي،

البنك الأهلي الأردني، (د.م)، ١٩٩٩م.

١٦٤) اليوزبكي، توفيق، دراسات في النظم العربية الإسلامية، (د.د)، ط.٣، (د.م)، ١٩٨٨م.

١٦٥) يوسف، محسن، الخارطة الدينية لسكان فلسطين عشية الاحتلال الفرنسي، (د.د)، (د.م)،

١٩٩٣م.

خامساً: الرسائل العلمية

١) بكير، مروان، المدينة الفلسطينية في عهد المماليك، رسالة ماجستير، جامعة بيرزيت، فلسطين،

٢٠٠٥م.

٢) الحميدي، يوسف، ياقوت الحموي مؤرخاً: من خلال كتابه معجم البلدان، رسالة ماجستير، جامعة

أم القرى، السعودية، ط.١، ١٩٩٨م.

٣) الحوش، حمزة، أوقاف ناحية الخليل في القرن العاشر الهجري، رسالة ماجستير، جامعة الخليل،

الخليل، ٢٠١٨م.

٤) خرابشة، سليمان، نيابة طرابلس في العهد المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، اليرموك،

١٩٩٣م.

- ٥) الخطيب، محمد، الأوقاف الإسلامية في فلسطين في العصر المملوكي، رسالة دكتوراة، جامعة اليرموك، الأردن، ٢٠٠٧م.
- ٦) خليل، مقبولة، مدينة القدس في العهد الأيوبي من سنة (٥٨٣ - ٦٥٠هـ/١١٨٧-١٢٠٢م)، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩١م.
- ٧) دريد نوري، سياسة صلاح الدين: في بلاد مصر والشام والجزيرة، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، بغداد، ١٩٧٦م.
- ٨) أبو دمة، أمين، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، سوريا، ١٩٨٨م.
- ٩) زعرور، إبراهيم، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراة، جامعة دمشق، دمشق، ١٩٩٠م.
- ١٠) أبو شلوف، نسيم، الأوضاع الاجتماعية في فلسطين في العهد المملوكي، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٩م.
- ١١) صافي، سعيد، مدينة الخليل في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٦م.
- ١٢) الصوافي، طالب، القلاع في شمال فلسطين في فترة الصراع الفرنجي الإسلامي (٤٩٢-٦٩١هـ/١٠٩٩-١٢٩١م) دراسة تاريخية استراتيجية، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٧م.
- ١٣) أبو عطوي، سحر، المقامات في العصرين المملوكي والعثماني، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠١٤م.

١٤) عودة، أيمن، المقومات السياحية في محافظة بيت لحم، رسالة ماجستير، جامعة النجاح، نابلس، ٢٠١١م.

١٥) أبو عون، عبد الرحمن، اقطاعية حيفا ودورها في الصراع الإسلامي الفرنجي، رسالة ماجستير، جامعة النجاح، نابلس، ٢٠٠٤م.

١٦) مكاحلة، نهى، الزراعة في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٢م.

سادساً: الدوريات

- ١) شارع واحد بأسماء متعددة، الحياة الجديدة، ١٠/٨/٢٠١٥م.
- ٢) الجندي، إبراهيم، فلسطين في عيون الرحالة الأوروبيين، المجلة الفلسطينية للدراسات التاريخية، العدد (٣) كانون الثاني، ٢٠٠٣م.
- ٣) أبو رميس، إبراهيم، إبراهيم ربايعة، وقف قناة السبيل في القدس من خلال الوثائق العثمانية، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، المجلد ٢٢، العدد الثاني، يونيو ٢٠١٤م.
- ٤) شوملي، قسطندي، كنيسة المهدي والمعتقدات الشعبية والدينية المتعلقة بها، موسوعة التراث الفلسطيني، العدد الخامس، ٢٠١٦م.
- ٥) مصطفى، نهلة، أولاد الناس في مجتمع عصر سلاطين المماليك: أولاد الناس في الحياة السياسية والإدارية، دورية كان التاريخية، العدد الخامس، أيلول ٢٠٠٩م.

٦) العيسة، أسامة، **الجنة المقفلة**، جريدة العرب الدولية الشرق الأوسط، العدد ١٠٤٦٨، الجمعة ١٢ رجب ١٤٢٨هـ/٢٧ يوليو ٢٠٠٧م.

-نقش إسلامي على باب كنيسة المهدي، الحياة الجديدة، العدد ٦٨٥٧، الأحد ١٤/١٢/٢٠١٤م.

سابعاً: المصادر الأجنبية

- 1) Albert d'Aix, **Historia Hierosolymitana**, Paris, 1879.
- 2) Bordonove. G, **Les croisades et le Royaume de Jerusalem**, 1992.
- 3) Conder.C, **The Latin Kingdom of Jerusalem 1099–1291**, London, 1897.
- 4) Ernoul, **Le Chronique d'Ernoul et de Bernard Le Tresirier**. Mas Latrie, Paris, 1871.
- 5) Fucher of Chartres, **A History of the Expedition to Jerusalem**, trans by: Frances Rita Ryan, Harold's Fnk, Konuville, U.S.A, 1969.
- 6) Lewis, Chhen, **Population and Revenue in the towns of Palestine in the Sixteenth Century** ,Princeton University Press. New Jersey,1978.
- 7) **Palestine Pilgrims' Text Society**, London 1971 .
- 8) Mayer. H.E. **The Crusades**, London, 1972.
- 9) Michaud. J, **Histoire de Croisades**, vol 4, Paris, 1829.

- 10) Ostrogorsky. K , **A History of the Crusades**, London, 1969.
- 11) Prawer. **The History of the Jews in the Latin Kingdom of Jerusalem**,
1974.
- 12) Regesta . R, **Regni Hierosolymitani**, Innsbruk. 1893.
- 13) Richard. J, **Le Royaume Latin de Jerusalem**, Paris.
- 14) Rohricht, **Annales de Terre Sainte**, 1884.
- 15) Runciman, Steven, **A History of The Crusades**, Cambridge university
press, United Kingdom.1951.
- 16) Setton , **A History Of The Crusades**, The University of Wisconsin, U.S.A
, 1989.
- 17) Shaefer, Karl, **Jerusalem in the Ayyubid and Mumluk Eras**, University
Microfilms, Jerusalem, 1990.
- 18) Smail. R .C, **The Crusades in Syria and the Holy Land**, Southamptnn.
1973.
- 19) Smith, George Adam . **Jerusalem, the topography economic and
history from the earliest time to A.D 70**, Cambridge University, New
York, 1997.
- 20) Stevenson .W.B, **The Crusades in the East**, Beirut, 1968.

21) Theoderich, Description of the Holy Land, trans by: Aubrey Stewart,
London, 1894.

Abstract

This study examined the history of Bethlehem in the Ayyubid and Mamluk eras. It aimed at examining the political and cultural circumstances in these two close Islamic eras. Therefore, the differences between the two eras were not big except in some respects. The study was structured as it follows:

Chapter One: represented the city of Bethlehem whence its geography, name and its semantic connotations and the beginnings of this religious and holy city. Also, it was very important Bethlehem's introduce the geographical features, climate, water resources and how the city was described according to geographers, Islamic and western travellers.

Chapter Two: introduced Bethlehem City in the Ayyobid era. The first section of this chapter represented a preamble in which the study identified the Ayyobides and how they controlled and ruled the city. Then, the study shed light on the phenomenon of the political subordination which were existent in that era in Palestine, in general, and in Bethlehem, in particular. It then discussed several forms of social life in that era such as marriage and residents. After that, the study discussed the economic situations of the city such as farming, industry and trade. Finally, the chapter moved on to present the general situations of the city during the period of Sultan Saladin, Sultan al-Kamel Ayyobide and Sultan Najm al-Din Ayyoub.

Chapter Three included an introduction in which the study talked about the Mamluks and how they took control over al-Sham and Egypt. Then, the chapter discussed the administrative and political subordination for Bethlehem in that era. The study then touched on the population and their traditions and customs. It was

very important also to discuss the economic situations, agricultural products and industry. Finally, the chapter talked about the Church of Nativity and the stances of the Mamluk Sultans towards the city.

Hebron University
Dean ship of graduate Studies
Program of History



Bethlehem in the Ayobide and Mamluk Eras
(576-922 AH/ 1171-1517 AD)

Prepared by:

Khulud Mahmoud Ibrahim Al-Mallah

Supervisor:

Dr. Shawkat Ramadan Hajjeh

This study has been submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Master in History in Post Dean ship of graduate Studies
at the University of Hebron

2018AD/ 1440 AH

